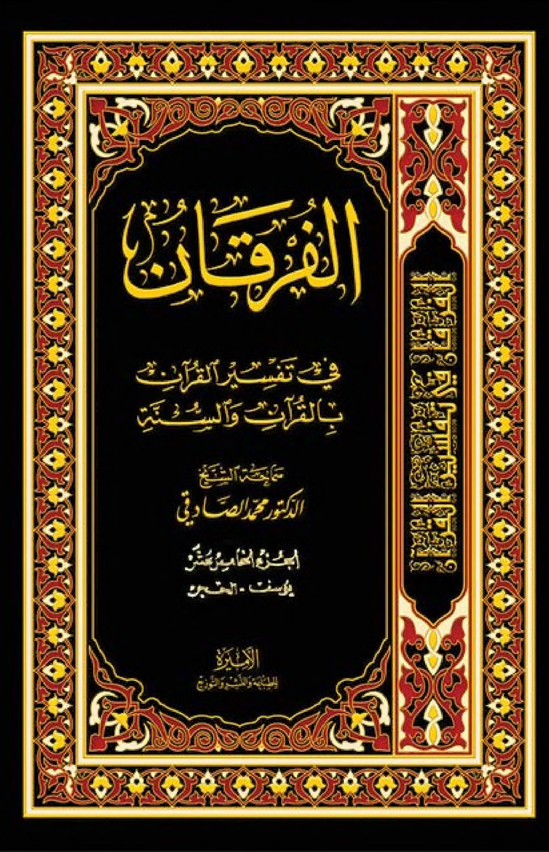


الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء الخامس عشر
يوسف - الحجر
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الجزء الخامس عشر

تتمة سورة يوسف - سورة الرعد

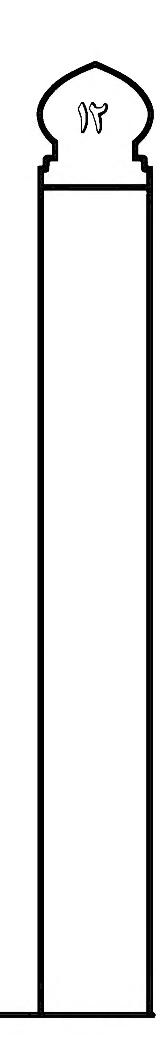
سورة إبراهيم - سورة الحجر



سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي





تتمة

سُورَة يُوسُف



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ

أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

مضت السنون البضع، سبعاً أو زاد ولم يدّكر الذي ظن أنه ناج أن يذكر الصديق عند ربه، وهذه طبيعة الحال للناس النسناس على أية حال، إلّا أن يحظو حظوة مادية من هذه الذكريات.

لقد كان يوسف بأيدي إخوته ضحيّة الحقد الماكن في قلوبهم فجعلوه في غيابت الجب، وبأيدي السيارة متاعاً يُشرى وبثمن بخس، وعند العزيز ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾(١) وللعزيزة شغفاً في متعة الجنس، وللسجنين معبراً للرؤيا، ثم الذي نجا لا يدّكر أمره إلّا بعد بضع من السنين يحتاجه لمرة أخرى معبراً لرؤيا الملك علّه يزداد عنده شأناً ومزيداً!

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أترى ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ هنا - وللتالي تتمة القصص - هو العزيز؟ كأنه لا، فإن مختلف التعبير بمختلف الأفعال تعبير عن مختلف الفواعل، فلو كان هو العزيز لقال «وقال العزيز» أم قال في قصة المراودة «امراة الملك»! ثم ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ في قصة الملك دون امرأة الملك، ولمّا يستخلص يوسف لنفسه يصبح هو العزيز ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾(٢) هذان يؤيدانه، وأن

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٨.

العزيز هو الشخصية الثانية في المملكة وقد عزل أو مات أو قتل فأصبح الصديق هو العزيز.

وقد تلوح ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾ بتكرر الرؤيا، حيث المضارعة في بيان الرؤيا الماضية تلمح إلى المداومة، والسمان جمع السمينة كما العجاف للعجفاء الهزيلة، أرى سبعين مختلفين في السمن والهزال، ومن العجاب أن العجاف يأكلن السمان، وأرى سبع سنبلات خضر وسبعاً أخر منها يابسات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ من الفتوى والفتيا وهو الجواب عن حكم المعنى، والجواب عن نفس المعنى.

فليس من الفتيا، و«تعبرون» هو العبور عن المعنى الظاهر إلى حكم الباطن، كما العبارة عبور عن اللفظ إلى معناه، فتأويل الرؤيا هو العبور إلى حقيقتها المعنية منها.

ولحد الآن في ذلك القصص تمر بنا رؤيٌّ ثلاث، من يوسف وصاحبي السجن والملك، والاهتمام بها وتأويلها يعطينا صورة من جو العصر آنذاك في مصر وخارجها، فالهبة اللدنية المؤتاة ليوسف من علم تأويل الرؤيا كانت تناسب جو العصر وروحه، حيث يحتاجه المؤمن وسواه سواء.

يطلب الملك - في اضطراب بال وسوء حال مما يراه - إلى الملأ من الكهنة والحاشية الملكية، وهم يحيدون عن تأويلها جهلاً أو تجاهلاً على طريقة رجال الحاشية في إخفاء ما يسوءه وإظهار ما يسره واختلاق الجو المساعد لهواه.

و﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ يعبِّر عن تهديده لهم ليفكروا جيداً حتى يعبروا، ولكنهم رغم اضطراب الملك وتهديده:

﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ (٤٤)﴾:

وهذه أحسن عبارة وأبلغ استعارة عما يعنون في حيدهم وميدهم،

فالأضغاث هي الخلائط من الحشيش المضموم بعضها إلى بعض، كالحزمة وما يجري مجراها، يُشبّه هنا اختلاط الأحلام، وما يمر به الإنسان من مكروه ومحبوب والمساءة والسرور، باختلاط الحشيش المجموع من أخياف عدة وأصناف متعددة.

فأضغاث من أحلام، يخلط بعضها ببعض، دون رباط ظاهر، ليس لها تأويل، وكما الأحلام ليس لها تأويل، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ لأنها أحلام تُستجرّ من اليقظة إلى المنام، فليست - إذاً - لتكشف عن حقيقة وراءها سوى نفسها، أم وحتى إذا كانت لها حقائق فـ ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ فضلاً عن أضغاثها وهي ظلمات بعضها فوق بعض! وتراهم كيف يتجرؤون على التعبير عن رؤيا الملك بـ ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ وفيه حطٌّ من ساحته ومسّ من كرامته؟ علّه للحفاظ على اطمئنان خاطره ألّا يشوّش بما يرى، وإعذارهم أنفسهم ألّا يتساءلهم كيف لا تعبرون ما أرى ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ وقضية الحفاظ على الأمرين هي إبعاد الرؤيا عن كونها ذات حقيقة، فسواء أكانوا يعلمون تأويلها أم يجهلون فصيانة الموقف تقتضي ما قضوه.

واللوحة الظاهرة من هذه المنامة في نظرة سطحية هي استيلاء الضعيف على القوي، وذلك يهدد السلطة الفرعونية بالزوال، ولو كانوا يعلمون ما أوّله يوسف لكانوا يتسابقون في تأويله حظوة عند الملك كما حظي الصديق، ولكنهم علموا ظاهراً منه سطحياً فهابوا الملك أن يؤلوه بما علموا و﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ...﴾!.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾:

﴿ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ هنا هو ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ هناك، حيث قال له يوسف ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ وهو الآن ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ ما ذكّر قبل ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ منه، ولأن له حظوة

ومنزلةً في تأويله.. «قال» بكل جرأة وطمأنينة ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ تجهيلاً للملأ، وتثبيتاً أن ما رآه الملك ليس من ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ وحتى لو كان منها فإن له تأويلاً يعرفه أهله ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أيها الملأ، دون «فأرسلني» إذ لم يكن هو من الملأ المخاطبين المطلوبين، فهو ساقي الملك وأنّى له أن يكون من الكهنة ورجال الحاشية.

وإنما يجرئه على ذلك رغم الملأ، حيث جرب يوسف من قبل فوجده عليماً بتأويل الرويء صادقاً في الحق وحقاً في الصدق، وعلّه استفاد من يوسف - لأقل تقدير - إن لكل رؤيا تأويلاً مهما كان من أضغاث أحلام، وإلّا فكيف يورط نفسه فيما ورّط وأهل التأويل يقولون إن ليس لها تأويل؟! ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ والنبأ خبر ذو فائدة عظيمة، وهو عليّ فيما ترسلون، وبطبيعة الحال أرسَلوه وبأمر الملك وتأكيده.

وقد تلمح ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ إنه ذكر الصديق بفضله وعلمه بتأويل الرؤيا عند ربه، وأنه الذي أوّل رؤياهما فكان كما كان، إذاً فمن ذا الذي يجرؤ عند الملك أن يعارك الساقي: ما أنت والإنباء بما جهلنا، أو ما ليس له تأويل؟ ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم... فَأَرْسِلُونِ﴾ فأرسلوه إلى الصديق فأخذ يتلطف معه في هذه المواجهة وبعد أمة من السنين:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

هنا ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تصريحة منه أن الملأ كانوا يجهلون حق التأويل، مهما كانوا يعلمون ظاهراً منه يعرفه كل احد، أن هناك حادثة أليمة في أركان الملك تعم الرعية، وفي ذلك فضحهم أن رؤياه أضغاث أحلام، بل أنتم الأضغاث وأنتم الأحلام، وليس الملك ليرى أضغاث أحلام!..

ثم ومما ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هو فضله وبراءته إذ سجنوه على جهالة

مدروسة من الحاشية الملكية، ويعكس ذلك خيانة امرأة العزيز والحاشية التي زجته في السجن.

فـ ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ في البداية، ثم ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ في النهاية تأكيد وتشجيع كيلا يتمنّع يوسف من تأويل نكاية عليه، لماذا لم تذكرني عند ربك طول هذه الأمة فلبثت في السجن بضع سنين؟ ولكنه لم يلفظ بشطر كلمة حول القضية، مما يدل على نبوة مقامه وبراءته عما افتري عليه من نسيانه هو ذكر ربه، والتنديد عليه لماذا توسلت إلى عبد؟!، ولا شرط أن يخرجوه حتى يفتي في رؤيا الملك خلاف ما يروى بشأن الرسول ﷺ [1] وهو أحرى من يوسف، وتراه إذا كان على علم من علم يوسف تأويل هذه الرؤيا كسائر الرُّئي فلماذا ﴿لَعَلِّيٓ أَرۡجِعُ... لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾؟ علّه لأنه ليس على علم برجوعه، فقد يموت في الطريق أو تقتله الحاشية قبل وصوله، وحتى إذا وصل فعلّهم لا يقبلون تأويله، أو براءته، ولا سيّما خيانة امرأة العزيز ونفس الحاشية.

ولأن المرجو هنا عظيم عظيم فقد يقاوم ما علّه ينقم منه: لماذا حرّج موقف الحاشية، لا سيما وأن الملك بجنبه ولو لم يأت بشيء إذ تكفيه محاولة لتأويل رؤياه! وهنا نراه بعدما يسمع الرؤيا يفتي للساقي ودون تمهل ولا شكاة ولا تطلّب نجاة بتوسل ثان:

﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

(١) في نور الثقلين ٣: ٤٣١ عن المجمع وروي عن النبي ﷺ أنه قال: لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشترط أن يخرجوني، ورواه مثله العياشي في تفسيره عن أبان عن محمد بن مسلم عنهما قالا إن رسول الله ﷺ قال: ... أقول وليضرب عرض الحائط لمخالفته نص القرآن في يوسف فالرسول ﷺ أحرى!.

أتراه أفتى - فقط - تأويلاً لرؤيا الملك؟ كلّا! حيث حكم على ضوء تأويله بما حكم، صادراً عن مصدر القيادة العليا وهو في السجن بتهمة الخيانة، وهذه هي الفتوى الكاملة، وقد كان المستفتي ليكتفي بالبند الأوّل فإنه - فقط - تأويل رؤيا، ولكنه يزيده حكماً صالحاً لفتواه، ليأخذ بذلك أزمة قلوب الملك والحاشية ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

ولأنها رؤيا الملك يأخذ «سبع بقرات سمان وسبع سنبلات خضر» مثالاً عن الحالة الاقتصادية الخصبة في جميع أنحاء المملكة، حيث البقرة تمثل وافر النعمة، وهي في رؤيا من يملك أمر الرعية، النعمة العامة الشاملة، ثم «سبع عجاف وسبعاً أخر سنبلات يابسات» مثالاً عن الحالة الشديدة الضيقة بعد الأولى.

و﴿دَأَبًا﴾ هو استمرار في الحركة الزراعية وتَعَب إذ يعنيهما لغوياً فهما معنيّان هنا معاً، وإلا لجيء بلفظه الخاص - استمراراً أو تعباً - وقد يؤيد جمعهما فتح عين الفعل اللامح للجريان والدوران: تزرعون سبع سنين متتالية سنةً وسنوات، مما تنتج أخصب الزرع وأكثره عِدَّة وعُدَّة.

وهذه الفتوى الأولى بحكمه، فإن «تزرعون» خبر يعني الأمر ومن ثم فتوى الحكم ﴿... فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾[1] فالكثير الذي لا يؤكل، بل يسرف أو يبذر أم يباع، ذلك الكثير ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ حفظاً عن السوس والمؤثرات الجوية أمّا هيه، ذخراً للسبع الشداد، و﴿تَأْكُلُونَ﴾ هنا، كـ ﴿تَزْرَعُونَ﴾ أمر بصيغة الإخبار، مما يحتّمه أكثر من صيغته، فعليكم في السبع الأولى الزراعة دأباً في مواصلة وتعب، وعليكم ثم ألا تأكلوا مما حصدتم إلّا قليلاً فيه بلغة الحياة..

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٧.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

وإنها سبع لا زرع فيها والأكل نفس الأكل، وهن ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا﴾ زائداً عن الضرورة وهو ﴿مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ عن الإسراف والتبذّر، عن الالتهام والتبعثر.

إلى هنا يتم تأويل الرؤيا سبعاً بسبع، ثم يزيد الصديق مما علمه ربه وأنبأه ما ليس في الرؤيا:

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

ولكيلا تبقى لهم أية باقية من زمجرة السبع الشداد يخبرهم الصديق بذلك العام المغيث، بغيث السماء وغيث الأرض ومنه كلاءها، ولو كان - فقط - المطر لجيء بلفظه، والغيث المطر ليس غيثاً إلّا لأنه يغيث وينجي البائسين، أم أن ﴿يُغَاثُ﴾ من كلا: الغيث والغوث، فليس الغيث المطر والكلاء - فقط - بالذي يكشف الكرب ويمنع الجدب، إذ قد يوازيه برد قارص، أم برد كارث قبل نضوج الحرث أم عنده، أو ريح صرصر كارث، أو زلزال مارس، أماذا مما قد يساعده الغيث على الكارثة المزمجرة، والحادثة المدمرة.

فالقول إن فيضان النيل كان يكفيهم عن المطر، تقاوله السبع الشداد والنيل هي النيل، ثم هل للنيل أن تنال بفيضاناتها كل الخيرات وتنيل، وهناك كربات وصعوبات سماوية وأرضية لا تدفع إلّا أن يغاث الناس بغوث إلهي ضمن فيضان وغيث، لا سيما وأن الفيضان نفسه ليس إلّا بالغيث الذي يمده من مجاريه عن بلاده.

﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ غيثاً وغوثاً ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ الفواكه، مما يلمح إلى كثرتها لحد الإعصار بعد الإعسار، فلا يعني - فقط - يعصرون الخمر، بل

ولا يعنيه فيما يعنيه، إذ تجل ساحة النبوة أن ينبئ فيما ينبئ عما فيه شهوات النسناس بخمر تخمر الناس، وتبغض إله الناس! فإن لم يدل تأويله الرؤيا على نبوته وتسديده بالوحي، فليدل إنباءه بـ ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ فليس تمام السبع الشداد مما يدل عليه، إلّا عاماً غير شديد، كما قبل السبع الأولى، عام يكفي نفسه كتقدير معتاد، وأما أن ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ فزيادة لا تعلم إلّا بالوحي.

وهنا يحذف السياق ما يُعلم من المساق أو هو غير ضروري في القصة، وينتقل إلى مشهد الملك وتأثره عن تعثره في سجن الصديق، فلنسمع الملك كيف ينهاز إلى خلاصه بكل إخلاصه والتماسه:

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾﴾:

يا عظماه لذلك الصديق العظيم، يطلب إليه الملك ليخرج عن السجن ويدخل عليه فلا يستجيب، وطبعاً ما كان الإتيان به إشخاصاً لاستجواب يعود بعده إلى السجن، فإنه أمر قاطع لا مرد له ولا قِبَل أمامه، وإنما هو إحضار عن عفو وإغماض، فله أن يقبل وله ألا يقبل.

هنا نرى يوسف السجين وقد طال سجنه بضع سنين لا يستعجل إجابة الملك في الخروج، حتى يخرج قبله عن تهمة الخيانة، ويعلن متهموه براءته من الوشايات والمكائد التي أدخلوه السجن بظنتها.

فلو خرج من فوره لكان خارجاً عن طوره، متهماً في توسله بالساقي، وقد تبقى عليه وصمة الخيانة أن يظن بخروجه عفو الملك وإغماضه عما كان، بما ظهر منه الآن. ولكنه مسبوك بذلك الأدب الرائع، والسكينة والثقة والطمأنينة في قلبه البارع، فلا يعود عجولاً ولا معجلاً، تقديماً لخروجه عن سجن الروح في تهمة الخيانة، على سجن البدن، وإن بقي فيه بضعاً أخرى،

ذلك يوسف ولم يكن ممن دارت عليهم الرحى، فبأحرى إمام المرسلين وخاتم النبيين وأفضل الخلق أجمعين محمد ﷺ لو كان مكانه لكان أمتن منه وأمكن خلاف ما اختلق على ساحته من روايات[1] كما على أخيه الصديق!

وأياً كان رسول الملك، أهو الساقي الناجي وعله أنسب لكونه أرفق وبصاحبه أليق؟ أم هو رسول تنفيذي يكلّف بمثل هذا الشأن، لمكان قوله: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ دون «آتني به» فبطبيعة الحال ليس هذا الرسول إلا عظيماً من الحاشية يليق بهذه الرسالة، لا نعرفه من هو؟ ولا فائدة في أن نعرفه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ وعرفه رسالته ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ لا «الملك» ولا «الرب» أو «ربنا» كما يقوله السجناء بغية الخلاص، وإنما ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ثم ﴿فَسْـَٔلْهُ﴾ كأنه من قبلك نفسك، لا عني، ولأنه لا يجرؤ الساقي وأضرابه على سؤوال الملك من نفسه، اللهم إلّا رسول خاص، له اختصاص بالسّدة العليا، يتأيد أنه غير الساقي. ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

فانظر إلى ذلك السجين كيف يستجوب الملك والنسوة في مسألة واحدة، بكل حائطة واحتشام، حيث لا يذكر مراودة امرأة العزيز، فإنما النسوة والنسوة فحسب، إذ كان أمرهن واضحاً في المملكة وضح النهار،

---

(١) كما في الدر المنثور ٤: ٢٣ عن أبي هريرة قال تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ...﴾ [يُوسُف: ٥٠] فقال: لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر! وفي أخرى عنه أنه ﷺ قال: يرحم الله يوسف أن كان لذا أتاه لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلي لخرجت سريعاً، وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: عجبت بصبر أخي يوسف وكرمه والله يغفر له حيث أرسل إليه ليستفتى في الرؤيا وإن كنت أنا لم أفعل حتى أخرج، وعجبت من صبره وكرمه والله يغفر له أتى ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره ولو كنت أنا لبادرت الباب ولكنه أحب أن يكون له العذر! وعن الحسن عن النبي ﷺ قال: رحم الله أخي يوسف لو أنا أتاني الرسول بعد طول الحبس لأسرعت الإجابة حين قال: ارجع إلى ربك، فاسأله ما بال النسوة!

وأمرها يظهر ضمن أمرهن كما ظهر، فبالهن وخطبهن ذريعة إلى خطبها وبالها، وهو لم يذكرها بسوء ولا إياهن إلّا قدر الضرورة التي هي مفتاح براءته: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ ولسوف تعلمون في ذلك الاستجواب وعلّ من كيدهن أنهن لما يئسن عن مراودتها ألقين حبل التهمة الوقحة على عاتقه، في وشاية دائبة وجناية صارحة سارحة، لحد شككن الملك والعزيز في أمره!.

والبال هو الأمر العظيم والشأن الخطير، وهو للنسوة هنا أخطر من أيديهن وأعظم حيث نسينها لبالهن، وليس إلّا الشغف الهالك الحالك في حبه، لحد أنساهن أنفسهن فقطعن أيديهن، مكان الأكل والفاكهة التي بأيديهن.

فلما يُعرف ذلك البال يُعرف واقع الحال منهن ومن امرأة العزيز وكفاه ذلك السؤال ظهوراً لبراءته في الحال وبكل استعجال.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾:

والخطب هو جلل الأمر ومصابه، فالصديق يتغاضى عن مراودتهن احتشاماً حتى يصرح بها ويخطبهن الملك، ويصرخن ببراءته، مما يدل على أنه كان يعلمها من ذي قبل، أو استقصى قبل إحضارهن فعلمها، وهذه قضية الحال في كل استجواب ولا سيما بالنسبة للعظماء، ليكون المستجوب للحال على بينة من الأمر، والظروف المحيطة به قبل الخوض والانغمار فيه، فهنالك يواجه النسوة على بينة من واقع المراودة وخطبهن فيها: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾؟ أهو الذي أوقعكن في خطبكن ومراودته أم أنتن من أنفسكن؟

﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ لا سوء المراودة، ولا سوء النظرة ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ﴾ أمرٌ يعلوه أو يظهر فيه ﴿مِن سُوٓءٍ﴾ إلّا حسناً وجمالاً ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾(١)! حقيقة ليست لتنكر أو تُستر ولو من مثل هؤلاء النسوة المترفات المتجبرات الأرستقراطيات اللاتي لا يحنّ إلى معروف ولا يقررن بمنكر فعلن.

وهنا لا تملك المراودة الأولى، الخائنة الأولى، لا تملك نفسها في جو المصارحة بين النسوة أن تختصه بالتهمة فتتقدم النسوة في مصارحة المراودة ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ ظهوراً لا يحتمل أي خفاء ولا يتحمل، مهما تحمله من ذي قبل بما حمّلناه ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ شهادة ناصعة دون أية ريبة ولا شائبة، يقال حصحص البعير في بروكه إذا تمكن واستقر في الأرض، وكأن اشتقاقه من الحِصة حيث بانت حصة الحق عن حصة الباطل بكل تمكن واستقرار، ولا تبالي الشاهدة هنا أن تشهد له على نفسها، مستهينة ما وراءها مما يلم بها نفسها، ومن ناحية أخرى هي طبيعة الحال في الأوساط النسائية في المترفين، لحد قد يتفاخرن بتلك المراودات إذا كان المراود معترفاً بلياقته وصلوحه للمراودة، حيث التحلل والتميّع وحيونة السعار الجنسي المرتدي ثياب الأرستقراطية، لها مقاييس في الحياة غير ما للشعوب المحطّمة المظلومة.

ولقد تمت هنا الشهادة من الملك والنسوة وامرأة العزيز على براءة الصديق ويراعته، وقد شهد العزيز في أول وهلة: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾(٢) فهل كان هنا غائباً عن المشهد أم ميتاً ولذلك لم يشهد، أما ذا؟ القدر المعلوم انقطاع خبره منذ الوهلة حتى آخر القصة وقد كانت في

(١) سورة يوسف، الآية: ٣١.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٨.

شهادته الأولى كفاية، إضافة إلى شاهد من أهلها وشهادة القميص أمن ذا ممن قد مضى؟ والتوراة على تحرّفها شاهدة لصدقة مهما اختلف التعبير أو تهافت في بعض المواضيع[١].

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾:

أترى من هو القائل ﴿لِيَعْلَمَ . . . وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾؟ هل هي امرأة العزيز؟ فمن هو الذي لم تخنه؟ أهو العزيز وقد خانته في مراودات واهتمامات

(١) فإلى تتمة الإصحاح ٤١ من سفر التكوين الذي أوردناه من ذي قبل. . . وسأل الساقي أن يذكره عند فرعون لعله يخرج من السجن لكن الشيطان أنساه ذلك «أقول: «لكن» هنا يؤيد ما أيدناه بالأدلة السبعة «ثم بعد سنتين رأى فرعون في منامه سبع بقرات سمان حسنة المنظر خرجت من نهر وسبع بقرات مهزولة قبيحة المنظر وقفت على الشاطئ فأكلت المهازيل السمان فاستيقظ فرعون ثم نام فرأى سبع سنابل خضر حسنة سمينة وسبع سنابل رقيقة ملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها فأكلت الرقيقة السمينة فهال فرعون ذلك وجمع سحرة مصر وحكماءها وقص عليهم رؤياه فعجزوا عن تعبيره وعند ذلك ادّكر رئيس السقاة يوسف فذكره لفرعون وذكره ما شاهده من عجيب تعبيره للمنام فأمر فرعون بإحضاره فلما أدخل عليه كلمه واستفتاه فيما رآه في منامه مرة بعد أخرى فقال يوسف لفرعون حلم فرعون واحد قد أخبر الله فرعون بما هو صانع: البقرات السبع الحسنة في سبع سنين وسنابل سبع الحسنة في سبع سنين هو حلم واحد، والبقرات السبع الرقيقة القبيحة التي طلعت وراءها هي سبع سنين والسنابل السبع الفارغة الملفوحة بالريح الشرقية يكون سبع سنين جوعاً.

هو الأمر الذي كلمت به فرعون قد أظهر الله لفرعون ما هو صانع هوذا سبع سنين قادمة شبعاً عظيماً في كلّ أرض مصر ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعاً فينسى كلّ السبع في أرض مصر ويتلف الجوع الأرض ولا يعرف السبع في الأرض من أجل ذلك الجوع بعده لأنه يكون شديداً جداً، وأما عن تكرار الحلم على فرعون مرتين فلأن الأمر مقرر من عند الله والله مسرع لصنعه.

فالآن لينظر فرعون رجلاً بصيراً وحكيماً ويجعله على أرض مصر يفعل فرعون فيوكل نظاراً على الأرض، ويأخذ خمس غله أرضٍ مصر في سبع سنين الشبع فيجمعون جميع طعام هذه السنين الجيدة القادمة ويخزنون قمحا تحت يد فرعون طعاماً في المدن ويحفظونه فيكون الطعام ذخيرة للأرض لسبع سني الجوع التي تكون في أرض مصر فلا تنقرض، الأرض بالجوع. . .

بالغيب وكما صرحت بصدق الصديق في خيانتها وبراءَته! أم هو يوسف؟ وقد خانته في الحضور والغيب، حيث احتالت عليه حتى أدخلته السجن بتهمة الخيانة! ثم ولم تكن موحدة حتى تقول: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ أو تقول ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ ثم وما برّئت نفسها إلّا ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ وقد فضحت بشهادة الشاهد من أهلها، وإنما برّئت نفس يوسف في مشهد النسوة مرتين، فلم تكن في موقف التبرئة لنفسها حتى تنفيها عن نفسها! ثم وماذا تعني - إذاً - من ذلك؟ أتعني أن ذلك الاعتراف ببراءَة الصديق وخيانتها ليعلم أو يعلم العزيز أنها لم تخنه بالغيب؟ وهو اعتراف منها بخيانتهما بالغيب! اللّهم إلّا في ذلك الغيب الأخير بمشهد الملك وغياب يوسف! ولم تكن امرأة العزيز بالتي لا تخون يوسف وقد خانت العزيز! ولا أن علم الصديق بعدم خيانتها إياه بالغيب يهمها لحدّ تفضح له نفسها أمام النسوة والملك أم والعزيز!.

إنها - دون ريب - من كلام يوسف إجابة عن سؤال مقدر، لماذا لم تحضر عند الملك فور إحضاره، وطائل السجن كان يؤكد التهمة عليك فضلاً عن مزيده؟ فيجيب، ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ العزيز ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ فلو خرجت دون استجواب النسوة لظلت تهمة الخيانة عليّ لزاماً، وهو استبقاء في سجن التهمة، فسواء أخرجت أم بقيت إلّا أن تحصل هذه الحصحصة في حقي أمام الجماهير، فيعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب.

أتراه لم يعلم أنه لم يخنه بالغيب وهو القائل لدى الباب بعد شاهد من أهلها ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾؟

أجل إنه أخذ يعلم ولكنها بدلته من بعد علم جهلاً، كما هددت الصديق مراراً وتكراراً ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ وهكذا يأخذ مكائد النساء بأزمة قلوب الرجال، فقد فعلت وافتعلت حتى دفعته أن

يسجنه بتهمة الخيانة، وظل بضعَه في سجنه في ظل هذه التهمة الوقحة، فكيف يخرج دون أن يقضي عليها؟.

أجل لقد كان لزاماً على يوسف قوله: ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ تذرعاً إلى رفع التهمة، ولزاماً عليه ألّا يخرج بطلب الملك إلّا بعد زوال التهمة، و﴿ذَٰلِكَ﴾ القول وعدم الخروج إلّا ببراءته ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز ومعه من معه من الملك وسواه ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾ في قصة المراودة ﴿بِالْغَيْبِ﴾ إذ كان غائباً.

«وليعلم» على علمه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَآئِنِينَ﴾ كامرأته ونسوة في المدينة، ومعهن العزيز والملك في خيانتهم المكرَّسة وشيطنتهم المدروسة، فلو أنني كنت من الخائنين، والجهاز الفرعوني مصرٌّ على أنني خائن فكيف اهتديت إلى براءتي بشهادتهم هؤلاء أنفسهم؟ ثم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَآئِنِينَ﴾ ضابطة تضرب إلى مثلث الزمان ومختلف الكائن والمكان، وقد أقام الله تعالى فيها كيد الخائنين مقام الخابط في طريق ليصل إلى مضرة المكيدة وهو عنه غافل، فأعلمنا سبحانه أنه لا يهديه حيث لا يوفقه لإصابة الغرض، ولا يسدده لبلوغ المقصد، بل يدعه يتخبط في ضلاله ويتسكع في متاهه، حيث يسري في معصية الله فلا يستحق أن يهدى لرشد أو يتسدد لقصد.

ولأنهم كانوا خونة بحقي بكل المكائد الفرعونية، نسائية ورجالية، لم يكن الله ليهدي كيدهم إلى بغيتهم: دراسة متينة ونصيحة مكينة من الصديق السجين لرجال البلاط ونسائه ولمّا يخلص من السجن! ولأن ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ تلمح كأنه بحوله - فقط - وقوته ترك تلك الخيانة فلم يَصبُ إليهن، يثنّيها بما يزيل غشاوة الإيهام والإبهام بقوله:

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ عن الخيانة وهمها لـ ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِالسُّوٓءِ﴾ نفسي

وسواها ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ وقد رحمني بما أراني برهانه: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ وصرف عني كيدهن: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر برحمته ويستر زلات المخلصين والمخلصين، فلولا غفره بما أراه برهانه وصرف عنه كيدهن لهمّ بها وصبا إليهن وكان من الجاهلين، وذلك غفر قبل حلول العصيان، وهكذا كلٌّ غفرٍ للمعصومين، كما هنالك غفر بعد حلوله كما لغير المعصومين.

فإذا كان يوسف الصديق لا يبرئ نفسه وهو من المخلصين، فيربط براءته برحمة ربه، فبأحرى لمن دونه من الصالحين، فلولا رحمة الرب لكنا من المهلكين ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾(١)! فـ ﴿ٱلنَّفْسَ﴾ هنا هي الشهوانية وهي بطبعها ﴿لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ إلّا برادع من نفس مؤمنة مطمئنة بالله، تكرّس كافة طاقاتها سياجاً صارماً على أمر السوء وفعله، مستعينة بالله وحتى النفس المعصومة، حيث العصمة الإلهية وتثبيته يحولان بين النفس وشهواتها ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾(٢).

وصحيح أن النفس لا يصح أن تأمر بسوء، فإنما تشتهي السوء، ولكن الإنسان لما كان بطبعه يتبع دواعيها إلى الشهوات، وينقاد بأزمتها إلى المقبحات كانت بمنزلة الآمر المطاع، والإنسان بمنزلة السامع المطيع، والمبالغة في ﴿لَأَمَّارَةٌۢ﴾ مؤكدة باللام تحاكي صفتها بكثرة الدفع إلى المهاوي والقود إلى المغاوي.

ثم وهذه الأمارة بالسوء - بطبيعة الحال - تتدرج على ضوء المحاولة البشرية والرحمة الإلهية من أسفل سافلين إلى أعلى عليين، إلى لوّامة بدرجاتها، ومن ثم مطمئنة بدرجاتها، مخلصة لا تخلو من أخطاءِ اللمم، ثم

(١) سورة الصافات، الآية: ٥٧.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.

مخلَصة معصومة بعصمة إلهية، وهذه رحمة خاصة تخص المخلَصين، وقبلها عامة تعم المخلصين، ويوسف من الأوّلين ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ والرسول محمد ﷺ هو إمام المخلَصين ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[(١)] لحد يقول عن نفسه «شيطاني أسلم بيدي - جزناها وهي خامدة».

فـ ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ استثناء متصل يعني إلّا النفس التي رحمها ربي فليست أمارة ولا آمرة بالسوء بل لوامة أو مطمئنة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾[(٢)].

وليست لنا إلّا إحدى هذه الثلاث، وهي مختلفة حالات الروح، واجتماعها في هذه الحالات، أم تعددها كل بحالتها، ذلك اجتماع الأضداد المتنافرة، أو المحالات المتهاترة.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾[(٣)] وأمثالها هي من براهين وحدتها دون تعدد في ذواتها، ولا اجتماع في حالاتها!.

ثم ومع الأسى نرى هنا كما هنالك ترسم أيدي الخيانة ما يمس من كرامة الصديق وليُضرب عرض الحائط لمخالفته كتاب الله المصرح في آيات عدة ببراءة يوسف ويراعته[(٤)].

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨١.
(٢) سورة الفجر، الآيات: ٢٧-٣٠.
(٣) سورة الشمس، الآيات: ٧-١٠.
(٤) الدر المنثور ٤ : ٢٣ عن أبي صالح في الآية قال: هذا قول يوسف عليه السلام لم يخن العزيز في امرأته، فقال له جبرائيل: ولا حين حللت السراويل؟ فقال يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ. . .﴾ [يوسف: ٥٣] أقول أليس حل السراويل للعزيزة بغيب العزيز خيانة، ثم وفي القيلة المنسوبة إلى جبرائيل تكذيب لقول يوسف إضافة إلى تهمة الخيانة! والصحيح ما أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في الآية قال: خشي نبي الله أن يكون زكى نفسه قال: وما أبرئ نفسي الآية.

وهكذا ينتهي دور السجن لمن كرّمه الله واصطفاه، بريئاً عن تهمة الخيانة، جريئاً على الخَوَنة، مما يدفع الملك أن يطلبه إليه مرة ثانية:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾:

وهكذا يتجلى الإنسان في أكمله وأنقصه في قصص القرآن التي لا تقص لمجرد قَصِّ التاريخ وأداء الفن القصصي، بل ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ﴾[1] فإنما تُساق لتعالج قصة العقيدة والداعية عبرةً وعظة، في واقعة تتناسق فيها جميع المؤثرات والمؤشرات والواقعيات في نفوس بني الإنسان.

هنا يصدر الأمر الملكي مرة ثانية ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ ۖ﴾ ولكنه في هذه المرة يستخلصه لنفسه حيث يرى إخلاصه في علمه ودرايته وأمانته: ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾ فلو استجابه في الأولى لم يستخلصه إذ لم يعرفه بذلك الإخلاص والأمانة والرزانة، واستخلاص الملك هو الصدارة الثانية بعده كرئاسة الوزراء أمّا ذا من القمة الثانية.

إنه في هذه المرة خلاف الأولى لا يطلبه ليرى مأول الرؤيا، أو ليسمعه كلمة الرضا لصاحب السموّ الملكي، وليعفو عنه ويطلق سراحه، وإنما ليستخلصه لنفسه معتذراً إليه عما كان عليه، ومفوضاً إليه ما سيكون.

. . . هنا الملك يطلب إلى من لا يتهافت على خروجه من السجن، ولا يتفاوت عنده السجن وخارج السجن، إلّا أن يخرج قبل خروجه عن تهمة الخيانة، وإلّا فالسجن أحب إليه من عفوه دون براءَة، كما كان أحب إليه مما يدعونه إليه.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١١١.

يطلب الانسراح عن السجن ممن أخذ يفتي برؤياه لصالح المملكة، ويحكم كقائد أوّل لإصلاح الحالة الاقتصادية عند توترها وتبعثرها وتعثّرها، وهكذا يكون رجالات الحق والصدق والدعاة إلى الله، لا يخضعون للأمر الواقع المفروض عليهم أياً كان، فلا يذلون عن عزهم، ولا يترذلون أمام السلطات الباطلة المفروضة عليهم، ولا يحيدون عن موقفهم الرسالي، ولا يفرق لديهم السجن وخارجه، ولكي يبرزوا الحق كما يليق به ويحق، دون مسّ من كرامته وكراماتهم، ودون نكص على عقبيهم انتقاصاً لحق الدعوة والداعية.

فيا ليت رجالاً - ولا رجال - يمرغون كل كرامة على أقدام الطغاة - بمطلق سراحهم - متسابقين متهافتين على نظرة رضى وكلمة ثناء، ليتهم يعتبرون بأحسن القصص، وليعلموا أن العزة والإباء يدرُّ عليهم أضعافاً من إدرار التمرغ والتزلُّف والانحناء أمام ذوي السلطة والكبرياء ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ...﴾[1] ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[2].

﴿... فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ خلاف ما قبل اليوم لـمّا طلب إليه للمرة الأولى ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾! لست أنت اليوم الفتى العبراني المشرى بثمن بخس دراهم معدودة، لعبة العزيز وامرأته، وإنما أنت ﴿ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانة عالية مرموقة، ولا أنت المهدَّد بالسجن أو عذاب أليم، وإنما أنت «لدينا اليوم أمين»، وتراه في ملتقاه مع الملك أخذ يتملق له بقولة أو فعلة كما يفعله رجال الحاشية؟ كلا ولا في شطر كلمة، فالنص ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ فالملك هو البادئ بالكلام دونه، اللهم إلا بسلام والسلام، وفي ذلك الكلام الملكي الهام: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ نرى كل مراتب

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٧.

العزة والإكرام، دون ألفاظ مرسومة خاوية في المواجهات العادية، وإنما كلام مكين أمين، حيث الملك ليس ليهاب أحداً أو يماريه حتى يجاريه في كلمة خاوية المُرام.

هنا مثلث التأكيد للمكانة والأمانة، المستفاد من حرف التأكيد وتقدم الظرفين، يؤكد له المكانة والأمانة الخاصة المتميزة، والسلطة الصالحة لإدارة أمور المملكة بحاجة جذرية ماسة إلى تلك المكانة والأمانة، ولا سيما في تلك الظروف الحرجة الهرجة، وفي الحق يلمح من كلامه هذا حكم صدارته العليا بعده،

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾:

﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لشتات الأمور ومتفرقاتها لأجمع شملها، ولمجموعاتها عن تمزقها وشتاتها، حفيظ للمعادلة الاقتصادية في السبعين الرخوة والشداد، حفيظ في كل ما تحتاجه خزائن الأرض من صالح الإنماء والمصرف، فالحفيظ على الحرمات والنواميس في تلك الظروف المحرجة، هو بأحرى حفيظ على المصالح الاقتصادية! ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فمن حفيظ غير عليم، يحاول في الحفظ ولكنه لا يعلم، فقد يكون ما يفسده على جهله أكثر مما يصلحه كصُدفة، ومن عليم غير حفيظ، يعلم ويخالف علمه إلى جهالة، أم لا يحافظ على المصلحة الجماعية، إذ لا يلاحظ إلّا شخصه وشخصيته وصالحه، ولكني ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ كركنين أساسيين لمن يجعل على خزائن الأرض.

وتراه لماذا يتطلب إلى الملك ذلك المنصب دون أن يصبر حتى ينصبه هو كما يراه؟ علّه ما كان ليعلم أية مصلحة في الملك هي أصلح ليجعله عليها؟ فهو - بعدما يتأكد أنه لديه مكين أمين، وبطبيعة الحال يحتاجه لأمرٍ ما لمصلحة البلد - فهو يدله على ما هو الأصلح في تلك الظروف الصعبة

الملتوية، كمواصلة صالحة لما يريده منه المَلكِ، حيث الأزمة القادمة وسنو الرخاء التي تسبقها، هي بأمسّ الحاجة إلى الحفظ والصيانة على علم واسع ودراية، لذلك يختار ذلك المنصب المناسب الضروري لحفظ البلد عن التفكك، الذي لا بديل عنه، كما هو عليه السلام لذلك المنصب، فلا يطلب إلى المَلكِ وزارة البلاط الملكي، ولا أية وزارة إلّا وزارة الإقتصاد والتنمية والإصلاح الزراعية، التي كانت تحلّق حينذاك على كافة الوزارات، وفي الحق هي رئاسة الوزارات كلها حسب الظروف الراهنة! فبالرغم من أنّ تصدي أمر الاقتصاد في ذلك الظرف الحرج تَورُّطٌ في مختلف الصعوبات، يختاره الصديق لنفسه، وهناك أمور أريح، ولصالحه الشخصي أصلح، لأنه حسب واجبه الرسالي كان حصيناً في اختيار اللحظة المرهقة ذات التبعة الضخمة، فيكون مسؤولاً عن إطعام شعب بكامله والشعوب المجاورة، ليؤدي واجبه الرسالي عدلاً ناصعاً ناصحاً للجماهير، وعلّه على ضوئه يجلب أنظار المحاويج إلى شرعة الله.

فليس من السهل تكلّف ذلك العبءِ الثقيل، ولأقل تقدير في أربع عشرة سنة التي قد تكلّف في مصطرع المراجعات والمنازعات رأس الرئيس وحياته ومصرعه، المنصب الذي يحيد عن تقبله سائر الحاشية الملكية، حيث ترجِّح الأريحية وحياة الترف والرعونة.

أفبعد ذلك كله يخلج ببال، أن كيف يزكي الصدِّيق نفسه والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ يزكي قائلاً: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾؟ أم كيف يطلب إلى فرعون المشرك الظالم أن يجعله على خزائن الأرض؟ ومعونة الظالمين حتى في عدلهم هي من المحرمات القطعية؟!.

إن أمر الصديق هنا أبعد أعماقاً وأوسع آفاقاً من هذه الضوابط الناظرة إلى الناس العاديين، فإنه يرتكن على ركن الرسالة والدعوة إلى الله، ولا بد

للرسول أن يزكي نفسه بما زكّاه الله تعالى لتحل رسالته محلها من القلوب، وإنما التزكية المحرمة هي للنفوس غير المزكّاة، أو التي تأخذها بتزكيتها رعونات وطنطنات، دون النفوس المطمئنة بالله التي زكاها الله بما رحمها ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ أو ليست النفس المرحومة بالله مزكاة!.

ولأن زكاة النفس من نعمة الرب فلا بد لصاحبها أن يحدث بها ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(١) لا سيما في مقامات الضرورة لإظهار الحق والدعوة إليه وتطبيقه، دون التظاهر بالحق وأنت مبطل أو معجب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾(٢) ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾(٣). وقد زكى الله نفس الصديق وهو أعلم به وهو يريد مكانته وتمكّنه في الأرض: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾(٤) (٥).

ومن ثم ليس طلبه إلى الملك أن يجعله على خزائن الأرض إلّا ليعدل حسب الشرعة الإلهية فيمن لا يقرون بحق الله وشرعته، وإزالة الظلم ثم تقليله من المفروض على عواتق الدعاة إلى الله! وليجد ظرفاً صالحاً للدعوة الرسالية وذلك من أهم الظروف الواسعة والمجالات الفاسحة.

ثم الضرورات تبيح المحظورات، فحتى لو كانت قيادة خزائن الأرض والرئاسة عليها في الملكية الفرعونية محظورة للصديق، لكانت أقل المحظورين حيث الضرورة الرسالية تفرضها.

---

(١) سورة الضحى، الآية: ١١.
(٢) سورة النساء، الآية: ٤٩.
(٣) سورة النجم، الآية: ٣٢.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٢١.
(٥) نور الثقلين في تفسير العياشي وقال سليمان قال سفيان قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما يجوز أن يزكي الرجل نفسه؟ قال: نعم إذا اضطر إليه أما سمعت قول يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: ٥٥] وقول العبد الصالح: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعرَاف: ٦٨].

وقد قبل الإمام الرضا عليه السلام ولاية عهد المأمون لنفس الضرورة وأحرى، فلما يُسأل: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله إن الناس يقولون: إنك قبلت ولاية العهد مع إظهارك الزهد في الدنيا؟ يقول عليه السلام: قد علم الله كراهتي لذلك فلما خيِّرت بين قبول ذلك وبين القتل اخترت القبول، ويحهم أما علموا أن يوسف عليه السلام كان نبياً ورسولاً فلما دفعته الضرورة إلى تولي خزائن الأرض قال: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ ودفعتني الضرورة إلى قبول ذلك على إكراه وإجبار بعد الإشراف على الهلاك، على أني ما دخلت في هذا الأمر إلّا دخول خارج منه فإلى الله المشتكى وهو المستعان»[1] وأين ضرورة من ضرورة، والحكمة فيهما والحكم واحدة على اختلاف الدرجة.

والإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام يقول لأقوام يظهرون الزهد ويدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل الذي هم عليه من التقشف: أين أنتم عن سليمان بن داود عليه السلام ثم يوسف النبي عليه السلام حيث قال لملك مصر ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ فكان من أمره الذي كان أن اختار مملكة المَلِكَ وما حولها إلى اليمن، وكانوا يمتارون الطعام من عنده لمجاعة

---

(١) نور الثقلين ٣: ٤٣٢ ج ٩٩ في عيون الأخبار بإسناده عن الريان بن الصلت الهروي قال: دخلت على علي بن موسى الرضا عليه السلام فقلت له: يا بن رسول الله إن الناس يقولون. . . وفيه حجاج أخرى له مماشاةً ومجاراة عن عيون الأخبار بإسناده عن الحسن بن موسى قال: روى أصحابنا عن الرضا عليه السلام أنه قال له رجل: أصلحك الله كيف صرت إلى ما صرت إليه من المأمون - وكأنه أنكر ذلك عليه - فقال له أبو الحسن الرضا عليه السلام: يا هذا أيهما أفضل النبي أو الوصي؟ فقال: لا بل النبي، قال: فأيهما أفضل مسلم أو مشرك؟ قال لا بل مسلم، قال: فإن العزيز عزيز مصر كان مشركاً وكان يوسف عليه السلام نبياً وأن المأمون مسلم، وأنا وصي، ويوسف سأل العزيز أن يوليه حين قال: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يُوسُف: ٥٥] وأنا أجبرت على ذلك، وقال عليه السلام في قوله: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ قال: حافظ لما في يدي عليم بكل لسان.

أصابتهم وكان يقول الحق ويعمل له فلم نجد أحداً عاب ذلك عليه![١].

وفي الحق إنما الحكم لله ومن يمثِّل حكم الله من رسله وأوليائه، والحاكمون على الشعوب دونهم كلهم طغاة، ومن المفروض على من له أهلية الحكم تكريس الطاقات في كافة الحَلَقات لإزالة هذه السلطات وتأسيس الحكم الحق قدر المستطاع، أم - ولأقل تقدير - التقليل من ظلمهم في سلطاتهم، فإزالة السلطة الظالمة المغتصبة وتقليلها هما مفروضان دوماً على عواتق المؤمنين بالله وبرسالاته.

فمن يندّد بمثل يوسف الصديق والإمام الرضا عليه السلام كفقيه ينقد أئمة الفقه ورسله، إنه في الحق ليس له فقه بطبيعة الفقه ورسالته الجماهيرية، وفقه الإسلام الناصع هو فقه الحركات والبركات، محلقاً على كل فقه وفقيه، ومطبّقاً شِرعة الله في سياسته الجماهيرية والسلطة الشرعية والزمنية، دون فكاك له عن السياسة، وهؤلاء الذين يفصلون الدين عن السياسة في الحق لم يعرفوا الدين ولا السياسة، وبهذه الجهالة فسحوا كافة المجالات القيادية الزمنية لرجالات السياسة غير الديّنين، ورجال الدين هم في الوقت نفسه وعاظ السلاطين، والفقهاء الذين يحصرون الشرعة الإلهية في مدارس وأوراق وحلقات الدروس وفي المساجد وحفلات الوعظ والتعزية، التي هي تحت هذه السلطات السياسية الجهنمية.

إن الفقه الاسلامي لم يُنشأ ليُنشىء أمة في فراغ، ويعيش ويعيّش في فراغ، لا تتمثل فيه عناصر المواقف الخاصة بأجوائها، والبيئات والملابسات التي ينشأ فيها، منعزلاً عن السياسات والملابسات والأحكام الزمنية، مدروساً في فراغ مثالي لا يمثل في المجتمع حتى نفسه.

---

(١) المصدر الكافي القمي بإسناده عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه لا قوام. . .

لقد جاء الإسلام بشرعة كاملة الجهات ليحكم بها العرض الجغرافي في الطول التاريخي، أفبالإمكان تطبيق هذه الشريعة بلا قيادات زمنية تتجمع فيها كافة الصلاحيات للحكم على الشعوب؟! وكذلك كل شرعة إلهية في كافة الرسالات، فلم يكن ليوسف الصديق - بعد تمشيه في هذه الطريق الملتوية الشاقة الطويلة - لم يكن له أن يبقى مكتوف اليدين عن أية عملية إصلاحية، والجو الملكي يستقبله ويستدعيه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ وحين يصل أمره إلى ذلك المكانة والتمكين، عليه كواجب رسالي أن يرشد الملك إلى الأصلح للشعب من المناصب المطروحة لديه ويقول: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾![1].

ولئن سئلنا كيف بالإمكان تطبيق النظام الإلهي في التراكيب العضوية الجاهلية واللّادينية، فلا تحرك الشرعة الإلهية في ذلك التركيب العضوي العارم إلّا ضدها، كما ولا تتحرك في فراغ، فلنصبر لإصلاح التركيب العضوي حتى يصلح الحكم على أساسه ولا يكون ذلك إلا في زمن المهدي القائم من آل محمد ﷺ! فالجواب أن الناس على دين ملوكهم، فالسلطة هي التي تصنع أعضاءها وتراكيبها الصالحة مهما طال الزمن، ومهما ظلت بعض الأعضاء فاسدة، فما لا يدرك كله لا يترك كله! وإذا كان الإصلاح الرسالي قائماً على أساس التركيب العضوي الصالح، وذلك الصلاح ليس إلا على ضوء الرسالات الإلهية، فهو الدور المصرح المستحيل، بل والرسالات التي تحمل أعباء الإصلاحات لا تحلّ إلّا في مجتمع فاسد هو بحاجة إلى إصلاح، وحملة الرسالات هم الذين يصنعون التركيب العضوي

---

(١) نور الثقلين في تفسير العياشي وقال سليمان قال سفيان قلت لأبي عبد الله عليه السلام ما يجوز أن يزكي الرجل نفسه؟ قال: نعم إذا اضطر إليه أما سمعت قول يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] وقول العبد الصالح: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

الذي هو من أسس الحكم، ثم يحكمون بحكم أوسع، كما صنعه الرسول ﷺ بادى بدء في العهد المكي، ثم في العهد المدني أنشأ دولة الإسلام بذلك التركيب الذي أنشأه من ذي قبل ووسّعه في المدينة.

والصديق يرى الجو يومذاك صالحاً لإصلاحٍ مّا حيث الحاجة إليه في الإصلاح الاقتصادي ذريعة تفرض عليه كونه على خزائن الأرض، ليمتلك بها قلوب أهل الأرض، فيحكم بشرعة الله في الأرض.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الذي فعله يوسف في رحلته الشاقة الطويلة، منذ البئر حتى البلاط الملكي مستخلصاً للملك، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الذي فعلنا بيوسف من تعليم الأحاديث وأنباء الغيب الرسالية، وإراءته برهاننا وصرف السوء عنه والفحشاء.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الذي فعله إخوته والعزيز وامرأته ونسوة في المدينة، والذي ظن أنه ناج والملك. وحتى «كذلك» المكانة التي حصّلنا له في الجو الفرعوني، بهذه المعدات المثلثة المقدرة المقررة من قبلنا.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ مكانة مكينة، وإمكانية متينة، حيث يجعل على خزائن الأرض فيصبح عزيزاً لحد يتوارى في ظله العزيز، فلا نسمعه حتى نهاية القصص إلّا له، دون الذي اشتراه من مصر حيث يخاطبه إخوته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا...﴾[١] - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ...﴾[٢].

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٨.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٨.

أترى العزيز الأول مات أو قتل أو عزل فاحتل الصديق مكانته؟ لا فحسب بل وتوارى الملك أيضاً إلّا مرة، : ﴿. . .مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ. . .﴾.

أجل إن مكانة يوسف وإمكانيته في الأرض جعلته هو العزيز في كل المملكة لحد توارى كل عزيز من ملك فضلاً عن العزيز! أترى تلك المكانة المرموقة ليوسف كانت من الله؟ فلماذا تطلّبه الصديق من الملك! أم كانت من الملك؟ فكيف ينسبها الله إلى نفسه! ولا دلالة هنا على أنه جعله على خزائن الأرض.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا﴾ تدل أن الملك استجابه إلى مطلوبه، وأنه كان من تمكين ربه، فالعبد يدبر وقد دبر الصديق بما قدم وما سئل، والله يقدِّر كما قدر تمكينه في الأرض بما دبَّر، مما يبرهن بوضوح أن سؤاله ذلك من الملك كان بمرضاة الله تدبيراً، فكان من مرادات الله تقديراً، وتوافق الأمر أن في تمكينه في الأرض! حيث حوّل قلبَ الملك ووجهه إلى تلك الواجهة.

فكان ما سأله وأراده الله.

نرى في طول الخط تتحول أسباب ذله إلى عزه برحمة خفية إلهية تجلت آخر أمره، ! فقد حسده إخوته فجعلوه في غيابت الجب ليغيب عن ذلك الإكرام والحب، فأخذته السيارة ليشروه للعزيز، فأكرم الله مثواه في بيت العزيز، وكادت به النسوة وامرأة العزيز لإدخاله في صغار الفجور أو ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ فأصبح عزيزاً في السجن، يؤوّل الرويّء، وقد جعله الله ذريعة لتخلّصه عن التهمة وخلاصه عن السجن، لحدٍّ يثنّي الملك تطلبّه إليه ويستخلصه لنفسه، ويجعله على خزائن الأرض، فيتوارى في ظل عزته العزيز الذي أذله، وكل عزيز.

لقد مكن الله ليوسف أوّل مرة حين دخل بيت العزيز حيث قال لامرأته

﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١] ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

وكأنه آنذاك - فقط - تمكين الخلاص عن غيابت الجب إلى أرض البلاط، والتمكين العلمي والرسالي ولمّا يحن حين تمكين لسلطته الزمنية تطبيقاً عزيزاً لرسالته.

ولكنما الآن يمكِّنه بعد ذلك التمكين في الأرض، أرض المملكة وحواليها، لحد يتبوأ منها حيث يشاء، دون مشية فوقية تحده فيما يشاء، إذ أصبح مطلق الاختيار في كل أرض المملكة، كأن له السلطة العليا، ولم يكن الملك لو كان له كون - إذ ذاك - أو كيان، إلّا صورة فاضية وسلطة خاوية ليست له إرادة دون إرادته ولا مشيئة فوق مشيئته!.

لقد تعاضدت أعضاد الدولة والملة بأسباب قاطعة وتظاهرت وتواترت لخفضه فلم يزدادوه إلّا عزاً، ولم يكن إلا ما أراده الله ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وهنالك حصحص حق الآية: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٣].

أتراه لماذا ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ دون «مكناه» كما في آخرين في آيات أخرى؟: إن التمكين «له» أوسع مكانة وإمكانية من تمكينه، فقد مكّن - بوجه عام - كل من في الأرض فيها: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٢.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٠٧.

فِيهَا مَعَٰيِشَۗ... ﴾[(١)] وهذا من تمكين إمكانية استعمار الأرض واستثمارها دون منع عنها وتمنُّع منها، ومن ثم مكانة فوقها تخص الماكن فيما يتوجب عليه دون إحراج أو إخراج: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾[(٢)] وهـذا التمكين على قدر الماكن من تطبيق واجبه الشخصي، وآخر جماعي لا يحوجه إلى أكثر من تطبيق مّا قل أو كثر، دون حاجة إلى سلطة زمنية، وإلا لما وجبت هذه الأربع على الأمة، حال ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ...﴾!

ثم التمكين «له» نراه في يوسف كما هنا، وفي ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾[(٣)] حال أن فيه نفسه بالنسبة لصناعة السد، غير المحتاجة إلى سلطة واسعة زمنية يقول: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾[(٤)] دون «ما مكني له».

وفي السلطة العالمية للذين آمنوا ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ...﴾[(٥)] دون «نمكنهم في دينهم»، كما وفي وعد الإمامة ووراثة الأرض للمستضعفين المؤمنين: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦﴾[(٦)].

وذلك التمكين لهم هو السلطة الصالحة لأنبياء إسرائيليين، كموسى وداود وسليمان ومن تبعهم بإحسان، ويوسف هذا يقدمهم فيه: ﴿وَكَذَٰلِكَ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٠.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤١.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٨٤.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٩٥.
(٥) سورة النور، الآية: ٥٥.
(٦) سورة القصص، الآيتان: ٥، ٦.

مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهو يسبق هؤلاء كلهم في ذلك التمكين المكين الأمين.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ...﴾ وليس فقط تبوُّء الدار المكان، بل وتبوء الإيمان ورفع أعلامه، فإن تبوّء الدار حاصل لمن يشتريها أيّاً كان، فذلك - إذاً - تبوُّء وتمكن رسالة الإيمان على ضوء النبوة السلطة الزمنية، بإمكانية واسعة ومكانة شاسعة دونما تحدد أو تهدد[١].

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ لو أنه يشاء ويعمل له فيصلح لإصابة الرحمة، وهو من المحسنين ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ لأنها هي دار الأجر والجزاء، وهنا دار التكليف والبلاء ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لا فحسب الإيمان كعقيدة مخبوءة في الجنان بل ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ على طول الخط في معارك الحياة، يتقون المحاظير فردية وجماعية، وليرفرفوا أعلام التقى، ويخفضوا منارات الطُّغى، ومن «رحمتنا» هنا هي جماع من المكانتين الروحية والزمنية كما حصل ليوسف وأضرابه، وليس كل المحسنين ليصابوها، وليس حرمان المحرومين عنها ضياعاً لأجرهم، فلهم أجرهم في الآخرة عياناً وبياناً، وأجرهم في الدنيا ويدون سلطة زمنية هو النصرة الإلهية في غَلَب البرهان، والتصبّر على كل حرمان في سبيل الإيمان: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[٢]! فـ «اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات رحمة

---

(١) في الإصحاح ٤١ من تكوين التوراة تباعاً لما سلف ما يلخص كالتالي: «إن فرعون استحسن كلام يوسف وتعبيره وأكرمه وأعطاه إمارة المملكة في جميع شؤونها وخلع عليه بخاتمه وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب في عنقه وأركبه في مركبه الخاصة ونودي أمامه أن اركعوا وأخذ يوسف يدير الأمور في سني الخصب ثم في سني الجدب أحسن إدارة.

(٢) سورة غافر، الآية: ٥١.

الله فإن عَزَّوَجَلَّ نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده واسألوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم»[١].

وقد تلمح ﴿نُصِيبُ﴾ بأن الجمع بينهما في الدنيا ليس إلا كصدفة قاصدة ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ حسب ما تقتضيه المصلحة الجماعية، ولسوف تصبح الرحمتان هامتان وعامتان ومنقطعتا النظير في زمن القائم المهدي من آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين! من هنا تدور عجلة زمن سلطته الزمنية طوال السبع الأولى سنوات الرخاء، دون أن تذكر القصص ما هو دور الصديق فيها، ولا كيف أدار جهاز الدولة المخولة إليه، اللهم إلا ما أفاده من قبل: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ثم ولا يذكر العزيز ولا المِلك إلّا مرة مشيرة: ﴿فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ فضلاً عن رجال المُلك والحاشية، مما يلمح أن الأمر بكامله وكله صار إلى يوسف، بارزاً مبارزاً على مسرح الحوادث ومصرع الكوارث، كأنه هو الآمر الناهي لا سواه، حيث يضطلع بالأعباء كلها في الأزمات الخانقة الخافقة، فقد تصدق - على ضوء هذه التلميحة - الرواية القائلة بعد مقابلة طائلة أن «قال له الملك إن ذلك لشرفي وفخري ألا أسير إلّا بسيرتك، ولا أحكم إلّا بحكمك، ولولاك ما قويت عليه ولا اهتديت له وقد جعلت سلطاني عزيزاً ما يرام وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك رسوله فأقم على ما وليتك فإنك لدينا مكين أمين»[٢].

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥ - أخرج الحكيم الترمذي وابن أبي الدنيا في الفرج والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: . . .

(٢) لقد مضى ما يشبهه من التوراة والرواية في نور الثقلين ٣: ٤٢٥ عن المجمع عن الطبرسي في كتاب النبوة بالإسناد عن أحمد بن محمد بن عيسى عن الحسن بن علي بن إلياس قال سمعت الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: وأقبل يوسف على جمع الطعام في السبع السنين المخصبة مكبسة في الخزائن فلما مضت تلك السنون وأقبلت السنون المجدبة أقبل يوسف على بيع الطعام فباعهم في السنة الأولى بالدراهم والدنانير حتى لم يبق بمصر وما حولها دينار ولا درهم إلا صار في ملك يوسف. =

يا عُظماه كيف يصبح العبد السجين مالكاً لمولاه فيعبِّده لله؟ أجل و«إن الحر حرّ على جميع أحواله، إن نابته نائبة صبر لها وإن تداكّت عليه المصائب لم تكسره، وإن أسر وقهرَ واستبدل بالعسر يسراً كما كان يوسف الصديق الأمين عليه السلام لم يضر حريته أن استعبد وقهرَ وأسر، ولم يضرره ظلمة الجب ووحشته وما ناله - أن من الله عليه فجعل الجبار العاتي له عبداً بعد أن كان له مالكاً فأرسله ورحم به أمة، وكذلك الصبر يعقب خيراً، فاصبروا ووطنوا أنفسكم على الصبر توجروا»[1].



= وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق بمصر وما حولها حلي ولا جواهر إلا صار في ملكه، وباعهم في السنة الثالثة بالدواب والمواشي حتى لم يبق بمصر وما حولها دابة ولا ماشية إلا صار في ملكه، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا أمة إلا صار في ملكه وباعهم في السنة الخامسة بالدور والفناء حتى لم يبق في مصر وما حولها دار ولا فناء إلا صار في ملكه، وباعهم في السنة السادسة بالمزارع والأنهار حتى لم يبق بمصر وما حولها نهر ولا مزرعة إلّا صار في ملكه وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا حر إلا صار عبداً ليوسف. -

فملك أحرارهم وعبيدهم وأموالهم وقال الناس ما رأينا ولا سمعنا بملك أعطاه الله من الملك ما أعطى هذا الملك حكماً وعلماً وتدبيراً، ثم قال يوسف للملك: ما ترى فيما خولني ربي من ملك مصر وأهلها؟ اشر علينا برأيك فإني لم أصلحهم لأفسدهم ولم أنجهم من البلاء ليكون وبالاً عليهم ولكن الله نجاهم على يدي، قال الملك: الرأي رأيك.

قال يوسف: إني أشهد الله وأشهدك أيها الملك أني قد أعتقت أهل مصر كلهم ورددت عليهم أموالهم وعبيدهم، ورددت عليك الملك وخاتمك وسريرك وتاجك على أن لا تسير إلا بسيرتي ولا تحكم إلا بحكمي، قال له الملك: إن ذلك. . .

(١) نور الثقلين ٣: ٤٣٤ ح ١٠٨ في أصول الكافي بإسناده عن أبي بصير قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول. . .

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا
جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي
ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا
تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ
ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ
يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ
فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ
عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ
أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ
قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ
أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ
حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ
مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ
وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ
ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ
مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا
حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ

أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾:

بين مجيئهم هذا ومجيئهم يومذاك ليجعلوه في غيابت الجب أمة بعيدة من الزمن، علها لا تقل عن عشرين عاماً[1] وبعد ما يجتاح الجدب والمجاعة مصر وما حولها بكنعانها، فيحتاج أهلوها إلى فائض غلة مصر المتسامع أنه من السبع السمان الرخاء[2]، ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ وطبعاً في أوّليات سنّي السبع الشداد!

---

(١) فبينه وبين أن بلغ أشده في بيت العزيز سنة أو سبع سنين إذ كان حين اشتراه العزيز قرابة التسع ثم بضع السجن سبع، ثم السبع الأولى وهي سني الرخاء.

(٢) وهنا تستمر التوراة في الإصحاح ٤٢ - ٤٣ من التكوين القصص ما نلخصه كالتالي: إنه لما عمت السنة أرض كنعان أمر يعقوب بنيه أن يهبطوا إلى مصر فيأخذوا طعاماً فساروا ودخلوا على يوسف فعرفهم وتنكر لهم وكلمهم بجفاء وسألهم من أين جئتم؟
قالوا: من أرض كنعان لنشتري طعاماً قال يوسف: بل جواسيس أنتم جئتم إلى أرضنا لتفسدوها قالوا: نحن جميعاً أبناء رجل واحد في كنعان كنا اثني عشر أخاً فقدمنا واحد وبقي أصغرنا ها هو اليوم عند أبينا والباقون بحضرتك ونحن جميعاً أمناء لا نعرف الفساد والشر - قال يوسف: لا وحياة فرعون نحن نراكم جواسيس ولا نخلي سبيلكم حتى تحضرون أخاكم الصغير حتى نصدقكم فيما تدعون فأمر بهم فحبسوا ثلاثة أيام ثم أحضرهم وأخذ من بينهم شمعون وقيده أمام عيونهم وأذن لهم أن يرجعوا إلى كنعان ويجيئوا بأخيهم الصغير - ثم أمر أن يملأ أوعيتهم قمحاً وترد فضة كلّ واحد منهم إلى عدله ففعل فرجعوا إلى أبيهم وقصوا عليه القصص فأبى يعقوب أن يرسل بنيامين معهم وقال: أعدمتموني الأولاد يوسف مفقود وشمعون مفقود وبنيامين تريدون أن تأخذوه لا يكون ذلك أبداً وقال: قد أسأتم في قولكم للرجل: إن لكم أخاً تركتموه عندي قالوا: إنه سأل عنا وعن عشيرتنا قائلاً: هل أبوكم حي بعد؟ وهل لكم أخ آخر! فأخبرناه كما سألنا وما كنا نعلم أنه سيقول: جيئوا إلي بأخيكم، فلم يزل يعقوب يمتنع حتى أعطاه يهوذا الموثق أن يرد إليه بنيامين فأذن في ذهابهم به ومعهم وأمرهم أن يأخذوا من أحسن متاع الأرض هدية إلى الرجل وأن يأخذوا معهم اصرة الفضة التي ردت إليهم في أوعيتهم ففعلوا.
ولما وردوا مصر لقوا وكيل يوسف على أموره وأخبروه بحاجتهم وأن بضاعتهم ردت إليهم في رحالهم وعرضوا له هديتهم فرحب بهم وأكرمهم وأخبرهم أن فضتهم لهم وأخرج إليهم شمعون الرهين ثم أدخلهم على يوسف فسجدوا له وقدموا إليه هديتهم فرحب بهم واستفسرهم عن حالهم وعن سلامة أبيهم وعرضوا عليه أخاهم الصغير فأكرمه ودعا له ثم أمر بتقديم =

وها نحن ممن نشهدهم أولاء ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ ويا لروعة المشهد حينذاك بعد هذا الفصل الطويل؟ أتظن أنه لا يعرفهم كما لا يعرفونه؟ كلا! ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾.

تراه كيف عرفهم والفصل طائل، وسعار الملك حائل؟ إنه «عرفهم» كما هي طبيعة الحال في كل مظلوم يعرف ظالمه مهما طال الزمن وتطاولت المحن، فضلاً عن يوسف النبي حيث يعرف الأغارب بسيماهم فضلاً عن الأقارب، ومن ثم فهذه معرفة قاصدة إلى تعرّف أبويه بمكيدة إلهية، أن يوسف قد اجتباه الله كما في تأويل رؤياه، ينبه بذلك أباه، ثم ولم يكن من هؤلاء الملوك الذين يزدهون بزهوة الملك، فيحول بينه وبين إخوته سعاره وكباره! ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ كما أنكروه حين جعلوه في غيابت الجب، وهم الآن لا يخلد بخلدهم أنه حيّ، وحتى في حياته فأين غلام عبراني يُشرى

= الطعام فقدم له وحده ولهم وحدهم ولمن عنده من المصريين وحدهم - ثم أمر وكيله أن يملأ أوعيتهم طعاماً وأن يدس فيها هديتهم وأن يضع طاسه في عدل أخيهم الصغير ففعل فلما أضاء الصبح من غد شدوا الرحال على الحمير وانصرفوا.

فلما خرجوا من المدينة ولما يبتعدوا قال لوكيله أدرك القوم وقل لهم: بئس ما صنعتم جازيتم الإحسان بالإساءة سرقتم طاس سيدي الذي يشرب فيه ويتفأل به: فبهتوا من استماع هذا القول وقالوا: حاشانا من ذلك هوذا الفضة التي وجدناها في أفواه عدلنا جئنا بها إليكم من كنعان فكيف نسرق من بيت سيدي فضة أو ذهباً من وجد الطاس في رحله يقتل ونحن جميعاً عبيد سيدك فرضي بما ذكروا له من الجزاء فبادروا إلى عدولهم وأنزل كلّ واحد منهم عدله وفتحه فأخذ يفتشها وابتدأ من الكبير حتى انتهى إلى الصغير وأخرج الطاس من عدله.

فلما رأى ذلك إخوته مزقوا ثيابهم ورجعوا إلى المدينة ودخلوا على يوسف واعدوا عليه قولهم معتذرين معترفين بالذنب وعليهم سيماء الصغار والهوان والخجل فقال: حاشا أن نأخذ إلا من من وجدنا متاعنا عنده وأما أنتم فارجعوا بسلام إلى أبيكم فتقدم إليه يهوذا وتضرع إليه واسترحمه وذكر له قصتهم مع أبيهم حين أمرهم يوسف بإحضار بنيامين فسألوا أباهم ذلك فأبى أشد الإباء حتى أتاه يهوذا الميثاق على أن يرد بنيامين إليه وذكر أنهم يستطيعون أن يلاقوا أباهم وليس معهم بنيامين وأن أباهم الشيخ لو سمع منهم ذلك لمات من وقته ثم سأله أن يأخذه مكان بنيامين عبداً لنفسه ويطلق بنيامين لتقر بذلك عين أبيهم المستأنس به بعد فقد أخيه من أمه يوسف...

بثمن بخس دراهم معدودة وذلك المَلِك العظيم في هيله وهيلمانه وحيطة واسعة له من غلمانه، ومهابة مهيبة لسلطانه، وحتى لو عرفوه فـ ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أن يعرفهم وهم ظالموه وهو في سطوته وجبروته! وقد أخبره الله تعالى بذلك من ذي قبل وهو في غيابت الجب كأوّل ما أوحى إليه ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك إنباءهم بما فعلوا بيوسف وهم لا يشعرون ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾[1]؟ فأنّى لهم معرفته من قبل إذ واجهوه لأوّل مرة ولمّا يعرفوه بزمن بعدها؟! في ذلك المشهد الرائع ليس يوسف ليكشف عن نفسه ولا يلمح لهم بحاله إذ لا بد لهم منذ لقائه من دروس يدرسونها، وبليات يبتلون بها بما قدمت لهم أنفسهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾:

﴿جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ الذي كانوا يطلبون وفق بضاعتهم، وطبعاً طلب إليهم تعريفهم بأنفسهم وأهليهم حتى يفصح بقوله: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ فإن في إفصاحه دونما استفساره تلميحاً لهم فاستلهام منهم أنه من هو؟ وعليه في ذلك المسرح التخفي عن كل ملمح ليكيد كيده، فقد أنزلهم لمّا جاؤوه خير إنزال، وتركهم يأنسون إليه بكامل الأنس، واستدرجهم حتى عرّفوه بأنفسهم لحد عرف أن لهم أخاً من أبيهم لم يأتوا به، فلما جهزهم بحاجيات الرحلة بإيفاء كيل وخير إنزال ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ولمّا تلمّح منهم أن أباهم ضنين[2] عليهم بأخيهم، ظنين، وبخاصة بعد افتقاد يوسف أخيه،

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٩.

(٢) نور الثقلين ٢: ٤٣٨ في تفسير العياشي عن أبي بصير قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يحدث قال: لما فقد يعقوب يوسف عليه السلام اشتد حزنه عليه وبكاءه حتى ابيضت عيناه من الحزن واحتاج حاجة شديدة وتغيرت حاله وكان يمتاز القمح من مصر في السنة مرتين في الشتاء =

فليس أمره ميسوراً لهم، يثني دعوته بتأكيد في ترغيب: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ فلكم إيفاؤكم وله إيفاؤه ففيه المزيد وكما قالوا بعد: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾. ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ منقطع النظير في إنزال المراجعين وتكريمهم، فلا خوف إذاً من بخس مكيال ولا ركس في مقال أو حال.

وهنا ﴿خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ يعصف بتهمته إياهم بالتجسس عبر الرياح خلافاً لما يروى، وكما في التوراة، ولأن إيفاء الكيل لا يلائم رواية الزيادة لأخيهم وأبيه وهذه سنة سنيته لاجتلاب القلوب واجتذاب العواطف العادية أو المتفلتة، لترجع إلى طلبة موفي الكيل وخير المنزلين، مهما كانت العقبات والصعوبات والالتواءات ثم يؤكد تأكيده بتهديد:

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾:

لا كيل فضلاً عن إيفائه، ولا إنزال فضلاً عن خيره، كلمة قاطعة ملكية لا مرد لها أبداً، جامعة بين الترغيب والترهيب! ولذلك تراهم يتقبلون عبء الإتيان بأخيهم من أبيهم ضرورة المعيشة فإن الضرورات تبيح المحظورات!:

﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾:

هناك تراوده امرأة العزيز عن نفسه، وهنا إخوته يراودون عن أخيه أباه، وأنّى مراودة من مراودة؟ ومراودتهم هذه في مختلف احتيالاتهم لاستلاب بن

= والصيف وأنه بعث عدة من ولده ببضاعة يسيرة إلى مصر مع رفقة خرجت فلما دخلوا على يوسف وذلك بعدما ولاه العزيز مصر فعرفهم يوسف ولم يعرفه إخوته لهيبة الملك وعزته فقال لهم: هلموا بضاعتكم قبل الرفاق وقال لفتيانه عجلوا لهؤلاء الكيل وأوفوهم فإذا فرغتم فاجعلوا بضاعتهم هذه في رحالهم ولا تعلموهم بذلك ففعلوا ثم قال لهم يوسف قد بلغني أن لكم أخوان لأبيكم فما فعلا؟ قالوا: أما الكبير منهما فإن الذئب أكله وأما الصغير فخلفناه عند أبيه وهو به ضنين وعليه شفيق قال: فاني أحب أن تأتوني به معكم إذا جئتم لتمتارون ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ...﴾ [يُوسُف: ٦٠].

يامين كوعد قاطع منهم ليوسف لا مرد له ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ المراودة المثمرة والإتيان به في المرة الآتية. و﴿أَبَاهُ﴾ هنا دون «أبانا» تلمح أنهم عرفوه بأبيهم وأخ لهم من أبيهم هو أحب إلى أبيه منهم، ولذلك لم يصاحبهم في رحلتهم هذه، مما يؤيد أنه سألهم عن حالهم وبالهم، حاضرهم وغائبهم، وهو طبيعة الحال في مثل ذلك اللقاء المقصود.

وليؤكد الصديق واقع مطلوبه منهم، ويشجع أباه على إزالة العقبات دون السماح لمجيئه يرجع بضاعتهم بصورة خفية إليهم:

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

من هنا يبدأ كيد الله ليأخذ الصديق أخاه وليبلغ مناه ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ...﴾[1]! فلا تثريب على يوسف أو تعييب لماذا كادهم ذلك الطائل الغائل، حيث كان بمرضاة الله وإرادته شرعة وتكويناً.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾ عبيده وغلمانه ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ التي سلموها لجهازهم ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ وطبعاً بصورة خفية وغير مرئية ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ فإنها التي أدوها، فبطبيعة الحال يعرفونها، على احتمال بعيد ألّا يعرفوها أنها هيه، ولذلك نترجى قريباً ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ...﴾ فإذا عرفوها تشوّقاً لرجوعهم مع أخيهم من أبيهم بداعية ثالثة إضافة إلى ذلك الترغيب والترهيب سلفاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

و«لعل» الثانية في ترجيّها، علّها ترمي هدفين، أولهما تعلقها بـ ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ حيث الترجي لا يخلّف إلّا ترجياً مثله، وثانيهما تعلقها بواقع

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

المعرفة، فقد يعرفونها، ومع الوصف لا يرجعون، أم لا يستطيعون، فما أحسنه تعبيراً أدبياً في حساب المستقبل إذ لا يحتّم شيئاً من الأمرين إلا رجاءً على رجاء.

فها هم الآن يرجعون إلى أهليهم ومعهم بضاعتهم في رحالهم وجهازهم بإيفاء كيل وخير إنزال مما يرغبهم، ولكنهم على وعد أن يأتوه بأخيهم مما يرهبهم، عائشين في هذا البين بين الخوف والرجاء، متشاورين في طريقهم كيف يراودون أباهم عن أخيهم، وسابق مراودتهم إياه عن يوسف قد يحول بينه وبين هواهم! هنا ندع يوسف في مصره، ولنشهد مشهد الجمع بينهم وبين أبيهم ماذا يقولون وكيف يفعلون؟

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

في هذه المرة لا تعني المراودة احتيالاً لاغتيال، وإنما اكتيالاً لأنفسهم وآخر لأخيهم، ولماذا هنا يتقدم ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ وهو الأخير في ترهيب بعد ترغيب؟ علّه لأنه الحاسم لموقفهم والمحرض لسؤالهم: لماذا منع الكيل؟ ثم الجواب يضم الأوّلين: ﴿أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ وقد يعني ﴿مُنِعَ﴾ فيما عناه كيل أخيهم أم أبيهم، فمهما كان أبوهم شيخاً كبيراً لا يأتيه، فأخوهم لا يعذر إذا لم يأته فلا كيل له، وقد يشير له ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾.

ولولا عرضهم لما حصل عن تفصيل لم تكن صلة مقبولة بين منع الكيل وإرسال الأخ للاكتيال، وهنا ﴿أَخَانَا﴾ دون «ابنك» مزيد تأكيد لإرساله بتعطف أخوي، وتأكيد ثان ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

وهم بذلك الطلب العارم الجازم يستثيرون كوامن يعقوب حيث وَعدُه من قبل في يوسف نفس الوعد بنفس الصيغة، وقد خالفوه! فكيف يأمن لهم بسابق كيدهم وميدهم؟ ولذلك نجده:

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

خلوني خلوني من وعودكم الفارغة وكلماتكم البارقة، والعاقل لا يلدغ من حُجر مرتين، وقد لُدِغت لأوّل مرة والجرح لمّا يندمل، فقد أمنتكم على أخيه من قبل حين صدقتكم، فكيف آمنكم عليه الآن، ثم وليس وعد الحفظ منكم بالذي يؤمنني ولو كنتم صادقين، إذ قد تنجرفون بعد صدق أو يحاط بكم على صدق ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ من سواه ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ سواه، فقد لا ترحمونه وهو الراحم، أم ترحمون ويحاط بكم ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾.

إنه ﴿خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ له ولأخيه ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ به وبأخيه، فكيف تقولون في بتٍّ وقاطعية ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾؟

وقد يشير بحفظ الله ورحمته بعد التنديد بهم في وعدهم لبُعديه[1] أنه لو أرسله معهم فليس إلّا امتحاناً وإيماناً بحفظ الله، دون وعدكم البارق الفارغ.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾:

هنا يبتغون بضاعتهم المردودة إليهم لحجة على ما يدعون ويعدون: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾ نحن وأخينا ﴿مَا نَبْغِى﴾ بعدُ من العزيز وقد أوفى لنا كيلنا دون بضاعة حيث ردها خفية، وأنزلنا عنده خير إنزال، ووعدنا مزيداً، ف ﴿هَٰذِهِۦ﴾ التي تراها وتعرف هي ﴿بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ ثم من بعد ذلك إذا أرسلت معنا أخانا ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ ميرة الزاد فلا يظلون جياعاً ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ هنا من

(١) الأول هل آمنكم والثاني لستم أنتم بحافظين إذ قد يحاط بكم.

الجوع وهناك من أية حادثة، كيف لا وهو عزيز على العزيز، فحتى ولو أردنا به سوءاً فهو المدافع عنه، ثم ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ لأخينا و﴿ذَٰلِكَ﴾ الميرة والزيادة ﴿كَيْلٌ﴾ هو «علينا يسير» غير عسير.

وهذه محاولة تضم في جنباتها ترغيبات وترهيبات، إن كان يعقوب يحب البقية على العائلة ومنهم بنيامين فلا بد له أن يرسله معهم.

وقد يعني ﴿يَسِيرٌ﴾ فيما يعنيه - يسير من العزيز الذي رد علينا بضاعتنا، أم و﴿يَسِيرٌ﴾ قليل، وهنا ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني غير ما عناه ﴿ذَٰلِكَ﴾ هناك، فإنه هنا ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أعطانا من قبل «كيل علينا» على كثرتنا ﴿يَسِيرٌ﴾ قليل، وهو إذا أرسلت معنا كثير حيث ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾.

يبدو هناك من قولهم «أرسله معنا نكتل» وهنا ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا. . . وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أنهم اعتبروا أخا يوسف متاعاً لهم في حاجة مدقعة يسهلون به ميرة الزاد لأنفسهم ثم ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ وكما يوسف من قبل ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[1] فكل غال ورخيص عندهم فيما يهوونه رخيص بخيس.

كما ويبدو من ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل من حضر كيل بعير، دون أن يبيع المشتري كل ما يريد، وإنما لكل رأس شرط الحضور، أو التأكد من محظور لعدم الحضور، وتلك حكمة حكيمة في سنّي الجدب والمحاصرة الاقتصادية، تنظم بها نظام العيشة العادلة للشعب، دون أن تتحكم في مزيد الميرة زيادة مال، أو قوة وجلال.

أترى نبي الله يعقوب هل يستسلم بغيُه ما يرمون من هدف الميرة وزيادة كيل بعير؟ وهل إن طلب المعاش يبرره هدر نفس محترمة له سابقة من قبل كما في يوسف؟ كلا!

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٠.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾:

فـ ﴿لَنْ﴾ تحيل إرساله معهم على أية حال، فليس نبي الله يعقوب بالذي يجعل ابنه متاعاً لميرة حتى عند الضرورة، فضلاً عن هدره نفساً، علماً أو ظناً، ولكنه يرسله على شرط يصرح به ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ دون أية إشارة إلى ميرة الأهل وازدياد كيل بعير ببضاعة أو دونها.

أتراه كيف يرسله معهم بموثقهم ولا ميثاق لهم كما تبين له من قبل؟ علّه لما كان يعلمه بتأويل رؤياه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أن يوسف موجود الآن بعزة، أو أنه هو العزيز، فبارقة الرؤيا ببارقة النبوة خارقة تخرق حجب الغيب عن يوسف وبعد زهاء العشرين.

ثـــم ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ - و﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ سياجان على ما قد يحاط به أو بهم، وهذه الثلاث يصاحبها في هذه السفرة طلب الميرة الضرورية، مما يرجح له أن يرسله معهم.

وترى ما هو ﴿مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ حيث يعتبره أصلاً يحوِّل مستحيله: ﴿لَنْ﴾ إلى ممكنه الراجح حيث أرسله؟ ثم و﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ دليل أن موثقهم قول يوثق به، ولا يوثق بقول ما لم يرتبط بالله من حلف بالله أو عهد مع الله، ولذلك فالوكيل أيضاً هو الله، وثقة يعقوب بموثقهم وقد نقضوه من قبل علّها لأنهم تحولوا عن حالتهم الأولى إلى الحسنى، ثم ولم يكن منهم فيها موثق إلّا ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ كمعاهدة معه لا مع الله.

وعلى أية حال أصبح واثقاً بموثقهم بسائر الوثائق التي تحوطه لحدٍّ يرسله معهم غير مجازف ولا هادف أو خارف، وإنما إرسال نبي على بصيرة مما يجوز عما لا يجوز.

ولماذا ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ دون «شهيد»؟ علّه لأنه يعني رباط موثقهم

بالله في تحقيقه، كما نيط بالله في عقده ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

فإرساله - إذاً - كان على ضوء شرعة الله، والتكلان فيه على الله، فمهما لا يأمنهم يعقوب على ابنه فهو مؤمن بالله متكل على الله فيما يقدم عليه، وقد سمح له في شرعة الله، فليس الاتكال على الله مما تتعامى معه الأسباب وتبطل ولا التوسل بالأسباب مما يغني عن الله، فإنه على كل شيء وكيل، وهو القائل ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾[1] بجنب القول ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[2].

لذلك نرى نبي الله يعقوب يأخذ في إرساله ابنه بكلٍّ حائطة، دون اتكالية فيها إبطال الأسباب والتغاضي عنها، ودون تحتيم عليهم أن يأتوه به باستقلال الأسباب، فمحاولة منهم كما يقدرون ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ فلا تستطيعون حيطة بكم فلا ترجعون، أم لا يرجع أخوكم، فإنما المحظور التقصير في واجب الإتيان به لا القصور.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

وترى ما هو باب واحد وأبواب متفرقة؟ هل هي أبواب القصر؟ فما هو الفارق بين دخولهم من أبواب متفرقة أم باب واحد كما دخلوا من ذي قبل، أمّاهيه من أبواب؟

قد تعني أبواب القصر المتفرقة خوفه من عين أو حسد، أن يحاط بهم جميعاً أو الثلاثة كلها فإنها كلها مخيفة، إلا أن ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٣.

ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ لا تلائم الأولين، إذ لم يحسدوا ولا أخذتهم عين، بل أحيط بهم في أخيهم.

﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم﴾ دليل على خيفة ما عليهم لا مردّ لها، و«أن الحكم - المتوكلون» تبصرة لهم منه أن هذه الحائطة ليست لتغني عنكم من الله من شيء، ولكن التوسل بالأسباب لزام كل سلب وإيجاب، على علم أنه ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا للأسباب، لذلك «وعليه» لا سواه ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فالمسموح لنا إنما هو التوسل بالأسباب، لا والتوكل عليها، بل هو على الله فـ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

فالاتكال - الاستقلال - على الأسباب إشراك بالله، والاتكال على الله فيما له أسباب دون توسل بها انعطال لها يخالف أمر الله: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ ويخالف تكوين الأسباب في دار الأسباب، فإنما هو توسل صالح بالأسباب المناسبة المعنية لما تروم متوكلاً على الله، عارفاً بأنه ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

فـ «العين حق»(١) وتأثير الحسد حق: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾(٢)

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٨: ١٧٣ قوله ﷺ: والعين حق ولو كان شيء يسبق القدر لسبقت العين القدر» وفيه أن رسول الله ﷺ كان يعوذ الحسن والحسين فيقول: أعيذكما بكلمات الله التامة من كلّ شيطان وهامة ومن كلّ عين لامة، وفيه روى عبادة بن الصامت قال دخلت على رسول الله ﷺ في أول النهار فرأيته شديد الوجع ثم عدت إليه آخر النهار فرأيته معافى فقال: إن جبرئيل عليه السلام أتاني فرقاني فقال: بسم الله أرقيك من كلّ شيء يؤذيك ومن كلّ عين وحاسد الله يشفيك قال ﷺ فأفقت وفيه روي أن بني جعفر بن أبي طالب كانوا غلماناً بيضاً فقالت أسماء: يا رسول الله إن العين إليهم سريعة فأسترقي لهم من العين فقال ﷺ لها: نعم وفيه دخل رسول الله ﷺ بيت أم سلمة وعندها صبي يشتكي فقالوا: يا رسول الله أصابته العين فقال: أفلا تسترقون من العين. وفي المجمع عن النبي ﷺ: إن العين حق والعين تستنزل الحالق.

(٢) سورة الفلق، الآية: ٥.

شراً بفعله عن حسد، أم تأثيراً من نفس الحاسد وكما تؤثر العين، فليست أسباب الشر لتنحصر في أعمال الجوارح، وتنحسر عن أعمال الجوانح، بل هي أقوى منها أحياناً، وكلما كانت الأرواح أقوى في خير أو شر فتأثيراتها كذلك أقوى من خير أو شر، في تقوى أم طغوى.

ولئن سئلنا كيف تؤثر العين وأضرابها و﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾؟ فالجواب أن «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين» فكما أن سائر الشرور من سائر الأشرار ليس ليمنعها الله تكويناً إلّا لحكمة كما في نار إبراهيم، كذلك شر العين والحسد أماذا.

ومع كل هذه التفاصيل في تأثير العين والحسد، فلا عين ولا أثر من عين ولا حسد إلّا حاجة في نفس يعقوب قضاها:

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٍ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦٨﴾:

دخولهم من حيث أمرهم أبوهم من أبواب متفرقة ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ حيث أحيط بهم في أخيهم من أبيهم، بل وهكذا دخول فسح المجال لـ ﴿حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ وهو لقيا يوسف ولا معدّله ظاهرياً إلّا ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ وليس أمراً عادياً إلّا أن يدخل هو من غير الأبواب التي دخلوها، فله أن يستقبل أخاه ويؤويه إليه دونهم من حيث لا يعلمون، ثم ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٍ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ قد لا تمت بصلة لحاجة في نفس يعقوب إلّا أن يكون لُقيا يوسف مما علمه كخلفيّة من خلفيات إرسال ابنه ودخولهم من أبواب متفرقة، وهنا يتأكد أنه لم يرسله لمجرد موثقهم ليأتنّه به.

أما أن دخولهم من أبواب متفرقة مخافة عين أو حسد أو حيطة، هو - فقط - ﴿حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ فلا يناسب ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٍ﴾ وهو

كسبب لـ «حاجة» وتعليل لها، ولا أن حاجته قضيت بذلك إذ ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ وليست هذه الحائطة التي تخلفت عن النتيجة حاجة مقضية.

إذاً فاللامح من جنبات الآية هو أن دخولهم من أبواب متفرقة قضى حاجة في نفس يعقوب، حيث سهل أمر المكيدة الصالحة ليوسف في إبقاء أخيه عنده وإلى لقيا والديه معه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إن هذه الأسباب والحياطات في ترتيبها لا يغني عن أصحابها من الله من شيء ف ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وإن دخولهم هكذا قضى حاجة في نفس يعقوب، وإن يعقوب ﴿لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ من طريقة لقضاء حاجته.

واحتمال آخر هو الآخر، أن دخولهم كما أمر ما كان يغني إلّا حاجة في نفس يعقوب قضاها دون أن يعلم، فقد قدم حيطة لرجوع ابنه ما لم يقضه، بل قضى حاجته الأصيلة دون أن يعلم، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ. . .﴾ إذاً يعني أن أمره أيّاً كان كان عن تعليم إلهي مهما لم يعلم أن النتيجة هي حصول أصل الحاجة.

وهذه من الرحمات الخفية الإلهية أنه قد يبتلي عباده الصالحين بما ظاهره العذاب ولكن باطنه من قبله الرحمة، يطلب أمراً ويدعو له ويقدم للحصول عليه كل إمكانياته، ويقضي الله له أمراً آخر دونه وهو حاجة أصلية، وما تطلّبه بالنسبة لها كمقدمة من حيث هو لا يعلمها.

وهنا ندرس ألّا مغني عن الإنسان أياً كان من الله من شيء في الأسباب التي يتوسل بها، حيث الإذن تكويناً في كل خير أو شر إنما هو من الله ف ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ دون أية علة أو أسباب، فهو تمام العلل ومتممها، كما هو خالقها ومعلّلها، دون أن يكون هناك جبر كما لا تفويض، وإنما أمر بين أمرين.

كما وندرس أن على الإنسان تقديم كافة المحاولات والإمكانيات والحائطات للوصول إلى مُرامه ومَرامه دون استقلالية فيها ولا اتكالية عليها ولا على الله بترك الأسباب، اللهم إلّا فيما لا حول له ولا قوة فالدعاء من الله والاستدعاء.

وأخيراً ندرس من ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنْ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ أن الحائطة في قضاء الحاجة، لا سيما الملتوية الخطرة، أن تؤتى من أبواب متفرقة، فإن سدّت باب أو أبواب، فهنالك أبواب أخرى أو باب.

وهذه الحائطة الحكيمة تحلّق على كافة المتطلبات الهامة سلباً وإيجاباً، فالذي عنده نقود يخاف عليها، عليه أن يحافظ عليها في مكانات متفرقة، حتى إذا سرقت أم ضاعت من مكان، تظل البقية الباقية محفوظة.

إذاً فهذه الحائطة ضابطة سارية المفعول في كل الحقول، تبعّد عامليها عن الخسار، ويقربه إلى اليسار، كسبب ظاهري، والله من ورائه حفيظ.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم، وطبعاً من إحدى عشر باباً ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ﴾ من أبويه، أتراه يعجل بإيوائه قبل استقبالهم جميعاً وقبل كل شيء، وفَور دخولهم عليه؟ لا شك أنَّ ذلك أوّل خاطر يساور يوسف عند دخولهم عليه ورؤيته لأخيه بعد الفراق الطويل، ولا يكاد يصبر لشيء إلا أن يؤويه إليه، ففي دخولهم عليه من أبواب متفرقة - وهو عليهم رقيب - مجال له غير مريب أن يؤوي إليه أخاه قبل أن يستقبلهم، وقد آواه وكلمه غير طائل: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ تعريفاً له بنفسه في تأكيدات ثلاثة، وفرع عليه: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ فاترك كل أسى ويؤسى بما كانوا

منذ ذلك الزمن الطويل يفعلون بي وبك وبأبينا، فقد حظوت الحظوة التي رأيتها في رؤياي وأولها أبونا ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ...﴾.

هنا يطوي السياق كل ما حصل مما ليس له أصل في القصص وعبرة لأولي الألباب، ليواصل ما له أصل، وهو الدرس الذي يلقيه على إخوته ليعتبروا به إن كانوا من أولي الألباب.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

السقاية هي المشربة وطبعاً كان لها قيمتها الغالية، لولاها لم يؤذن مؤذن بما أذّن حيث الرخيص لا أذان فيه عند المِلك الذي يرد عليهم بضاعتهم من ذي قبل، فلتكن ذهبيته مرَّصعة أماهيه؟

والرحل هو ما يوضع على البعير للركوب والحِمل، والعير هم القوم الذين معهم أحمال الميرة أماهيه، اسماً للرحال والجمال الحاملة للأحمال ميرة وغير ميرة، فليس العير حميراً لذلك ولمكان ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ خلاف ما يروى، وكما في التوراة.

وهنا جاعل السقاية هو يوسف حيث الضمائر المفردة كلها راجعة إليه، ولكن المؤذن هو غيره لمكان ﴿مُؤَذِّنٌ﴾ دون «أذن» كما ﴿جَعَلَ﴾ وليس مؤذن - بطبيعة الحال - يؤذن في هذه المهمة الفادحة إلّا بأمره الصراح[1] إذاً فذلك من أذانه حيث كان بإذنه ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ وحتى إذا لم يكن بإذنه فسكوته عن ذلك إذن منه صُراح وهو الممكَّن في الأرض، فكيف

(١) المصدر ج ١٣٤ في كتاب علل الشرائع بإسناده إلى صالح بن سعيد من رجل من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل في يوسف: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يُوسُف: ٧٠] قال إنهم سرقوا يوسف من أبيه ألا ترى.. أقول: فقول الله في يوسف أيتها العير، دليل أنه من مقاله لا المؤذن من عند نفسه، وكذا قول أبي جعفر عليه السلام فيما مضى ولقد قال يوسف: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ...﴾ [يُوسُف: ٧٠].

يترك النهي عن المنكر، وتقريرات الأنبياء كمقالاتهم وأفعالهم حجة، فسواء أكان الأذان الإعلام بإذنه الصّراح وهو طبيعة الحال في موقفه العظيم، أم لم يكن، بخلاف الحال، فهو على أية حال مرضي عنده مباح.

لقد كانت حيلة من الصديق حيث يدس صواع الملك في رحل أخيه، تنفيذاً لتدبير إلهي يخصه في ذلك المشهد المثير المغير، ولكن ما هو مصير ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾؟ ولم يكونوا سارقين ولا واحد منهم في رحله صواع الملك! والمكيدة الإلهية بعيدة عن الضعف والكذب والظلم، قاصدة جزاء العدل الوفاق للظلم، كيد عادل قاصد هو جزاء كيد ظالم فاسد كاسد، فماذا يعني - إذن - ذلك الأذان المعلن أمام الجماهير، متهماً ولد نبي الله يعقوب ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾؟ فيرتاع إخوته لذلك النداء وهم أولاد النبي وأحفاد شيخ المرسلين!

أكان وجود الصواع في رحل أخيه - دون سرقة منه - يسمح لاتهامهم كلهم ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾؟ وحتى لو كان سارقاً في الحق فنسبتها إلى العير - وهم أحد عشر - تهمة جمعية ومسّ من كرامة البرءاء العشرة، وحق القول في مثله «واحدٌ منكم سارق» حيث لا يسرق صواعاً واحداً إلّا واحد، فـ ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ إذاً فرية قاطعة حتى لو كانت هناك سرقة، ولكنه كذب وفرية إذ لم تكن سرقة بتة، وكما لم تكن البتة!

إنهم في هذا المسرح ما سرقوا شيئاً، وما كذب الصديق، حيث الحيلة كانت بأمر الله، وهو نبي الله فكيف يكذب، وإنما ورّي تورية صادقة حيث عنى من ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ أن سرقوا يوسف من قبل! وكما يروى تصديق الصديق عن الصادق: «ما سرقوا وما كذب يوسف فإنما عنى سرقتم يوسف من أبيه»[1] «ألا ترى أنه قال لهم حين قالوا: ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ

---

(١) نور الثقلين ٢: ٤٤٢ - القمي في حديث سئل الصادق عليه السلام عن قوله عز وجل: ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يُوسُف: ٧٠] قال: ما سرقوا وما كذب يوسف فإنما عنى سرقتم يوسف من =

﴿صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ ولم يقولوا: «سرقتم صواع الملك» إنما عنى أنكم سرقتم يوسف من أبيه» وهم لا يشعرون!

هنا ندرس من أذان الصديق درسين اثنين: أحدهما أن التورية مسموحة إرادة الإصلاح»[1] وإلّا فهي كذب إذ ينتج نتاجه مهما أضمر قائله صدقاً، فالضرورات تقدَّر بقدرها، فلا يسمح للكذب المطلق ما دامت التورية ممكنة، ولا ضرورة لله ولنبي الله في كذب والتورية مورِّية صادقة! مهما كان

= أبيه وفيه ٤٤٤ ح ١٢٩ في أصول الكافي بإسناده عن عطا عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا كذب على مصلح ثم تلا ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠].
ثم قال: والله ما سرقوا وما كذب ثم تلا ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] ثم قال: والله ما فعلوه وما كذب.
أقول: ما كذب دليل التورية، حيث الكذب كذب مهما كان مسموحاً في الإصلاح والضرورة، وفيه عن علل الشرائع بإسناده إلى أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لا خير فيمن لا تقية له ولقد قال يوسف: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ قال: ما سرقوا وما كذب، أقول: التقية هي وقاية الأهم بتفدية المهم وهي لا تسمح للكذب ما أمكنت التورية كما هنا وفيه ١٣١ عن روضة الكافي بإسناده عن أبي بصير قال قيل لأبي جعفر عليه السلام وأنا عنده إن سالم بن أبي حفصة وأصحابه يروون عنك أنك تكلم على سبعين وجهاً لك منها المخرج فقال: ما يريد سالم مني أيريد أن أجيء بالملائكة والله ما جاءت بهذا النبيون ولقد قال يوسف عليه السلام: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ «والله ما كانوا سارقين وما كذب».

(١) نور الثقلين ٢: ٤٤٢ القمي بإسناده عن الحسن الصيقل قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام إنا قد روينا عن أبي جعفر عليه السلام في قول يوسف: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ فقال: والله ما سرقوا وما كذب وقال إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] فقال: والله ما فعلوا وما كذب قال فقال أبو عبد الله عليه السلام: ما عندكم فيها يا صيقل؟ قلت: ما عندنا إلا التسليم قال فقال: إن الله أحب اثنين وأبغض اثنين أحب الحضر فيما بين الصفين وأحب الكذب في الإصلاح وأبغض الحظر في الطرقات وأبغض الكذب في غير الإصلاح إن إبراهيم عليه السلام إنما قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] إرادة الإصلاح، ودلالة على أنهم لا يفعلون. وقال يوسف عليه السلام إرادة الإصلاح.
أقول: هنا سميت التورية الصدق كذباً مسموحاً للإصلاح، وفي روايات أخرى أنه ما كذب وما سرقوا والجمع أن التورية صدق من جهة تخفى وكذب حسب الظاهر، ولا يجوز الكذب المطلق ما دامت التورية في موارد الإصلاح.

«لا كذب على مصلح»[١] وليست الغاية التي يبتغيها الصديق درساً لإخوته بالتي تبرر هذه الوسيلة الهائلة، فإنها على أية حال مكيدة إلهية وليس الله ليضطر في كيده إلى ما حرّمه من كذب وتهمة!

وثانيهما: أن استلاب نفس محترمة هو من السرقة، وكيف لا تكون سرقة واستلاب شطر من دينار سرقة مهما اختلف الحكم بين سرقة وسرقة، وهم قد استلبوا يوسف من أبيه إخراجاً عن مُلكته ومُلكة أبيه، بمكيدة خائنة، وهم مجمعون أن يجعلوه في غيابت الجب، أو ليست هذه سرقة، وهي أسرق سرقة تضم معها كذبة حين استلبوه، وحين رجعوا إلى أبيهم وقد تركوه فيما تركوه، وألقوه في غيابت الجب إساءَة إليه وعلّ فيها هتف نفسه، وهذه ثالوث منحوس تحيط بأصل السرقة، أليسوا يستحقون بعد هذه الأربع أن ينسبوا إلى واحدة منها ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ ومهما كان بن بنيامين بريئاً وقد شملته العير، فالعشرة الآخرون كانوا سراقاً وخونة، وقد أسرّ يوسف إلى أخيه هذه المكيدة، ليُستثنى عن العير السارقين، فكان يرضى ذلك التعميم أو يؤكده وصولاً إلى ﴿حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ فهل إن ذلك التعميم مسٌّ من كرامته، أم خارج عن أدب التعبير في أحد عشر رجلاً واحد منهم بريء والباقون خونة سارقون؟..

وقد نحتمل أن يوسف عرّف رجال الحاشية بموقف المكيدة، فلم يكن في ذلك الشمول مهانة لأخيه في نفسه حيث عرفه! ولا في أنفس رجال الحاشية أن عرفهم، وأما في أنفس إخوته فليس ليهمه ذلك أمام البغية المهمة، كيف وقد علموا - في ظنهم - أنه سرق، وشهدوا بذلك عند أبيهم ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ ولم يكن له في هذه وتلك تغير حالة فإن الضرورات تبيح المحظورات، حتى ولو كان ذلك له محظوراً.

(١) مضت روايته عن الرسول ﷺ.

ذلك ولكن ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ دليل أنه ما عرفهم ولا حتى المؤذن مكيدته، إذ لو عرفهم كان يعرفه الملك، وكيف يأخذ أخاه بمكيدة يعرفها الملك؟.

ولئن سئلنا أن الشرعة الإلهية لا تسمح الجهر بالسوء وقد جاهرهم به، اللّهم إلّا شهادة بشروطها عند الحاكم، ولم تكن هناك من يوسف شهادة ولا حكم؟ فالجواب ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ وقد ظُلم يوسف بأقبح الظلم فكيف لا يجهر بسوء ما ظلم، وهو كاتم ظلمه طيلة سنين حتى أتى دوره الصالح لمكيدة بأمر الله، فقد صدق فيما جاهر وترك كثيراً حين قال مؤذنه: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾.

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾:

﴿وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم﴾ تلمح أن المؤذن أذن وهم يرجعون، ثم أقبلوا عليهم، و﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ إشارة منهم أننا لسنا بسارقين، فلعله فُقد عنكم صواع الملك، والمحتملات فيه ثلاث ثالثها أنه عند أحدنا، وقبل ذلك قد يكون تحت طعام أمّاذا، أو عند أحدكم أمن ذا، فلا تُحتِّموا أننا سرقناه.

ورجال الحاشية بمن فيهم المؤذن، هنا لا يكررون القولة الأولى بصيغة أخرى «سرق منا صواع الملك» وإنما ﴿نَفْقِدُ﴾ مما يؤيد أن الأولى تورية لا تعني سرقة الصواع، ثم رغّبوا ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ كجعالة على وجدان الضالة ﴿وَأَنَا۠﴾ الذي هو طبعاً المؤذن ﴿بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ كفيل ضمين، أم قائم بأمره رئيس، وعلى أية حال فقد تكفل هذا الجعل لمن جاء به، ولو كانت سرقة فجزاؤه غير جزائه» ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فقد تحول مسرح السرقة وجزاؤها إلى مسرح وجدان الضالة وجعله وأين سرقة من جعالة؟.

أترى ﴿نَفۡقِدُ﴾ ليس كذباً وهم ما فقدوه حيث هو ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾؟ نفقد - في نفسها - تعني ليس هو عندنا، علمنا مكانه أم جهلنا، وغاية أمره أن يكون تورية كالأولى فقداناً على علم بمكانه، ثم والقائلون ﴿نَفۡقِدُ﴾ جماعة فليس هو الصديق أم ولا المؤذن، فقد يجوز أنه ما أخبرهم، ولا المؤذن بما فعل، كما يدل عليه ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾، كما وقد يقربه أن الصديق هو الذي ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ دونهم، ولا حتى المؤذن، فقد أمر أن يؤذن: ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ ثم أمروا أن يغيروا القول في مسرح الصراحة ﴿نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ ثم ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ انصراف عن اتهامهم في سرقة الصواع ومجاراتهم في ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ إذاً ففتّشوا عنه ولمن جاء به جعلهُ، وطبعاً ليس المجيء به عن سرقه أو من الإخوة تفتيشاً لأنفسهم بعضٌ البعض، وإنما من غيرهم أم في نفس القصر، مما يؤكد أن تهمة السرقة الجاهرة لا تتجه إلى صواع الملك.

وعلى أية حال فهم مستيقنون ببراءتهم، فيستندون إلى ثقتهم فيهم في ماضيهم وحالهم واستقبالهم:

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

قسماً بالله ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم﴾ من حالنا وحلِنا وترحالنا ﴿مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ في رحلاتنا إلى هاهنا حالاً، و﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم﴾ أننا ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ ماضياً، وتراهم كيف تأكدوا من علمهم فيهم لحد الحلف بالله، براءة لهم في حالهم وما مضى، وهذه حجة صارمة - لو علموا - على براءتهم في إنكارهم واستنكارهم سرقتهم؟.

قد نتخذ ذلك دليلاً أنهم عرّفوا الصديق بأنفسهم بما قالوا وما فعلوا وعاملوه من مظاهر الصدق في نياتهم وسجياتهم، ولحدٍّ يضيِّفهم أحسن ضيافة ويضيف لهم إلى متاعهم بضاعتهم، وعلّهم - كما يروى - ردوها إليه، مما يبرهن أنهم ليسوا من المفسدين في الأرض ولا سارقين! ولأنهم في الحق فاقدون سواع الملك، ولم يُبقوا احتمالاً أنه مخبوء هنا وهناك أم هو عند أحد من رجال الحاشية، فرغم علمهم بسابق حالهم فالمحتوم - إذاً - أنه عندهم على أية حال، كما المحتوم عند الإخوة خلافه، معلومان يتعارضان، فلا سبيل - إذاً - لتكشّف الحال الغامضة إلا تفتيش رحالهم لبيان حالهم فإذاً:

﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

فما جزاء من وُجد في رحله؟ وترى ﴿إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ هي في نكران سرقة الصواع؟ وهم فيه صادقون! فلماذا يهددون! - أم في نكران أي إفساد في الأرض وسرقة طول حياتهم؟ اللهم نعم فإنهم فيه كاذبون، ومن أقل الجزاء لهم ألا يرجعوا بأخيهم، فيختجلوا عند أبيهم ويرتكبوا بما ارتكبوا.

ولكن حيث كانوا كاذبين فلماذا الجزاء على من ليس منهم؟ إن ذلك - في الحق - جزاءهم، وأما جزاؤه فهو ظاهرة مورّاة مجاراةً لحقل الجزاء، و﴿جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ مفرداً عن ﴿كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ جمعاً، هو أجمل تلميحة لاختلاف المجزي عن الكاذبين، فإن للكاذب - لو كان هو بنيامين - جزاؤه وللصادقين سواه ليس هنالك جزاء ما هم غير عارفين أنه سرق.

فحصالة المعني منها: فما جزاءُ من وجد في رحله إن كنتم أنتم كاذبين، لا من وجد في رحله فإنه صادق هنا وعلى طول الخط، وإلّا فليكن «إن كان كاذباً» ولأنه لم يكن كاذباً لم يكن وجدانه في رحله يسمح لأن يؤخذ إلّا بكذب صراح في حقه أنه كاذب دون مجال في ذلك لأيّة تورية.

﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

وقد حكموا حسب شرعتهم أن جزاء السارق هو نفسه أن يسجن أو أن يسترق، و﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ تعمم هذا الحكم إلى سائر الظالمين بحق الناس.

ولماذا التكرار في ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مبتدأ مرة وخبراً أخرى؟ علّه للتأكيد أنه هو جزاؤه لا سواه، أم هو وسواه، إنما هو جزاؤه ليس إلّا إياه.

وبطبيعة الحال كل هذا الحوار كان بإذن يوسف ومنظره ومسمعه فإنه من كيده المسموح بإذن الله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ ولكن من هذا الذي يمدّ يده إلى أوعيتهم تفتيشاً؟ ليس ذلك إلّا يوسف نفسه إكراماً لبيت النبوة واحتشاماً للأخوة، ولأنه هو الذي ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ فليكن هو الذي يستخرجه بخاصة كيده من وعاء أخيه:

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾:

بدأة بديعة تذود عنه كل تهمة وريبة، فبدؤه بوعاء أخيه مريبة قريبة، واستخراجه منه بين أوعيتهم مريبة بعيدة، ولكن استخراجه منه بعد أوعيتهم كلهم تطوي كل ريبة وتزيل كل شبهة وتهمة، أن هناك مؤامرة وحيلة مدروسة.

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ فكل ما حصل فيما هنالك من مكيدة وتورية كان من كيد الله ليوسف، ما لولاه لـ ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ اللّهم إلّا بدينه أو دينهم، وقد حكموا «هو جزاؤه» فليأخذه الصديق إذ كانوا هم كاذبين، وهو في الحق جزاء كذبهم، وحسب الظاهر جزاء من وجد في رحله.

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ . . . إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وقد شاء الله وفق شرعته وإرادته

في مكيدته، كيدٌ دون أي ضعف أو كذب أو ظلم، بل هو شطر من جزائهم عن مربع ظلمهم في يوسف، فقد ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1] و﴿دِينِ الْمَلِكِ﴾ كما سلف دليل لا مردَّ له أن ذلك الكيد كان خفياً عمن سوى الصديق.

وإنه لكيد يرفع من كيان يوسف ويضع من كيان إخوته ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ مهما تظافرت عساكر خفضته وضعته، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وترى وما هي الصلة بين ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وما قبلها؟ علّها لأن الإخوة كانوا في هذه الرحلة كلهم عيوناً مفتّحة حفاظاً على أخيهم ليأتنَّ به أباهم، حاسبين لكل صغيرة وكبيرة حسابها، ولكن الصديق بوحدته فوقهم في علم، ما لم يكونوا له حاسبين، ثم وهذه ضابطة سارية في حقل العلم إذ ليس له حدٌّ ولا حدود، ففوق كل ذي علم عليم حتى يصل إلى علم بلا حدود، فلا فوق له ولا قرين حيث اللّانهاية لا تتكرر.

لذلك لا يحق للعالم - أياً كان - زعمة الزعامة العامة في حقل العلم وإن في تخصص خاص، فعلَّ فوقه عليم، حتى وإن كان نبياً يوحى إليه، إلّا من أوحي إليه أن ليس فوقه في كل الخلق عليم كالرسول محمد ﷺ اللهم إلّا ربه تعالى جدّه.

ف ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ تحكم برفعة الصديق عليهم في درجات ومنها درجة العلم ف ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وكما فوق كل ذي فضل فاضل، حتى يصل إلى خالق الدرجات والفضائل فلا فوق له في أي شيء ولا قرين حتى يقارنه فضلاً عن أن يفوقه.

وقد «سأل رجل علياً عليه السلام عن مسألة فقال فيها، فقال الرجل ليس

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.

هكذا ولكن كذا وكذا، قال علي عليه السلام: أحسنت وأخطأت «وفوق كل ذي علم عليم»[(١)] ولا يعني ذلك الجمع إلّا خطأه في مسألته، وإن كان صواب فهو قول الله ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فإنا فوقك علماً كما أن فوقي عليم حتى ينتهي العلم إلى الله، فمنه نبدأ وإليه نعود.

﴿۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

هنا - ولكي يخلصوا عن الورطة نجياً - يظهر كامن حقدهم الدفين على يوسف وبنيامين، يجعلونهما في خط دون خطهم تبرئة لساحتهم أنفسهم:

﴿إِن يَسْرِقْ﴾ هو فله سابقة من أخيه من أمه وأبيه ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ﴾ فليسرق هو من بعد نسخة طبق الأصل، حيث الأم لها دورها في التربية مهما اشتركنا في أبينا.

وتراهم هنا يصدقون وهم في ورطتهم، وقد كذبوا من قبل لاستلاب الصديق عن أبيه وهم في حريتهم؟ إنهم يعنون بهذه الفرية أن يلطّخوا ساحة أخويهم من أبيهم فيضيفون تهمة سرقة لأخ له من قبل إلى هذا الذي ظنوه سارقاً من بعد، وكأنهم لا يشعرون أنهم يكذبون بذلك قولتهم من قبل: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ ضاربة إلى أعماق الماضي إلى الحال، فكيف الحال في سرقة في الحال وأخرى يدعونها في الماضي؟

أجل هناك شيء نتلمح من «أسرَّها» فإنها لا مرجع لها إلّا سرقة مستفادة من فعلها، فقد «أسرها» هنا ﴿يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا﴾ بعينها ﴿لَهُمْ ۚ﴾ لكيلا يتكشف أمره هنا حتى حين، وإنما لمّح بصيغة عامة لشر مكانهم في قولهم وما فعلوه من قبل، وعلى ضوئه لخير مكانه في قوله فيهم وما يفعله

(١) الدر المنثور ٤: ٢٨ - أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال سأل رجل...

الآن: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ثم أرجع العلم بما يصفون من سرقة سابقة إلى الله ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

ففي ذلك الموقف نتلمح من كلام الصديق ﴿أَنتُمْ شَرٌّ...﴾ وقول الله فيه ﴿فَأَسَرَّهَا...﴾ ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا﴾ أنه كانت له سرقة ولكنها صالحة وليست شريرة طالحة، فلو أنهم كانوا في قولتهم عنه صادقين، لم تكن - في الحق - تثبت عليه إلّا فضيلة لا رذيلة، ولكنهم عرضوها هنا رذيلة لو أنهم يعنون تلك السرقة الفضيلة.

وعلّها ما يروى عن الرسول ﷺ «سرق يوسف عليه السلام صنماً لجدِّه أبي أمه من ذهب وفضةً فكسره وألقاه في الطريق فعيّره بذلك إخوته»[1] فهذه أمّاهيه من سرقة لا تحمل منها إلّا لفظتها، كما المكيدة من الله أماهيه من أفعال صالحة يعبر عنها بعبارات متشابهة فتفسرها الآيات المحكمة.

فالسرقة قد تكون واجبة حيث يضر المسروق بصاحبه ولا يتخلى عنه،

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٨ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [يُوسُف: ٧٧] قال: ...، وأما ما يروى أنه كانت لإسحاق النبي منطقة يتوارثها الأنبياء والأكابر وكانت عند عمة يوسف وكان يوسف عندها وكانت تحبه فبث إليها أبوه أن ابعثيه إلي وأردّه إليك فبعثت إليه أن دعه عندي الليلة أشمه ثم أرسله إليك غدوة فلما أصبحت أخذت المنطقة فربطته في حقوه وألبسته قميصاً وبعثت به إليه وقالت سرقت المنطقة فوجدت عليه وكان إذا سرق أحد في ذلك الزمان دفع إلى صاحب السرقة فأخذته فكان عندها..

وقد نقله في نور الثقلين ٢ : ٤٤٤ عن الخرائج والجرائح بإسناده عن داود بن قاسم الجعفري قال: سئل أبو محمد عن قوله تعالى: و﴿إِن يَسْرِقْ﴾، وعن تفسير العياشي عن إسماعيل بن همام قال قال الرضا عليه السلام كما هو المتن الذي نقلناه، وأخرجه مثله في الدر المنثور ٤ : ٢٨ بعدة طرق عن جماعة دون إسناد إلى النبي ﷺ.

أقول: ولكنه لا يلائم أصولنا المستفادة من الكتاب والسنة، (١) فقد كان يوسف عليه السلام دون التكليف ولا حكم لسرقة الصغير (٢)، ومع الغض عن الصغير فكيف يقبل نبي الله يعقوب شهادة امرأة واحدة على ابنه الذي يعرفه بصدق وصفاء؟ (٣) وأن يوسف حسب الآيات كان عند يعقوب حتى أخذه منه إخوته.

فليُسرق منه نجاة له عن ورطته، أي يؤخذ منه ما يضره من مال أو حال على غفلة منه صداً عن أيٍّ تمنُّع.

ثـم ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ذود عـن كـرامتـه مـا يمسها من سرقة محرّمة، رَجعاً لشرها إليهم وأنهم يجهلون ما يصفون أو يتجاهلون، وهنا أخذوا يلتجئون إليه ويسترحمون:

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩)﴾:

ونرى الصديق هنا لا يلفظ بشطر كلمة تمس من كرامة أخيه حتى في تـوريـة إذ يـقـول: ﴿مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ دون «مـن سـرق مـتـاعـنـا» ثـم ﴿مَتَاعَنَا﴾ دون ﴿صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ تحمل تلميحة مليحة - فيما تحمل - أن أخاه هو متاعه، متعة معنوية بلقاء أخوي ممتّع! فقد وجدنا متاعنا هذا عنده، وهو نفسه الغالية، كما وجدنا صواع الملك عنده، وأين متاع من متاع؟

وفي التعبير عن يوسف بـ ﴿الْعَزِيزُ﴾ دليل على أنه أصبح مكان العزيز بعزله، أو موته، وأنه غير الملك لاختلاف التعبير مهما مُلِّك ما كان يملكه الملك حيث طوي عن ذكره كأصل واندرج درج الرياح.

و﴿إِنَّ لَهُ أَبًا﴾ استعطاف له خاص أن له مكانة عند الأب ليست لنا، فكأنه هو - فقط - ابنه، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ كيلا يأسى بفقده أبوه الشيخ الكبير، فأجاب عن اقتراحهم ﴿مَعَاذَ اللَّهِ... إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ أن نأخذ بديله غيره، وهو متاعنا وبغيتنا، وهو الذي وجدنا متاعنا عنده.

أترى أن ذلك - في الحق - كان ظلماً ولا سرقة في البين حتى يثبت حق أصلاً أو فرعاً؟ إنه مجاراة لهم فيما قالوه وقرروه: ﴿جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي

﴿رَحْلِهِۦ﴾ تورية في مسرحه. و﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ قد تعني تورية، لو أنا تركنا ﴿مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ ظلمنا أنفسنا فإنه هو بغيتنا ومتاعنا في ذلك الكيد الأمين المكين، كما وظلمنا حسب دين الملك ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ وكما في دينكم، مثلث من الظلم مجاراةً، مهما انفلت البعض منها مواراةً، فقد صدق الصدّيق في ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ على أية حال! وتراهم كيف يستفدونه بأحدهم وهم من نعرفهم من شقوة ليوسف من قبل ولأبيهم؟ علّه لأن استلاب يوسف من أبيه كان عن حقد لا يعرف شفقة إلّا شقوة، وأخذهم لأخيه لم يكن إلّا شفقة للعائلة ككلّ، وقد آتوا أباهم موثقهم من الله ليأتنّه به، ففدوا بأحدهم مكانه تخلصاً عن ورطة مستقبلة أمام أبيهم، وهم عارفون بعض الشيء أن العزيز ليس ليأخذ أحدهم مكانه.

ثم وما هو الرباط بين ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ و﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾؟ ﴿لَهُۥٓ أَبًا﴾ تختصه بأبيهم أكثر منهم، كأنه فقط ابنه، فهذه زاوية أولى لاستعطافه، ثم ﴿شَيْخًا كَبِيرًا﴾ هي الثانية، حيث الشيخ المتقدم في العمر أحوج إلى ولد يؤنسه من سواه، ويزيده انعطافاً كونه شيخاً كبيراً بساير معانيه، محتداً وعلماً وإيماناً وعائلة وعشيرة، فهو يستحق العطف من جهات شتى، ومن ثم الزاوية الثالثة ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهنا أظرف ظروف الإحسان، ويعني الإحسان فيما يعني إحساناً يناسب تحرير رق، ولأقل تقدير ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾! وقد كان - كما يروى - أنه حرّر نفراً عظيماً ممن شراهم الطعام بأنفسهم حين نفدت بضائعهم.

وما أجمل جواب الصديق وأحوطه إذ لم يقل: «معاذ الله أن نأخذ بريئاً بجريرة سارق»، وإنما ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ ثم يعتذر عن كل هذه الزوايا المتعطفة بـ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ وهل يظلم المحسن؟ أم أن غاية الإحسان تبرر وسيلة الظلم؟!.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠)﴾:

الاستيئاس هو من اليأس والإياس، ولأنه استفعال فقد يزيد على «ايئسوا» وعلّه تطلّب الإياس، وما أدقه تعبيراً وألطفه على حالتهم الراجية، المتعمقة في قلوبهم، المستكنة في أفئدتهم، لحدٍّ ما كان يخلد بخلدهم يأس عن إحسان الصديق، ولكنه قطع كل آمالهم بكلمة تهديد: ﴿إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ حيث تَهدَّدهم فتحدد موقفه منهم مما آيسهم، وكأنهم حينذاك تطلّبوا الإياس من أنفسهم رغم ما كانوا يظنون، كما وخوفهم، ولذلك ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾.

و﴿نَجِيًّا﴾ تستعمل جمعاً كما هنا، ومفرداً: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾(١) وهي واويةً تعني النجوى، ويائية تعني النجاة، وقد تعنيهما هنا ﴿نَجِيًّا﴾ لمكان ﴿خَلَصُوا﴾ فالثانية النجاة، وحيث ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ...﴾ فالأولى النجوى، ولو عنت نجيّ النجوى فالصيغة الفصحى - إذاً - النجوى نفسها كما: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾(٢).

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ﴾ من يوسف أن يسمعهم ومن أخيه أن يرده إليهم ﴿خَلَصُوا﴾ من حضرته على تخوف أن يلحقهم مزيد مما لحقهم ﴿نَجِيًّا﴾ نجاةً من ملاحقته، ونجوى بينهم في أمرهم كيلا يسمعهم هؤلاء فيما يتناجون، ومن نجواهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾؟

أترى لماذا «أباكم - عليكم - فرطتم» تغاضياً عن نفسه وقد كان معهم

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٧.

فيما كان منهم وهو كبيرهم؟ علّه إشارة إلى أن كبيرهم هذا ما كان ليرضى عما فعلوا، ويشهد له أنه حملهم على أن يجعلوه في غيابت الجب، فلا يقتلوه، ولا يطرحوه أرضاً ولا يلقوه في غيابت الجب، بل يجعلوه ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾.

فهو مهما كان يشاركهم بعض الشيء في نفي الصدِّيق، كان أخفهم اجتراماً بحقه وأثقلهم احتراماً له، يحاول في تآمرهم عليه، الحفاظ على نفسه وسلامته، اقتصاراً على الأقل فيما يرمون، وعلّه إن لم يسايرهم بعض الشيء وأخبر يعقوب بتآمرهم عليه، قضوا عليه.

علّه لذلك كله تحق له هذه المصارحة في مثلثها: ﴿أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم... وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ﴾ فقد كان التفريط في يوسف منهم دونه، وبطبيعة الحال ﴿مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مأخوذ عليهم دونه، أو أن تفريطه لم يكن فارطاً فالتاً مثلهم، وأن موثقه لم يكن كموثقهم، ولذلك نراه هنا لا يبرح الأرض حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله، مما يدل على أن ﴿مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يشمله مهما كان في أخفه.

ثم ﴿أَبِيٓ﴾ دون «أبونا» هي رابعة الأضلاع في تلك المفاصلة بينه وبينهم في التفريط والميثاق، فهو ﴿أَبِيٓ﴾ فوق ما هو «أبوكم» حيث أراعي الحرمة الأبوية له وأنتم لا تراعون، فأنا - إذاً - ناظر أحد أمرين ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ لكي أبرح الأرض للقائه دون اختجال لمكان براءتي ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾: بخلاص أخي فأبرح معه الأرض إلى أبي، أو يوحي إلى أبي براءتي أنا فيرضى عني، أم - ولآخر تقدير - بموتي حتى لا أرى أبي كئيباً ينظر إليّ نظرته إلى من خانه وشانه ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لا يحكم إلّا خيراً.

ثم بعد هذا التنديد الشديد بهم يأمرهم بالرجوع، ويرشدهم كيف يواجهون أباهم في مقال:

﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

﴿ٱرْجِعُوٓاْ﴾ دوني أنا إذ لا أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي ﴿إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ دون أبينا، حيث المقام مقام استنهاض الرحمة الأبوية لهم دونه، فإنه ليس معهم لا في رجعهم ولا في كل ذنبهم ﴿فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ كأوّل قالة لهم بعد السلام والإكرام جبراً للمفاجأة من فقده، حجة لهم حاضرةً علّها تقنع أباهم بفقده، ولأنه ليس ليقبل هذه التهمة الوقحة لابنه الحبيب يحاولون تثبيت دعواهم بما حاولوا.

أب مفجوع بابنه يوسف من قبل، يُفضى إليه بنبإ فظيع لابنه الثاني، وأفظع من فقده، فرية السرقة، فليواجهوه في ذلك المشهد الرعيب الرهيب بحجة قيّمة تعذرهم، وتسد كل منافذ ظِنَة الخيانة عنهم وقد فعلوا:

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ كأنه جواب عن أسؤلة مطوية كالتالية: لماذا شهدتم بحكم السارق في شرعتنا ليجعلوه مُسكة في إمساكه، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً؟ أو شهدتم بسرقته لديهم فأمسكوا ولدي أنا إمساكاً عنكم؟ والجواب: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ بحكم شرعتنا ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ منه فلا محظور، وإلا بما علمنا أنه لم يسرق ولذلك شهدنا، و﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ إنه سرق لوجود الصواع في رحله، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ ما كنا نحفظ غيب أنه سارق حتى لا نأخذه معنا، أو لا نشهد بحكم السارق عندنا حفاظاً عليه، ولا للغيب المتخلف عن علمنا بأنه سرق لو أنه لم يسرق إذ لا نؤمر إلّا بما علمنا دون الغيب الذي جهلنا، فقد كانت هذه الشهادات الثلاث ﴿بِمَا عَلِمْنَا﴾ شهادة بالحكم، وشهادة بالسرقة عندهم وأخرى عندك، والعلم عاذرٌ في الشهادات مهما تخلف عن الواقع إذ ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾.

﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ عن مسألتنا ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وهم كلهم يشهدون لنا: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ حتماً فيما نقول ونشهد.

ولكن ذلك شهادة بحكم الشرعة بما علموا، فكيف يشهدون بالسرقة بما علموا كما يدعون وهي بحاجة إلى شهود السرقة، فلكلٍّ مشهود به شهادة تخصه، كما ويندد يعقوب بشهادتهم هذه:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا...﴾ سولت أمر السرقة في أخيه حين قلتم فيما شهدتم:

﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ...﴾ شهادة ذات بعدين بعيدين عن أي علم أم أية حجة شرعية، فكيف شهدتم أن يوسف سرق من قبل؟ ثم كيف شهدتم أن أخاه سرق بمجرد ما وجدتم الصواع في رحله؟ وعلّهم جعلوه في رحله ليأخذوه، فلم تكن هذه الشهادة لا عن شهادة ولا عن علم ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا...﴾.

هنا علمٌ، وهناك شهادة، وهنالك غيب، فنحن وإن كنا لا نؤمر بالغيب، فإن أمره بيد من يعلم الغيب، ولكن الشهادة هي عوان بين العلم والغيب، وأكثرها توافق الغيب، فالعلم غير المسنود إلى شهادة وحضور في المعلوم المشهود به، قد يحصل من تسويل نفس، ممن له نكاية على المشهود، فيحصل له علمٌ بقرائن غير قطعية، وحتى إذا كانت بقرائن قطعية فليست كالشهود لدى الجريمة، فلا حجة فيه على المتهم بجريمته.

وكما أن الشاهد لدى الحاكم ليست له شهادة بعلم إلّا سناداً إلى شهوده وحضوره على شروطه، كذلك الحاكم نفسه ليس له حكم بعلمه، إلّا بشهادة صالحة، وكما هو ثابت بنصوص الكتاب والسنة.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾[١]

---

(١) هنا تستمر التوراة في القصة تاركة قصة رجوعهم إلى أبيهم بإبقاء بنيامين عند يوسف قائلة بعد ذكر التماسهم أن يرسل معهم أخاهم: «فلم يستطع يوسف أن يضبط نفسه لدى جميع الواقفين عنده فصرخ اخرجوا كلّ إنسان عني فلم يقف أحد عنده حين عرف يوسف إخوته بنفسه فأطلق صوته بالبكاء فسمع المصريون وسمع بيت فرعون وقال يوسف لإخوته: أنا يوسف أحيٌّ =

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾:

﴿قَالَ﴾ ليس كما تزعمون ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ فلا علم هناك ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وزيّنته فأصبح علماً عن تسويل فهو ظنّة رديئة ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وهي كلمته الأولى يوم فقد يوسف، ولكنه هنا يضيف إليها وطيد الأمل: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ والجميع هم الإخوان وكبيرهم الذي ما برح الأرض ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مما يدل على أنه بعدُ راجٍ في حياة يوسف و﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يأتي على لسانه أوّل ما أوّل رؤياه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ... إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1] وفيما هنا ثاني مرة،

= أبي بعد؟ فلم يستطع إخوته أن يجيبوه لأنهم ارتاعوا منه - وقال يوسف لإخوته تقدموا إلي فتقدموا فقال: أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر والآن لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأنكم بعتموني إلى هنا لاستبقاء حياة أرسلني الله قدامكم لأن للجوع في الآن سنين وخمس سنين أيضاً لا يكون فيها فلاحة ولا حصاد فقد أرسلني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الأرض وليستبقي لكم نجاة عظيمة فالآن ليس أنتم أرسلتموني إلى هنا بل الله وهو قد جعلني أباً لفرعون وسيداً لكل بيته ومتسلطاً على كلّ أرض مصر. اسرعوا واصعدوا إلى أبي وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف: انزل إلي لا تقف فتسكن في أرض جالسان وتكون قريباً مني أنت وبنوك وبنو بنيك وغنمك وبقرك وكل مالك، وأعولك هناك لأنه يكون أيضاً خمس سنين جوعاً لئلا تفتقر أنت وبيتك وكل مالك وهوذا عيونكم ترى وعيناً أخي بنيامين إن فمي هو الذي يكلمكم وتجزون أني بكل مجدي في مصر وبكل ما رأيتم وتستعجلون وتنزلون بأبي إلى هنا ثم وقع على عين بنيامين أخيه وبكى ويكى بنيامين على عنقه وقبل جميع إخوته وبكى عليهم - ثم تقول -: إنه جهزهم أحسن التجهيز وسيرهم إلى كنعان فجاؤوا أباهم وبشروه بحياة يوسف وقصوا عليه القصص فسر بذلك وسار بأهله جميعاً إلى مصر وهم جميعاً سبعون نسمة ووردوا أرض جالسان من مصر وركب يوسف إلى هناك يستقبل أباه ولقيه قادماً فتعانقا وبكى طويلاً ثم أنزله وبنيه وأقرهم هناك وأكرمهم فرعون إكراماً بالغاً وآمنهم وأعطاهم ضيعة في أفضل بقاع مصر وعالهم يوسف ما دامت السنون المجدبة وعاش يعقوب في أرض مصر بعد لقاء يوسف سبع عشرة سنة.

أقول وهذا كله ملخص ما فصله التوراة يقارن بما في القرآن ليرى البون البعيد بين الكتابين.

(١) سورة يوسف، الآية: ٦.

ثم يوسف هوَ الذي يثلّثهما عند اللقاء: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ...﴾ ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1] وذلك مما يوحي بتأكد الرجاء وأن المرجو قضية علمه تعالى وحكمته.

أتراه يرجوه بما أوحي إليه؟ علّه نعم، وعلّه لا، حيث الرجاء بالله والأمل الوطيد في الله شعورٌ يتجلّى دوماً في قلوب الصفوة المختارة، لا سيما وهو الذي أوّل رؤياه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ ولكنه أمل راجح دون يقين، فعلّه يجتبيه دون علمه بمكانه، وعلّه ميتٌ الآن بعد تحقق رؤياه، ولكن العِلّات على عُلّاتها ليست لتزلزل من صرح رجاءه، وقد يأتي نبأ علمه بحياته بعد حين في آيته: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ...﴾.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾﴾:

هنا يختص يوسف بذكراه إذ لا يتأكد بعدُ من حياته أو أن يأتيه، ولكن أخاه وكبيرهم بعدُ موجودون بمكان معلوم، ثم ويوسف هو القمة العالية الغالية في حبّه، وما فاصل الزمان البعيد بالذي يُنسيه، لا سيما والحادث الجلل الجديد يذكر جَلَل القديم.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ اعتراضاً عليهم وإعراضاً عنهم، منقطعاً إلى الله ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ إذ ما هوّنتَ من مصابه طائل السنون، والنكبة الجديدة في أخيه ثم كبيرهم تجدده أكثر مما كان طيلة السنين، وذلك غاية الأسف والأسى على أعز الأبناء وأغرهم الذي تتلوه غائلة فوق غائلة، فهنا ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ حيث أذهب الحزن بسواده فانضّم في سائر بياضه، ولكنه على حزنه الذي بلغ به إلى العمى لم يكن ليشكو حزنه إلى أحد إلّا لله

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ غيظه وحزنه عمن سوى الله، هضيم عبء مصابه لله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ممن أحزنني وخانني لا من الله.

أترى أن الحزن، وعلى أثره البالغ منه: ابيضاض العين، ذلك لا يلائم الصبر الجميل؟ إنه لو كان شكوًى من الله لخرج عن الإيمان بالله، فضلاً عن الصبر الجميل، ولكنه إذا كان شكوًى إلى الله من بأس الظالمين، فهو قضية الإيمان، وصبرٌ جميل، حيث لم تخرجه عن الرجاء بالله والأمل في رحمة الله.

وفي نائبة يوسف واجهتان، من إخوته خيانة وظلماً حسداً من عند أنفسهم، ففيها ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾....

وأخرى تجاه الله وفيها ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ... فَهُوَ كَظِيمٌ... إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ...﴾ ﴿ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ...﴾ وكلتاهما قضية الإيمان، رحمة أبويَّة على أفضل أولاده، ونقمة على حاسديه، وثقة وإيماناً بالله ورجاءً به ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

قد صدق رسول الله ﷺ في قوله: «كان له من الأجر أجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله ساعة من ليل أو نهار»[1]!

---

(١) الدر المنثور: ٤: ٣١ - أخرج ابن جرير عن الحسن عن النبي ﷺ أنه سئل ما بلغ وجد يعقوب على ابنه؟ قال: وجد سبعين ثكلى، قيل: فما كان له من الأجر؟ قال: أجر مائة شهيد...

في نور الثقلين ٢: ٤٥٢ عن القمي عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال له بعض أصحابنا: ما بلغ من حزن يعقوب على يوسف؟ قال: حزن سبعين ثكلى، فيه في الخصال عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة - إلى أن قال - ولقد بكى على أبيه الحسين عليه السلام عشرين سنة ما وضع بين يديه طعام إلّا بكى حتى قال له مولى له: يا بن رسول الله ﷺ أما آن لحزنك أن ينقضي؟ فقال له =

وما هو موقف الفاء في ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾؟ علّه كعلة لـ ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ فالحزن الظاهر المتظاهر يخفف عبء الباطن المتكاثر، وأما إذا كان مكظوماً لا يظهر، فهو صادر عن القلب ووارد في القلب، فيحرق القلب ويؤثر على القالب، ولماذا ﴿عَيْنَاهُ﴾؟ طبعاً لمزيد البكاء، وطبعاً أبيضّ سائر شعره مع عينيه، واحدودب ظهره، وكل ذلك لعظم الحزن وأنه كظيم لا يظهر حزنه.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾:

﴿تَفْتَؤُاْ﴾ هنا منفي بأداته المحذوف (لا)، المدلول عليها، بترك اللّام ونون التأكيد في جوابه، فإنهما لزامان لجواب القسم في الإثبات.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ﴾: لا تنقطع ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ آسفاً حزيناً كثيباً، كلمة حانقة خانقة مستنكرة، ظاهرها فيه الرحمة تعطفاً على أبيهم، وباطنها من قبله العذاب تنديداً شديداً بأبيهم، كيف يأسى على يوسف الفقيد منذ سنين؟

تدأب في ذكر يوسف ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾: مشرفاً على الهلاك كما هلكت عيناك ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ والحَرَض ما لا يعتد به ولا خير فيه، وهذه هلكة الإنسان في كيانه قبل هلاكه بموته، فلا هو حي كالأحياء، ولا ميت كالأموات! وهكذا يتظاهرون لأبيهم في مظهر الناصح المشفق ألّا يتذوّب بذكر يوسف الفقيد حيث ذهب دون عودة، ولكنه يرد عليهم رداً حازماً حاسماً جازماً: أنه لا يشكو إليهم ما كان منهم ولا يجزع لديهم:

= ويحك إن يعقوب النبي عليه السلام كان له اثنا عشر ابناً فغيب الله عنه واحداً منهم فابيضت عيناه من كثرة بكائه عليه واحدودب ظهره من الغم وكان ابنه حياً في الدنيا وأنا نظرت إلى أبي وأخي وعمي وسبعة عشر من أهل بيتي مقتولين حولي فكيف ينقضي حزني؟.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾:

البث المقارن للحزن هو الحزن المبثوث حين يغلي مرجله فينبثُّ باختيار ودون اختيار، حيث يظهر في ملامح الوجه وفلتات اللسان ومعارض الأركان، والحزن همٌّ دونه حيث يملك ستاره، وشكوى البث والحزن هي الاختياري منهما وقد اختاره يعقوب ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا سواه، لمكان «إنما» فلا يشكوهما إلى أحد حتى أهله وولده، وهذه هي قمة الشعور بمقام الربوبية في قلب منقلب إلى الله، موصول النياط بالله، في لألاء باهر وجلال غامر.

فليس بعدُ الزمان، واستنكار الولدان لذلك التطلُّع الدائب بعد هذا الأمد البعيد، ليسا هما وأمثالهما من مؤيسات بالتي تؤثر في أمل الرجل الصالح الواثق بربه، فإنه يعلم من الله ما لا يعلمون هؤلاء المحجوبون.

ولذلك يدأب في شكواه بثاً وحزناً إليه، ويمضي حياته عليه، ولحد ابيضاض عينيه من كمد البكاء دون لفظة قول ولا لحظة عين ولا أية إشارة في شكواه إلى غير الله، وهنا نضرب بالرواية القائلة خلاف الآية عرض الحائط حين تقول: كتب يعقوب بكتاب له إلى العزيز يشكو فيه كل شكواه، فحتى لو كان يعلم أنه يوسف ما كان له أن يشكو إليه، ولكنه لم يعلم[1] أنه هو فكيف يشكو إلى العزيز الذي هو بطبيعة الحال مشرك ويستجدّه ويسترحمه في نفسه؟ ويطلب منه أن يتصدق عليه وقد قال رسول الله ﷺ: «من أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه ومن أصبح يشكو مصيبة أنزلت به فإنما يشكو الله ومن تضعضع لغني لينال من دنياه

---

(١) نور الثقلين ٣: ٤٦١ ج ١٨٢ في أمالي شيخ الطائفة بإسناده إلى أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: فلما كان من أمر، إخوة يوسف ما كان كتب يعقوب إلى يوسف وهو لا يعلم أنه يوسف...

أحبط الله ثلثي عمله...»[١] «ومن بث لم يصبر»[٢] وقد قال يعقوب ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فقد صبر جميلاً ولم يبث إلا إلى الله لا سواه، وهكذا يكون مَن عند الله، مطمئناً بالله، مجاهداً في الله، جاحداً لغير الله إلّا في أمر بأمر الله، وكما أمرهم:

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

فليست الثقة بالله والتكلان على الله بالذي يبطِّل التوسل بالأسباب، ويعطل ابتغاء الوسيلة إلى رحمة الله وكما قال الله: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[٣]! وهنا يتجلى - وضح الشمس في رابعة النهار - أنه كان على علم بحياة يوسف[٤] وطبعاً بوحي من الله، وكما أوّل رؤياه في الأوّل: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ...﴾ وقد كرر قوله ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لما ارتد بصيراً: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ فكان مما يعلم من الله حياة يوسف!

وكأنّ التحسّس والتجسّس سواء في معنى التفتيش لكنما الأوّل في غير

---

(١) الدر المنثور ٤: ٣١ - أخرج البيهقي في الشعب عن أنس قال قال رسول الله ﷺ وفي آخره: ومن أعطي القرآن فدخل النار فأبعده الله.

(٢) المصدر - أخرج ابن عدي والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: .. ثم قرأ الآية.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

(٤) نور الثقلين ٣: ٤٥٥ ح ١٦٦ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة وقال الصادق عليه السلام: إن يعقوب قال لملك الموت: أخبرني عن الأرواح تقبضها مجتمعة أو متفرقة؟ قال: بل متفرقة، قال: فهل قبضت روح يوسف في جملة ما قبضت من الأرواح؟ فقال: لا، فعند ذلك قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ...﴾ [يُوسُف: ٨٧] ورواه مثله في العلل بإسناده إلى حنان بن سدير عن أبيه قال قلت لأبي جعفر عليه السلام...

شر والثاني في الشر، فالتفتيش عن عورات الناس وأسرارهم المخبوءة التي لا يرضون كشف الستر عنها هو التجسس، وقد منع عنه باتاً ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ وأما التفتيش عما سواها، ولا سيما الأشياء أو الأمور التي تخصك من حقك، فهو التحسس، أن تبالغ في استعمال حواسك ظاهرة وباطنة لتجد ضالتك المنشودة، وهكذا يأمر يعقوب بنيه.

﴿. . . ٱذْهَبُوا۟﴾ إلى مذاهب التحسس ومظانه ﴿فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فكبيرهم لا يتحسس فإنه في نفس الأرض التي تركتموها، وأخي يوسف الموقوف عند العزيز لا يدري مسيره ومصيره فليُسأل عنه العزيز، ويوسف نفسه يُسأل عنه العزيز وغير العزيز، فالمذهب الأول في ذهابكم هو العزيز وكما ذهبوا إليه.

﴿ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ . . . وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ كما يئستم لحد تنصحونني ألّا أذكر يوسف، فروح الله غير مأيوس منه إلّا لمن يكفر بالله، أو يستر عن معرفة الله بروحه ورحمته: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[1].

الروح والرَّوح هما من أصل واحد هو الحياة، واختص الأولى بالنفْس كلها، والثانية بنفَسها وراحتها، وللرَّوح كما الرُّوح نسبةٌ إلى الإنسان وأضرابه كما في الواقعة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩﴾[2] وأخرى إلى الله كما هنا ﴿رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ تنفيساً منه عن كرب، كمن يتنفس عن خنق، فيستريح بعد عذاب، فروح الله - إذاً - هي رحمته بعد نقمته، بتنفيسه بعد خنفه وحنقه لخلقه، حيث الرّوح هو تنسيم الريح التي يلذ شميمها ويطيب نسيمها، فشبّه الفَرَج الذي يأتي بعد الكربة ويطرق بعد

(١) سورة الحجر، الآية: ٥٦.
(٢) سورة الواقعة، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

اللزبة، بنسيم الريح الذي ترتاح القلوب له وتثلج الصدور به، وكما يروى أن «الريح من نفس الله» أي من تنفيسه عن خلقه، وهذا رَوح في الظاهر، ومن ثم رَوح في الباطن ينسم على الرّوح نسمة الراحة بعد الكربة.

فالكافرون بالله بدركاته آيسون من رَوح الله بعد كربه، ولكنما المؤمنون بالله بدرجاتهم لا ييأسون من روح الله ورحمته، ولو أحاط بهم كل كربة ومصيبة، مستظلين في ظل رَوحه من الكرب الخانق حيث ينسم على أرواحهم من نسمة روح الله الندي، حيث يشعرون في طمأنينة بنفحاته المحيية الرخيَّة المنفِّسة عن كل كرب.

ورُوح الله المستكن في أبدان المؤمنين، هو الكافل لروَح الله، رَوح في رُوح ورُوح يضمن الروح، فهما لصِقُ بعض في المؤمنين، كما هما منفيان عن الكافرين! أجل و«الفقيه كل الفقيه من لم يقنِّط الناس من رحمة الله ولم يؤيسهم من روح الله ولم يؤمنهم مكر الله»[١] فإن القنوط من رحمة الله في حد الكفر بالله، فهو من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله[٢].

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾:

إنه لم يكن في أمر يعقوب أن يذهبوا إلى العزيز إلّا ضمن ما يتحسس عن بنيامين عنده، فضلاً عن أن يكتب إليه بكتاب يمس من كرامة النبوة والإيمان كما يهرفه المحرِّفون الخارفون، وفضلاً عن أن يطلبوا إليه تصدقاً عليهم شكوّى إليه من الضر الذي مسهم وأهليهم، وهم في هذا اللقاء لم

(١) نور الثقلين ٣: ٤٥٦ عن نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام.

(٢) المصدر في الفقيه في باب معرفة الكبائر التي أوعد الله عزّ وجلّ عليها النار عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام، بعد أن ذكر الشرك بالله وبعده اليأس من روح الله لأن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

يطلبوا إليه تسريحاً لبنيامين لا ظاهراً ولا تصريحاً، وإنما المطلوب أولاً وأخيراً إيفاء الكيل ببضاعة مزجاة وتصدقاً زائداً على الإيفاء، اللّهم إلّا أن تشمله ﴿وَتَصَدَّقْ﴾ وليس بذلك البعيد، ولكنه - إذاً - مطلوب ضمني في آخر المطاف، وليكن أولاً لأنه أولى من إيفاء الكيل.

وعلّهم لأنهم في هذه الجيئة الفجيعة لا يرجون من العَزيز تعزيزهم لسابق السرقة من أحدهم فيما يزعمون، لا ينطلق ألسنتهم لإطلاق سراح أخيهم صراحاً، فعلّهم يجربونه بتقديم بيان حالهم وأهليهم، فإذا عرفوا انعطافاً طلبوا إليه طلبهم الأصيل، وقد تطلبوه في ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾.

دخلوا عليه للمرة الثالثة، ولكنها مُرّة فالسَة كالسة، وقد أضرت بهم المجاعة، ومستهم وأهليهم الضر والضراوة، ونفدت منهم كل بضاعة إلّا مزجاة مقلعة، يدخلون منكسرين منحسرين ما لم يعهد لهم من ذي قبل وعند ذلك تمت كلمة الربوبية: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ في واجهته أمام الإخوة حيث ذلوا وانكسروا أمامه.

و﴿بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ كأنها الكاسدة غير الطائلة من متاع قليل رثٍّ، لأنها البقية الباقية مما يملكون، حيث المزجاة من الإزجاء الإقلاع قلة إلى قلة كما أن ﴿ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾[1] فالسحاب مزجاة مقلعة من مختلف الأبخرة الجوية، قليلة قليلة، فإذا ألفت كثرت، مهما بان البون بين مزجاة ومزجاة! فبضاعة مزجاة من هؤلاء الذين مسهم وأهلهم الضُّرّ ليست إلّا ما يجمع منهم كأخريات البضاعات المتبقيَّة لديهم حيث قلّت في مس الضر، ورثّت ببأسه، فلم تحصل في هذه المزجاة إلّا قلة في كمٍّ وقلة في كيف، فهم حين لم يكونوا واثقين أن يُعطَوا كيلاً ببضاعة مُغلاة لسابقهم السوء، يتطلبّون إليه أن يوفي لهم الكيل ببضاعة مزجاة، ثم ويتصدق عليهم، حيث

(١) سورة النور، الآية: ٤٣.

لمسوا فيه سابغ العطف من إيفاء كيل وإنزال خير، حين كانت بضاعتهم وافية، فكيف إذا كانت تافهة مزجاة، فعلّه - إذاً - يرحمهم ثم ويتصدق عليهم.

هنا - وقد بلغ بهم أمرهم الإمر إلى ذلك الحد الحادِّ من استرحام في تضيّق وانكسار وانحسار - لم يملك يوسف نفسه أن يمضي في تمثيل دور العزيز، فقد انتهت الدروس واندرست عليهم معالم بيت النبوة في ذلك الشخوص كلَّ دروس، وحان حين المفاجأة العظمى التي لا تخطر لهم ببال.. فهنا يتلمع في لمحة لائحة كأنه هو يوسف:

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾:

يرنّ في آذانهم رنّة تجرسهم في أعماقهم، تذكرة لها نبراتها على عُلاتها في يوسف وأخيه إذ هم جاهلون، فهل إنه هو يوسف حيث يخبرنا بما فعلنا بيوسف وأخيه؟ وهو في سمت العزيز وأبهته! وتراهم فعلوا بيوسف وأخيه ما فعلوه وهم جاهلون يوسف وأخاه، أم جاهلون نكر ما فعلوه؟ فهم إذاً معذورون؟ كلّا، حيث الجهل هنا التجاهل على عمد، فـ «كل ذنب عمله العبد وإن كان عالماً فهو جاهل حين خاطر بنفسه في معصية ربه»[(١)] و﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ تنديد بهم فيما جهلوا ثم الآن علموا بما فعلوا، علماً بمدى العصيان في ذلك الطغيان حيث وقعوا في فخه الآن فكيف بما يأتيهم بعد الآن؟! وفي ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ تبرير لموقفهم الآن أنهم ليسوا بجاهلين، فإن جهالة الصبا والغرور مضت والآن وقت النُّبهة والعلم فالتوبة عما كان.

ثم وفي ذلك تصديق لما أوحي إليه من قبل: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم

---

(١) مجمع البيان وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: كلّ ذنب... فقد حكى الله سبحانه قول يوسف لإخوته: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يُوسُف: ٨٩] فنسبهم إلى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله.

بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[١] وقد نبههم الآن بما كان وهم لا يشعرون أنك لأنت يوسف حتى شعروا بذلك الإنباء ثم علموا بعدما سألوا:

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

سؤال استفهام بكل استعجاب حيث يرونهم أمام يوسف - الصغير الطريد الشريد - صغاراً وصغاراً، وهو الآن ذلك الرجل الكبير الكبير، فأين ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾[٢]؟! وهنالك لمعة التصديق أننا لمّا نفاجأ بلقاء القائم المهدي روحي وأرواح العالمين لتراب مقدمه الفداء نقول لقد رأيناه مراراً وتكراراً والآن كما كان، فـ «في القائم عليه السلام شبهٌ من يوسف في غيبته ومعرفته، وكما في متظافر الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الكرام عليهم السلام»[٣].

وأكرم بيوسف وأعظم بعطفه على إخوته حين يعرِّف بنفسه وأخيه إخوته، دون أن يعلنهم بما فعلوه إلّا في إجمال مضى، وليكون ذريعة منبهة لتعريفه،

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٥.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٩.

(٣) نور الثقلين ٢: ٤٥٩ ج ١٧٧ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سدير قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: في القائم شبية من يوسف عليه السلام قلت: كأنك تذكر خبره أو غيبته؟ فقال لي: ما تنكر من هذه الأمة أشباه الخنازير؟ إن إخوة يوسف كانوا أسباطاً وأولاد أنبياء تاجروا يوسف وبايعوه وهم إخوته وهو أخوهم فلم يعرفوه حتى قال لهم: أنا يوسف، فما تنكر هذه الأمة أن يكون الله عز وجل في وقت من الأوقات يريد أن يبين حجته، لقد كان بينه وبين والده مسيرة ثمانية عشر يوماً فلو أراد الله عز وجل أن يعرفه مكانه لقدر على ذلك والله لقد سار يعقوب وولده عند البشارة مسيرة تسعة أيام من بدوهم إلى مصر فما تنكر هذه الأمة أن يكون الله عز وجل يفعل بحجته ما فعل بيوسف أن يسير في أسواقهم ويطأ بسطهم وهم لا يعرفونه حتى يأذن الله عز وجل أن يعرفهم نفسه كما أذن ليوسف حتى قال لهم: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون. قالوا أنك لأنت يوسف؟ قال أنا يوسف وهذا أخي. . .» ورواه مثله عن سدير عنه عليه السلام في الكافي باختلاف يسير.

وإنما يذكرهم بما منّ الله عليه وعلى أخيه بما أحسنا في صبرهم وتقواهم، وفيه لمحة بتنديدهم حيث أساؤوا بما طغوا إذ لم يصبروا ولم يتقوا.

وترى ما هو موقف ﴿وَهَٰذَآ أَخِى﴾ تعريفاً بمن يعرفونه حيث الفصل قصير وهم عارفون أنه عنده؟. علّه إلحاق قاصد بنفسه لكي يشملهما معاً كل ما يأتي به من تبجيل وتجليل، وأن دورهما واحد في البراءة، وما حسدوا وما من الله عليهما، ولكي يزيدوا به معرفة كما عرفوا يوسف بمحتده.

والتأكيدات الثلاثة في سؤالهم: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ تكشف عن مدى حيرتهم في أبعاد بعيدة، ثم الجواب دون تأكيد ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ لعدم الحاجة فيه، حيث العزيز أعز من أن يكذب، ثم لا يحتار في أمر نفسه حتى يؤكِّد.

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٩٢)﴾:

وذلك منهم اعتراف بفضيلته ورذيلتهم حيث آثره الله عليهم وأذلّهم أمامه خلاف ما كانوا يظنون.

وترى هل يأخذه فرح الإيثار وترحه باستكبار، كلّا ما ذلك الظن بذلك العبد الصالح، فإنه يقابلهم بكل تكريم وإكبار، ناجحاً في ابتلائه بالنعمة كما نجح في ابتلائه بالنقمة، وهذه هي شيمة الرجال الكرماء وكما فعله الرسول الأقدس ﷺ في فتح مكة حيث «صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل مكة ماذا تظنون؟ ماذا تقولون؟ قالوا نظن خيراً ونقول خيراً ابن عم كريم قد قدرت، قال فإني أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1] «... فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام»[2].

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٤ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة صعد المنبر...

(٢) المصدر أخرج البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة طاف =

ذلك مهما كان البون بين يوسف ومحمد كما البون بين إخوته وأهل مكة، ولكن الكرم نفس الكرم وإن كان درجات.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ والثرب شحمة رقيقة هي غاشية الكرش، والتثريب هو إزالة هذه الغاشية فيبين الكرش، فهو هنا التقريع والتعييب بالذنب، وكما يروى عن الرسول ﷺ: «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ولا يثربها» فإن في تثريبها مع جلدها اعتداءً عليها بأكثر من ذنبها، وفي تأنيبها دون جلدها تبديل حكم الله إلى غيره! بذلك الصفح ينهي موقفهم المخجل الشائن وكأنه هو الذي يعتذر منهم، فقد انتهى أمري على إمره ولم تعد له جذور، وإذا كان من حقي اعتداءً بالمثل فأنا أرجِّح العفو ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾(١).

ذلك خطأكم عندي و﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ وأما عند الله فقد ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ لأني قد غفرت لكم واستغفرت وإذا أنا - العبد المربوب - أرحمكم وأغفر لكم، فبأن يرحمكم الله ويغفر أحرى وأحق ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لا سيما وأن غضبه لم يكن إلا لاغتضابي باغتصابي عن أبي! ثم ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قد تجمع بين الإخبار والإنشاء وما أحلاه جمعاً وما أجمعه حلواً.

وهكذا يكون حق الناس، أن الله لا يغفر لمن ضيّعه إلّا أن يغفره صاحب الحق، وما أحسنه إذا كان الغافر له هو المستغفر له بجنب استغفار الخاطئ لنفسه بعد اعترافه بالخطيئة.

= بالبيت ركعتين وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال ماذا تقولون وماذا تظنون قالوا نقول ابن أخ وابن عم حليم رحيم فقال ﷺ أقول كما قال يوسف: لا تثريب.. فخرجوا.. في نور الثقلين ٢: ٤٦٠ ح ١٨٠ في الكافي بإسناده عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام لما قدم رسول الله ﷺ مكة يوم افتتحها فتح باب الكعبة فأمر بصور في الكعبة فطمست فأخذ بعضادتي الباب فقال: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ماذا تقولون...

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ مني كصاحب الحق الأصيل، ولا ممن سواي ويأحرى حيث الدخيل زائل بزوال الأصيل ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ مهما كان عليكم قبل اليوم تثريب وتخجيل كما كان من يعقوب من ذي قبل بحق القول: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ...﴾[1].

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[2] وكما كان مني أنا لمّا اتهمتموني وأخي بالسرقة: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[3].

فمهما كان قبل اليوم عليكم تثريب مني ومن أبينا، ولكنا اليوم ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ فيه إذ قد مضى دور الامتحان والامتهان، وحان حين اللطف والحنان، منا ومن الرب الملك المنان.

فـ ﴿الْيَوْمَ﴾ إنما هو ظرف لـ ﴿لَا تَثْرِيبَ...﴾ دون ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فإن قضيته أدبياً تأخيره: «يغفر الله لكم اليوم» ليكون نصاً لمظروفه دون تردد، ولأن غفر الله لهم ما تمت شروطه بعدُ ولمّا يغفرهم يعقوب ويستغفر لهم! وكما طلبوا إليه ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾[4]، ومن ثم فذلك من سوء الأدب والجرأة على الرب أن يقال عنه «يغفر الله لكم اليوم» ولا يملك أحد غفره ولا وقته حين يغفر، وإنما على العبد أن يستغفر دون تحديد لأصل الغفر أو وقته!.

وإذا كان ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فما لهم يطلبون إلى يعقوب أن يستغفر لهم وهو يعدهم، وهذا تكذيب منهم ومن يعقوب لـ ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾!.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٦٤.
(٢) سورة يوسف، الآية: ١٨.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٧٧.
(٤) سورة يوسف، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

وإنها لضابطة أخلاقية ضابطة على الإنسان زهوة القدرة والرئاسة، وزهرة النصرة في المعركة، وقد ازدهى يوسف وازدهر حيث أصبح عزيزاً في بلد الفراعنة، فجاءت إخوته متصاغرين أمامه، معتذرين، ولكنه ينهي أمرهم ويعذرهم لا في حقه فحسب: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ بل وتطلباً من الله أن يغفر لهم: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ثم البقية الباقية هي غفرة واستغفارة من أبيهم وقد فعل: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾.

ومن ثم لا نسمع من يوسف صغيرة بعد ولا كبيرة بحق الإخوة، إلا محاولة مسرعة في تفريج الكربة عن أبيه ببشارة عملية وقولية.



﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾:

أترى ما هو ﴿بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾؟ أهو الذي جاؤوا عليه بدم كذب؟ وقد جاؤوا عليه وما رجعوه لأنهم ما عرفوه حتى عرّفهم نفسه! إذاً فهو قميص آخر علّه كان شعاره، وهم جاؤوا على قميصه الدثار بدم كذب!

ومن ثم ترى كيف يجد ريح يوسف من قميصه لمّا فصلت العير، وبينهما زهاء ثمانين فرسخاً؟ وكيف يرتد بصيراً بعدما كان ضريراً لمّا يلقى على وجهه؟ إنهما من عجاب أمر النبيين الكريمين ولا عجب، فإنهما اتقيا الله وصبرا لله وإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

﴿بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ في هذه الإضافة المشرِّفة دليل على أن القميص اكتسب منه ما اكتسب، مهما كان له سابق فضل وسابغة أن نزل به جبرئيل من الجنة لإبراهيم فكان لابسه حين ألقي في النار، ثم انتقل إلى إسحاق فيعقوب فيوسف، ولكن الجنة ليست بأشرف من هؤلاء النبيين بل هم أشرف وأعلى، وأعرف منها وأنبى! فكلٌّ بنفسه جنة لبس قميص الجنة، فكان جنة عن نار إبراهيم، وعن جب يوسف، وتوارثه النبيون حتى وصل إلى خاتم النبيين ﷺ ومنه إلى أوصيائه المعصومين، وهو الآن عند القائم المهدي من آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[١].

ولقد وجد الرسول الأقدس ﷺ ريح أويس القرني على حد

---

(١) نور الثقلين ٢: ٤٦٣ ج ١٨٧ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى مفضل بن عمر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: أتدري ما كان قميص يوسف؟ قال: قلت لا - قال: إن إبراهيم لما أوقدت له النار نزل إليه جبرئيل عليه السلام بالقميص وألبسه إياه فلم يضر معه حر ولا برد فلما حضرته الوفاة جعله في تميمة وعلقه على إسحاق وعلقه إسحاق على يعقوب فلما ولد له يوسف علقه عليه وكان في عضده حتى كان من أمره ما كان فلما أخرجه يوسف بمصر من التميمة وجد يعقوب ريحه وهو قوله عز وجل حكاية عنه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤] فهو ذلك القميص الذي أنزل من الجنة، قلت: جعلت فداك فإلى من صار هذا القميص؟ قال: إلى أهله ثم يكون مع قائمنا إذا خرج، ثم قال: كلّ نبي ورث علماً أو غيره فقد انتهى إلى محمد وآله.

قوله ﷺ: «تفوح رائحة الجنة من قبل قرن واشوقاه إليك يا أويس القرني ألا ومن لقيه فليقرئه مني السلام...»[١]

هذا ولمّا رآه الرسول ﷺ ولمّا رأى هو الرسول ﷺ. فإنما الأصل رؤية المعرفة الروحية.

هذان نبيّان يشمان ريح محبوب من مسافة بعيدة، وقد يشمها بعض المؤمنين وليس بذلك الغريب من فضل الله لمن يتقي الله[٢].

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ إلى أبي ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ كما كان قبل أن يصير ضريراً ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بأبوينا وسائر أهليكم أزواجاً وبنين وبنات وأحفاداً لمكان ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ وطبعاً من حضرة الصديق فإنه الفصل الأوّل للعير، دون مفارق الطرق في أرض كنعان فإن عبارته: «وصلت» دون: ﴿فَصَلَتِ﴾ ولماذا نفصل نص الخارقة الإلهية عن نفسها، وصلاً بظاهرة عادية، وما ذلك إلّا تحويرٌ لا يبقي دلالة قائمة لنص أو ظاهر.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ وبينهما وبين يعقوب ليال عشر ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن تبقّى عنده من أبنائه، مما يدل على أنهم ما ذهبوا ليتحسسوا عن يوسف إلّا نفرٌ

(١) سفينة البحار ١: ٥٣ روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: تفوح... فقيل يا رسول الله ﷺ ومن أويس القرني؟ قال: إن غاب عنكم لم تفتقدوه وإن ظهر لكم لم تكترثوا به يدخل الجنة في شفاعته مثل ربيعة ومضر، يؤمن بي ولا يراني ويقاتل بين يدي خليفتي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، في صفين
فيه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه أخبره النبي ﷺ أنه يدرك رجلاً من أمته يقال له اويس القرني يكون من حزب الله يموت على الشهادة يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر.
أقول: أنه أحد الزهاد الثمانية من أخص جواري أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) قال لي صديق تقي من أهل المعرفة إن فلاناً من أهل الله أتاني إلى منزلي في المشهد المقدس الرضوي في بعض سفراتي فاستغربت ذلك وقلت له من دلّك على بيتي ولم أدل عليه أحداً؟ قال: دلتني ريحك اشتممت فشممت ريحك فأتيتك!

منهم قال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ كما فندتموني من قبل: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(١).

والتفنيد هو نسبة الإنسان إلى الفند وهو ضعف الرأي، وقد نسبوه إليه من ذي قبل وفيما هاهنا مزيد:

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾:

حيث زادوا على القديم ﴿تَٱللَّهِ﴾ لأنه زاد في آيات الشغف من حبّه، ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ مما يدل على خارقة فيه إلهية، رغم أن يوسف - بزعمهم - أدرج إدراج الرياح، فأين يوسف حتى يوجد ريحه من بعيد أو قريب، لا سيما وأن أبناءه الحضور ليس لهم علم ولا احتمال بحياة يوسف، لذلك جن جنونهم بحقه ونسبوه إلى ضلال مبين في وجهه، بدل أن يداروه ويماروه علّه يأنس - في زعمهم - بظنه، وتراهم كفروا مرة بعد أخرى بنسبة الضلال المبين إلى أبيهم النبي الكريم؟ أنها إن كانت نسبة الضلالة في الدين كانت خروجاً وارتداداً عن الدين، ولكنها - بمناسبة الحال - ليست إلّا ضلالاً في حب يوسف وأخيه، إذ كانوا يرونهم أنفسهم - وهم عصبة - أحق من يوسف وأخيه في ذلك الحب، فظنوا - بجهلهم - أن أباهم ضال عن الحكمة الأبوية بين ولده تقديماً لمفضولهم على أفاضلهم أم ترجيحاً دون مرجّح، دون علم بأن ذلك أيضاً كفر بالوحي، إذ لا يقول النبي ولا يفعل إلّا بوحي! إلّا أن ذلك أيضاً خروج عن الإيمان بهذه الرسالة السامية كما يحق، فأصبحوا - على حدّ تعبير الإمام الصادق عليه السلام - «ولا بررة أتقياء»(٢) بل هم فسقة أطغياء، وكما يدل على ذلك استغفار يوسف وأبيه لهم، والمرتد عن فطرة لا غفران له إلّا قتلاً.

(١) سورة يوسف، الآية: ٨.

(٢) في تفسير العياشي عن نشيط بن صالح البجلي قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام أكان إخوة =

مضت أيام السفرة الراجعة، ووقعت مفاجأة بعيدة فوق المفاجأة، وليعلموا أن وعد الله حق وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، ولقد كان ذلك الريح الذي وجده من رَوح الله الذي أمرهم برجائه:

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

وعلّ البشير هو الكبير بينهم وله سابقة سابغة من بينهم حيث دلهم على ﴿أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾[١] دون أن يلقوه فيه أو يلغوه يذهب هباءً، وأخيراً قال لهم ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾[٢] فبطبيعة الحال ينتخبه الصديق لهذه البشارة السارة وكما في رواية.

وهنا نرى يعقوب يقول لهم بديلاً عن أي تنديد أو تثريب: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف، ووجدان ريحه؟ تنبيهاً لهم بموقفه من الله فلا ضلال فيه أياً كان وأيان.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾:

﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ عيٌّ في الاستغفار لعظم الذنوب، وأنها أضرت بحقه ومست من كرامته، فليكن هو الذي يستغفر لهم بعدما استغفروا لأنفسهم، ولأنه نبي مستجاب الدعوة وكما في نبينا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟

= يوسف عليه السلام أنبياء؟ قال: لا ولا بررة أتقياء، كيف وهم يقولون لأبيهم يعقوب: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يُوسُف: ٩٥].
فيه عن سليمان بن عبد الله الطلحي قال لأبي عبد الله عليه السلام ما حال بني يعقوب هل خرجوا من الايمان؟ فقال: نعم قلت: فما تقول في آدم؟ قال: دع آدم.

(١) سورة يوسف، الآية: ١٥.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٠.

أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[١].

ومن آداب الاستغفار الاعتراف بالخطإ وقد اعترفوا، وترى كيف يسوّف أبوهم الاستغفار لهم؟ وخير البرّ ما كان عاجله، وهو وعدهم آجله!.

ولكن ليس عاجل الخير دوماً خيراً من آجله، حيث الخير الآجل يفوق عاجله، فالاستغفار في نفسه خير وعاجله خير على خير، إلّا أنه خير منه في الآجل المستجاب، وكما يروى عن النبي ﷺ «أخرهم إلى السحر لأن دعاء السحر مستجاب»[٢] أو «حتى تأتي ليلة الجمعة»[٣] أو حتى نجتمع

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٢) الدر المنثور ٤: ٣٦ - أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ لم أخر يعقوب بنيه في الاستغفار؟ قال: أخرهم..
ورواه مثله في الكافي عن المفضل بن أبي قرة عن أبي عبد الله والفقيه عن محمد بن مسلم عنه عليه السلام والعياشي مرسلاً عنه عليه السلام وزاد: قال يا رب إنما ذنبهم فيما بيني وبينهم فأوحى الله أني قد غفرت لهم.

(٣) أخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال: جاء علي بن أبي طالب إلى النبي ﷺ فقال: بأبي وأمي تفلت هذا القرآن من صدري فما أجدني أقدر عليه فقال رسول الله ﷺ: يا أبا الحسن أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن وينفع الله بهن من علمه ويثبت ما تعلمته في صدرك؟ قال: أجل يا رسول الله ﷺ فعلمني - قال ﷺ: إذا كانت ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم ثلث الليل الأخير فإنه ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقد قال أخي يعقوب لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يُوسُف: ٩٨] يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة، فإن لم تستطع فقم في وسطها فإن لم تستطع فقم في أولها فصلّ أربع ركعات تقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسورة يس وفي الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وحم الدخان وفي الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب والم تنزيل السجدة وفي الركعة الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل فإذا فرغت من التشهد فاحمد الله وأحسن الثناء مع الله وصلّ علي وعلى سائر النبيين واستغفر للمؤمنين والمؤمنات ولإخوانك الذين سبقوك بالايمان ثم قل في آخر ذلك: اللهم ارحمني بترك المعاصي أبداً ما أبقيتني وارحمني أن أتكلف ما لا يعنيني وارزقني حسن النظر فيما يرضيك عني اللهم بديع السماوات والأرض ذا الجلال والإكرام=

بيوسف لأنه صاحب الحق الأصيل[(١)]، لا «لأن قلب الشاب أرق من قلب الشيخ»[(٢)]!.

أم ليختبرهم هل استغفروا خالصاً وتابوا توبة نصوحاً حتى يستغفر لهم، وكلٌّ صالح لتأجيل الاستغفار والجمع أجمل.

وما أجمل تعبير يوسف حيث استغفر لهم: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ﴾ دون «غفر الله» فإنه في وجه الإخبار يضرب إلى المستقبل حين لُقيا أبيه، لأنه أيضاً صاحب حق، وهو في وجه الإنشاء مشروط بشروطه ومنها أن يغفر الأب ويستغفر، والصيغة العاجلة للاستغفار هي «غفر الله لكم» والشاملة لها وللآجلة هي: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ﴾.

ف ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓۖ﴾ تسوِّف استغفاره لهم لتحقق الغفر تماماً، وأما هو فقد غفرهم حالاً دون نظرة الاستقبال، وهنالك يتم الاستغفار بشروطه وقتاً وحقاً وحقيقة.

= والعزة التي لا ترام اسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني وارزقني أن أتلوه على النحو الذي يرضيك عني اللهم بديع السماوات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام أسألك يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تنور بكتابك بصري وأن تطلق به لساني وأن تفرج به عن قلبي وأن تشرح به صدري وأن تغسل به بدني فإنه لا يعينني على الحق غيرك ولا يؤتيه إلا أنت ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم، يا أبا الحسن تفعل ذلك ثلاث جمع أو خمساً أو سبعاً بإذن الله تعالى والذي بعثني بالحق ما أخطأ مؤمناً قط..

(١) المصدر ٤٦٥ ج ١٩٦ في العلل بإسناده إلى إسماعيل بن الفضل الهاشمي قال قلت لجعفر بن محمد عليه السلام: أخبرني عن يعقوب عليه السلام لما قال له بنوه: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا...﴾ [يُوسُف: ٩٧] فأخر الاستغفار لهم ويوسف عليه السلام لما قالوا له: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾ [يوسف: ٩١-٩٢] قال: لأن قلب الشاب أرق من قلب الشيخ، وكان جناية ولد يعقوب على يوسف وجنايتهم على يعقوب إنما كانت بجنايتهم على يوسف فبادر يوسف إلى العفو عن حقه وأخر يعقوب العفو لأن عفوه إنما كان عن حق غيره فأخرهم إلى السحر ليلة الجمعة.

(٢) المصدر السابق.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾:

وتراهم ﴿دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ في قصره؟ فماذا يعني - إذاً - بقوله ﴿ٱدْخُلُوا مِصْرَ...﴾ وهم داخلون، فإن قصره في أدخل دواخل البلد وأفضله؟ ﴿ٱدْخُلُوا﴾ لمحة لامعة أنه استقبلهم إلى خارج مصر و﴿دَخَلُوا﴾ توحي بأنه أعد لهم خارجه بيتاً أم فسفاطاً يليق بنزولهم.

ويا له من مشهد لطيف عطيف في اللّقيا الأولى بعد كرور الأعوام بامتحانات وامتهانات، وبعد الأشواق المضنية والأحزان الكامدة الهامدة، واللهوف الظامئة، حافل بخنقات وانفعالات، وفرحات ودموعات.

ذلك المشهد الختامي السامي، الموصول بالمطلع الدامي، مما يحير العقول ويذكر أولي الألباب.

هناك من يوسف خطوات أربع رائعات بين فعلة وقالة، كلها تكريمات لهم ولا سيما أبويه، وبينهما فعلة منهم لديه.

١ - ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ ضمهما إليه يُطمئنهما بمأواهم لديه وعلى يمينه، حيث الإيواء ضم إلى مأوى وملجأ ومن الدليل عليه:

٢ - ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ دخولاً إن شاء الله، وآمنين إن شاء الله، فإن في سماح الدخول إلى بلد الفراعنة - فضلاً عن الأمن فيه - ما فيه، ولذلك يصدر أمره كملك للمملكة إزاحة لكل الحواجز وإراحة لخواطر الوافدين ليأمنوا كل الأمن منذ وفودهم، وأنه ليست زيارة مؤقتة

بحاجة إلى تأشيرة خاصة، فإنما هو الوفود الخلود مدى الحياة ما دام لملكه وجود.

٣ - ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فعلة ثالثة هي أرفع من الأوليين حيث رفعهما إلى عرشه ما لم تسبق له سابقة في زمرة الملوك، وما أدري هل ارتفع هو على عرشه لما رفعهما عليه أم بقي تحت العرش؟ لا دلالة هنا ولا تلميحة نفياً وإثباتاً، ثم العرش بطبيعة الحال هو عرش الملك الكائن مكان القصر دون خارج البلد حيث استقبلهم.

٤ - ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾.

﴿خَرُّوا۟﴾ جمعاً تعنيهما مع إخوته وكما رأى في المنام ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾[1] وهنا يقول بعد خرور السجدة ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ...﴾.

أتراهم - بمن فيهم من أبيه وأمه - سجدوا له سجودهم للّه؟ وذلك من المحرمات القطعية الأولية في كافة الشرائع الإلهية!

أم سجدوا له كعادة عائدة إلى سنة الفراعنة حيث كانوا يسجدون لهم؟ وليس يوسف فرعوناً يسجد له كما لفرعون! وليس نبي الله يعقوب ممن يساير المشركين في الطقوس الشركية!

أم سجدوا له احتراماً لديه دون عبودية وعبادة؟ وسجدة الاحترام لغير الله اخترام لساحة الله وتسوية بالله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[2]! ثم الوالد النبي كيف يحترم ولده لحد السجود،

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

ولو جاز أن يسجد أحد لأحد لكان يوسف هو الذي يسجد لأبويه لعظم حرمة الوالدين!

أم كان يوسف قبلة لهم في ذلك السجود دون عبودية ولا احترام؟ وسجود القبلة سجود إليها، لا سجود لها وهنا ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾! ثم القبلة توقيفية وليست فوضى جزاف، ولكل شرعة قبلة يشرعها الله! أم - وعلى حد المروي عن الإمام الرضا عليه السلام - «أما سجود يعقوب وولده فإنه لم يكن ليوسف وإنما كان من يعقوب وولده طاعة لله وتحية ليوسف كما كان السجود من الملائكة لآدم ولم يكن لآدم وإنما كان منهم ذلك طاعة لله وتحية لآدم، فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً لله لاجتماع شملهم ألم تر أنه يقول في شكر ذلك الوقت: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ...﴾؟[1].

فكما أن آدم كان مسجوداً له شكراً لله، لا مسجوداً له عبادة له واحتراماً كما لله، كذلك يوسف كان مسجوداً له شكراً دون عبادة أو احترام، لا سيما

(١) نور الثقلين ٣: ٤٦٨ ج ٢٠٩ - القمي حدثني محمد بن عيسى أن يحيى بن أكثم سأل موسى ابن محمد بن علي عن مسائل فعرضها على أبي الحسن عليه السلام وكان أحدها: أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] سجد يعقوب وولده ليوسف وهم أنبياء؟ فأجاب أبو الحسن: أما سجود... أقول «وهم أنبياء» يؤول إلى يوسف ويعقوب دونهم أم يطرح كما يطرح ذيل الحديث: «فنزل عليه جبرئيل فقال له: يا يوسف أخرج يدك فأخرجها فخرج بين أصابعه نور فقال يوسف: ما هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذه النبوة أخرجها الله من صلبك لأنك لم تقم إلى أبيك فحط الله نوره ومحى النبوة من صلبه وجعلها في ولد لاوي أخي يوسف وذلك لأنهم لما أرادوا قتل يوسف قال: لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجب» فشكره الله على ذلك لأنهم لما أرادوا أن يرجعوا إلى أبيهم من مصر وقد حبس يوسف أخاه قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي...﴾ [يوسف: ٨٠] فشكر الله له ذلك وكانوا أنبياء بني إسرائيل من ولد لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وكان موسى من ولده وهو موسى بن عمران بن يهصر بن واهث بن لاوي.

ثم أقول وفقاً لصدر الحديث يروي القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما دخلوا عليه سجدوا شكراً لله وحده حين نظروا إليه وكان ذلك السجود لله وفي تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: كان سجودهم ذلك عبادة لله.

إذا كان ساجداً معهم! أترى - بعد - أن يوسف انتقص من حرمة أبويه أن «دخله عز الملك فلم ينزل إليه» حتى يجزي بانقطاع النبوة عن نسله؟[١] وقد استقبلهما إلى خارج مصر وقال ما قال وفعل ما فعل بحرمتهم وكرامتهم! أو تراه لم يترجل لأبيه حين لقياه وقد ترجل له أبوه[٢]؟ أن ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[٣] و﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ تركل وترجل ذلك الترجل المدسوس الذي يمس من كرامة النبوة! ففي ذلك الإيواء كل مراحل التكريم والتعظيم، ومن ثم ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تكملة له وتتميم! فكيف ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾[٤]؟! ولم تزدده عزة الملك إلّا تواضعاً وتواطوءاً.

ولئن دخله عز الملك - لا سمح الله - فلم ينزل إليه ولم يترجل فهل

(١) نور الثقلين: ٢: ٤٦٦ ح ٢٠١ في أصول الكافي عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن مروك بن عبيد عمن حدثه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن يوسف لما قدم عليه الشيخ يعقوب عليه السلام دخله عز الملك فلم ينزل إليه فهبط جبرئيل عليه السلام فقال: يا يوسف ابسط راحتك فخرج منها نور ساطع فصار في جو السماء فقال يوسف: يا جبريل! ما هذا النور الذي خرج من راحتي؟ فقال: نزعت النبوة من عقبك عقوبة لما لم تنزل إلى الشيخ يعقوب فلا يكون من عقبك نبي.

(٢) المصدر ح ٢٠٣ في كتاب علل الشرائع بإسناده إلى يعقوب بن يزيد عن غير واحد رفعوه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: لما تلقى يوسف يعقوب ترجل له يعقوب ولم يترجل له يوسف فلم ينفصلا من العناق حتى أتاه جبرئيل فقال له: يا يوسف ترجل لك الصديق ولم تترجل له ابسط يدك...

وبإسناده إلى هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما أقبل يعقوب إلى مصر خرج يوسف ليتقبله فلما رآه يوسف همّ بأن يترجل ليعقوب ثم نظر إلى ما هو فيه من الملك فلم يفعل فلما سلم على يعقوب نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال له: يا يوسف إن الله تبارك وتعالى يقول لك: ما منعك أن تنزل إلى عبدي الصالح ما أنت فيه؟ ابسط يدك... فقال: ما هذا يا جبرئيل؟ فقال: إنه لا يخرج من صلبك نبي أبداً عقوبة لك بما صنعت بيعقوب إذ لم تنزل إليه.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠٦.

يستحق بذلك انقطاع النبوة عن نسله؟ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1] لو كان هناك وزر! وهل كان وزره المفترى أوزر من وزر لاوي أخيه الأكبر وقد شاركهم في استلابه عن أبيه، وأفجعه طيلة سنين حتى ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم واحدودب ظهره فهو هضيم؟ حيث يجعل الله النبوة في نسله شكراً لما نهاهم عن قتله، ولأنه لم يبرح الأرض حتى يأذن له أبوه! ولئن كان مشكوراً - وهو مشكور - كان ذلك على هامش الحفاظ على حياة يوسف، واحترام أبيه بعد اخترامه، فكيف - إذاً - يشكر هو دون يوسف، فتقطع النبوة من نسله وتوضع في نسل لاوي وكيف يفترى على الصديق أنه ترك الإحسان إلى أبويه أو أهانهما، تركاً لأعم الواجبات وأهمها أمام الوالدين! ثم انتشال النبوة من صلب دون صلب لا يفضّل الأول تنديداً بالآخر، فهل كان في انتشال الإمامة من صلب الحسين عليه السلام تفضيلاً له على أخيه الحسن، وتنديداً بالحسن «والحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا».

وبعد ذلك كله كيف تنتزع النبوة المقدرة في نسل عنه وهو تخطئة في التكوين والتشريع معاً، فهلا علم الله ذلك من يوسف فقدّر النبوة في نسله، ثم لما حصل ما حصل فصلها عن نسله؟ ثم النسل ليس إلا في الصلب فكيف سلبه جبرئيل من راحته؟! إن هذه إلا خرافات إسرائيلية اختلقت في أحاديثنا بأيدي الجعل والتجديف، فليعرض عرض الحائط لمخالفتها لكتاب الله وضرورات من دين الله.

﴿... وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا...﴾ و﴿هَٰذَا﴾ تعني كل ما حصل من اجتباء واصطفاء ومنه ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ ثم يذكر قسماً من فواضله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ وهذا دليل

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

براءته عن فرية إنساء الشيطان إياه ذكر ربه، فإن خروجه من السجن كان من نتائج ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ...﴾ وليس إحسانه تعالى به مجرد إخراجه من السجن وإلا كان إدخاله فيه إساءة وهو الذي طلبه فاستجيب له: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ... فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ...﴾[1] وإنما هو إحسان إذ أخرجه إخراجاً حسناً تصحبه براءته مما أدخله السجن، فلم يقل «أحسن بي أن أخرجني» بل ﴿إِذْ أَخْرَجَنِى﴾ إحساناً في كيفية الإخراج دون أصله، وكما أحسن إليه إذ دخل السجن حيث صرف به عنه كيدهن.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ حيث كانوا يسكنون البدو فأسكنهم يوسف في مصر ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وذلك الذيل ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يعطف بالقصص إلى أوله إذ قاله يعقوب حين أوّل رؤياه ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ختام المسك كبداية.

وما ألطفه تعبيراً عما حسده إخوته وأجرموا بحقه ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ﴾ فالشيطان هو الشرير الأصيل في ذلك المسرح، والنزغ هو الدخول في أمر لإفساده، فقد دخِل الشيطان فيما حسدوا فدخل حتى عمّقه إذ حمّقهم ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ﴾[2].

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾:

وهذه شيمة الصالحين الذين لا تأخذهم العزة بالإثم، فلا ينسون في ملكهم وعزتهم ربّهم، ولا تأخذهم زهوة الملك وزهرته، فكيف يفترى على الصديق أن دخله عز الملك فلم ينزل إلى أبيه؟! وصاحب الملك المسلم،

(١) سورة يوسف، الآيتان: ٣٣، ٣٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠.

المعترف برحمة ربه، يطلب الزيادة في ملكه، ولكن هذا الملك الصدّيق بعدما يعترف بالعطية الإلهية كنعمة دنيوية:

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ وبأحرى هي نعم العلم النبوة: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ عطفاً بهما إلى عطفه ولطفه لأنه ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ واعترافاً بولايته المطلقة عليه: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ فأنت المدبر أمري فيهما، ليس لي إلا ما دبرت وقدرت، دون أن أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فأنت أنت الولي لا ولي سواك، وأنا العبد الموّلى لك لا أعبد سواك.

بعد ذلك كله لا يطلب منه إلا إسلاماً في الدنيا وصلاحاً في الآخرة: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ والتوفي هو الأخذ وافياً على أية حال، في الدنيا وحين الموت وفي الآخرة حال كوني «مسلماً» كما طلبه أبي إبراهيم:

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[1] وأنا من ذريته، وذلك الإسلام هو مرتبة بعد كمال الإيمان، دونما كان قبل الإيمان أو معه، فإنما الإسلام الخالص الناصع بقمته العليا، فخذني وافياً بإسلام ﴿وَأَلْحِقْنِي﴾ هنا وفي الآخرة ﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهذا من غاية التواضع عند الله أن صالحاً كالصديق يطلب منه إلحاقه بالصالحين وهم - بطبيعة الحال - من هو أصلح منه في مثلث الزمان، فلم يكن الصديق يطلب هنا موته كما يقال، فإن حياة الرسول نعمة له وللمرسل إليهم، ولم يكن سؤاله في توفيه مسلماً إلا تثبيتاً له في إسلامه طول خط الحياة حتى الممات، لا أني مسلم فتوفني موتاً، ولا اجعلني مسلماً حين أموت، ولا أن أحداً من الأنبياء لم يسأل الموت إلا يوسف! حيث يسأله كل الصالحين: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

ٱلْأَبْرَارِ﴾[١] ﴿. . .رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ. . .﴾[٢] فحتى إذا كان ذلك سؤالاً للوفاة فليس إلّا لأجله المسمى، أن يكون حال الإسلام، استمرارية لحد الوفاة.

ولقد وردت روايات أن يوسف عليه السلام عاش بعد لقياه ردحاً كثيراً من الزمن[٣] وقد تشير له الآية: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾[٤] فليعش يوسف في بني إسرائيل فترة حتى يصدق «ولقد جاء» وليس ذلك إلا منذ ذلك اللقيا لفترة طائلة تناسل فيها آل إسرائيل، أم بعد وفاة يعقوب[٥]!.

أتراه - بعد - يزهو بزهوة الدنيا وزهرتها لحد ينسى أبويه فلا يترجل لهما إن دخله عز الملك.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢٦.
(٣) نور الثقلين ٢: ٤٧٣ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة، بإسناده إلى محمد بن جعفر عن أبيه عن جدّه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: عاش يعقوب بن إسحاق مائة وأربعين سنة وعاش يوسف ابن يعقوب عليه السلام مائة وعشرين سنة، أقول أكثر ما كان في بيت العزيز وفي السجن وفي ملكه قبل لقياه بأبويه عشرون وكان قبله مراهقاً دون تكليف زهاء تسعة إلى ثلاثة عشر فذلك دون الأربعين فيبقى ثمانون وكما في المجمع في كتاب النبوة بالإسناد إلى محمد بن مسلم - إلى قوله - وبالإسناد عن أبي خالد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: دخل يوسف السجن وهو ابن اثنتي عشرة سنة ومكث فيه ثماني عشرة سنة وبقي بعد خروجه ثمانين سنة فذلك مائة سنة وعشرين سنين.
أقول: ليس دخوله السجن إلا بعد بلوغه الحكم وبالإمكان كونه الثاني عشر من عمره.
(٤) سورة غافر، الآية: ٣٤.
(٥) مجمع البيان في كتاب النبوة بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال قلت له: كم عاش يعقوب مع يوسف بمصر؟ قال: عاش حولين قلت: فمن كان الحجة لله في الأرض يعقوب أم يوسف؟ قال: كان يعقوب وكان الملك ليوسف فلما مات يعقوب حمله يوسف في تابوت إلى أرض الشام فدفن في بيت المقدس فكان يوسف بعد يعقوب الحجة قلت: فكان يوسف رسولاً نبياً؟ قال: نعم أما تسمع قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ. . .﴾ [غافر: ٣٤]؟..

ومما يحير العقول نقل هذه الأحاديث الزور من المختلقات الإسرائيلية في جوامعنا الروائية والتفسيرية دون نقد، ويكأنها هي الأصل وكتاب الله هو الفرع، فإذا ورد حديث في شيء لا يسأل عن آيته وإن كان ضعيفاً فضلاً عن صحته في سنده، وإذا وردت آية يسأل عن حديثها الذي يفسرها، فإن لم يرد حديث يبطل معنى الآية! وإن ورد ولا سيما بسند صحيح - فهو الذي يفسر الآية وإن كان خلاف ظاهرها أو نصها، وهذا هو التعامي عن أصالة الكتاب إلى أصالة الحديث، وذلك ترك للأصلين وهجر للقرآن وفيه ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾[1] والآن كما كان وعلى طول الخط في التاريخ الإسلامي مما سبب اختلاف المذاهب واختلاق البدع الجارفة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي قصصنا عليك هو ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ فالتوراة ينقله محرفاً منكوساً، والأحاديث - إلّا ما وافق القرآن - تأتي به مندرساً مركوساً.

وأما أنت يا رسول الهدى ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾ الأمر في الصديق ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ ماذا يفعلون، وليكونوا من بعده قوماً صالحين.

هكذا يقص الله من أحسن القصص في يوسف وإخوته آيات للسائلين، فما صار بعد العزيز وامرأته والملك بعدما أصبح يوسف هو العزيز بل والملك؟ لا ندري إلا ما تدرينا أحاديث حول امرأة العزيز ومنها ما يروى عن باقر العلوم عليه السلام قال: لما أصابت امرأة العزيز الحاجة قيل لها لو أتيت يوسف بن يعقوب عليه السلام فشاورت في ذلك فقيل لها: إنا نخافه عليك قالت: كلا إني لا أخاف من يخاف الله فلما دخلت عليه فرأته في ملكه قالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته، وجعل الملوك عبيداً بمعصيته

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

فتزوجها فوجدها بكراً فقال: أليس هذا أحسن؟ أليس هذا أجمل؟ فقالت: إني كنت بليت منك بأربع خصال: كنت أجمل أهل زماني، وكنت أجمل أهل زمانك وكنت بكراً وكان زوجي عنيناً»[١].

وليس بذلك البعيد أن يتزوجها يوسف تركيزاً لركيزة الإيمان في قلبها

---

(١) نور الثقلين ٣: ٤٧٣ ج ٢١٩ في أمالي شيخ الطائفة بإسناده إلى أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: . . .

أقول وفيه ٤٧١ : ٢١٧ في كتاب علل الشرائع بإسناده إلى عبد الله بن المغيرة عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: استأذنت زليخا على يوسف فقيل لها: إنا انكره أن نقدم بك عليه لما كان منك إليه قالت: إني لا أخاف من يخاف الله فلما دخلت قال لها: يا زليخا ما لي أراك قد تغير لونك؟ قالت: الحمد الله الذي جعل الملوك بمعصية عبيداً وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً فقال لها: ما الذي دعاك إلى ما كان منك قالت: حسن وجهك يا يوسف فقال: كيف لو رأيت نبياً يقال له محمد صلى الله عليه وآله يكون في آخر الزمان أحسن مني وجهاً وأحسن مني خلقاً وأسمح مني كفاً؟ قالت: صدقت قال: وكيف علمت أني صدقت؟ قال: لأنك حين ذكرته وقع حبه في قلبي فأوحى الله عز وجل إلى يوسف أنها قد صدقت وأني قد أجبتها لحبها محمداً فأمره الله تبارك وتعالى أن يتزوجها.

فيه ج ٢١٨ في تفسير القمي حدثني محمد بن عيسى أن يحيى بن أكثم سأل موسى بن محمد بن علي بن موسى مسائل فعرضها على أبي الحسن وكان أحدها أخبرني عن قول الله عز وجل : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] - وقد سبق صدر الحديث - قال عليه السلام ولما مات العزيز في السنين الجدبة افتقرت امرأة العزيز واحتاجت حتى سألت فقالوا لها: لو قعدت للعزيز - وكان يوسف سمي العزيز وكل ملك كان لهم سمي بهذا الاسم - فقالت: أستحي منه، فلم يزالوا بها حتى قعدت له فأقبل يوسف في موكبه فقامت إليه فقالت: سبحان الذي جعل الملوك بالمعصية عبيداً وجعل العبيد بالطاعة ملوكاً فقال لها يوسف: أنت تيك؟ فقالت: نعم - وكان اسمها زليخا - فقال لها: هل لك فيّ؟ قالت: دعني بعدما كبرت أتهزأ بي؟ قال: لا - قالت: نعم فأمر بها فحولت إلى منزله وكانت هرمة فقال لها: ألست فعلت بي كذا وكذا فقالت: يا نبي الله لا تلمني فإني بليت ببلية لم يبل بها أحد قال: وما هي؟ قالت: بليت بحبك ولم يخلق الله لك في الدنيا نظيراً وبليت بأنه لم يكن بمصر امرأة أجمل مني ولا أكثر مني مالاً فزعاً مني وبليت بزوج عنين فقال لها يوسف: فما تريدين؟ فقالت: تسأل الله أن يرد علي شبابي فسأل الله فرد عليها شبابها فتزوجها وهي بكر.

ولأنها - على خيانتها - صدقته أمام نسوة في المدينة وأمام الملك: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾[1] ولا بد لها من يد بيدها ولا سيما حين اليأس والإياس ولات حين مناص، فتجد عند من خانته الخلاص فتؤمن بالله بكل إخلاص!



(١) سورة يوسف، الآية: ٥١.

﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾:

هذه هي الشيمة الشنيعة لأكثر الناس لأنهم لا يحنون إلى إيمان، حال أنك ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ﴾ فكيف لو سألتهم من أجر على أعباء الرسالة

الذكرى، ولو كانوا يحبونها لكانوا يُقبلون إليها وَيقبلونها ولو بأجر مهما بلغ به الأمر.

وقد كان رسول الهدى ﷺ حريصاً على هداهم منذ البداية حتى أشار له الوحي الحبيب: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾[1] مع العلم أنه لا يُضل إلّا من يَضل على عمد: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ فانحصر حرصه في المؤمنين وانحسر عن الكافرين الذين أضلهم الله بما ضلوا: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

وعلّ «لو» في آيتنا تشير إلى أنه لن يحرص بعد على هدى أكثر الناس رغم حبه هداهم، فيسلّيه الوحي الحنون: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ مما يدل على أن قصص يوسف كان مما تساءلوه فيه فأجاب الله عن سؤالهم ولكن أكثرهم لم يعتبروا بها و﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ مما يدل على أن هناك فرية الافتراء في هذا القصص كما في سواه، تعنتاً عن الإيمان وتعنداً في الكفر بالإيمان ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾[3]! ثم ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ حصر للقرآن ونبيه في كيان الذكر حيث يذكّر الفطر والعقول بما له فيها كل تصديق وقبول، وتعميم لهذا الذكر المتعالي ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ ونحن نعرف منهم عالم الإنس والجن، وليكن هناك عالم أو عوالم أخرى تشملهم هذا الذكر كتكليف عام لكي يصدق ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ

(١) سورة النحل، الآية: ٣٧.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٥.

أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾[١] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٢] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[٣].

هذا و﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ نجده في (٣٨: ٨٧) و(٨١: ٢٧) ثم في (٦٨: ٥٢) ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ رسالة عالمية بكتاب عالمي في ذكرى عالمية، لا - فقط - عالم الإنس، بل ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ مجموعة عوالم التكليف، من الجنة والناس أجمعين أمن هو من العالمين؟.

وهذه الأكثرية غير المؤمنة هي المعرضة عن الآيات الآفاقية كما الأنفسية فأنى لها الذكرى بعد هذه التعمية:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

وترى تلك هي آيات في الأرض يمرون عليها حيث هم ساكنوها وعائشوها، فما هي آيات في السماء يمرون عليها وهم بعيدون عنها، وليست رؤيتها من بعد بعيون مجردة أم ومسلحة مروراً عليها، وإنما هي نظرة إليها؟

علّ المرور هنا تعني فيما عنت مرورات على آيات السماء بأسفار فضائية، مروراً عليها بأبصار وبصائر، وتعرفا إليها بآثارها وخواصها الرائعة، ولكنهم يبصرون إليها فتعميهم، دون أن يبصروا بها فتبصّرهم، وذلك هو إعراضهم عنها كآيات تدل على بارعها.

فاعل ﴿يَمُرُّونَ﴾ هم الأكثرية الذين لا يؤمنون، والآيات الأرضية أعم

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ١.

من الظاهرة لكل أحد، والباطنة التي يستبطنها ويستنبطها أهلوها من علماء ومخترعين ومكتشفين في مثلث الزمان، فتشمل المكتشفات الذرية وما فوق الذرية أماهيه مما هي مخبوءة في الأرض ظاهرها وباطنها وجوهاً الذي يخصها، فكل هذه من آيات الأرض التي ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ كذا رائع لحيونة الحياة ورياحتها ﴿وَهُمْ عَنْهَا﴾ كآيات تدل على بارئها وبارعها ﴿مُعْرِضُونَ﴾ والإعراض هنا لمحة لامعة أن هذه الآيات بطبيعة الحال لها دلالات بارعة، ولكنهم يعرضون عن دِلالاتها إلى دَلالاتها والحاجيات الحيوانية التي يقصدونها منها.

ثم الآيات السماوية لهم عليها مرورات ثلاثة في مثلث الزمان، مروراً بالعيون المجردة كما كان زمن نزول القرآن وحتى ردح بعيد من الزمن، ثم مروراً بالعيون المسلحة بالعدسيات القوية التي تريهم أجراماً سماوية بفواصل هائلة في ملايين السنين الضوئية، كما حصل منذ زمن غير بعيد.

ومن ثم مروراً بالأسفار الفضائية بالصواريخ والسفن الفضائية التي حلّقت على كرات كالقمر والزهرة أماهيه، وكما صعدت جماعة كافرة فنزلت على القمر فصعَّدت نكرانها لوجود الله في قالة لبعضهم: لم نجد الله هناك فأين هو حين لا يرى في أرض ولا في سماء؟.

وقد تعني آية النظر فيما تحتدى ما تعنيه آية المرور: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] وأقرب النظر هو الأقرب في المنظر وليس إلا في غزو الفضاء كما غزوا ولكنهم ﴿قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ثم المؤمنون لما يغزوا ليقضوا ما عليهم[2].

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٠١.

(٢) راجع تفسير آية الشورى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] وآية الرحمن: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ۚ لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾:

آية فريدة منقطعة النظير في سائر القرآن تجمع بين الشرك والإيمان، وترى كيف يجتمع الشرك مع الإيمان ولا يجتمع مع الإسلام الذي هو قبل الإيمان، ولا سيما الإسلام الذي يوافق ولا ينافق كما ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[1]؟

قد يجمع بينهما أن الإيمان درجات كما الشرك دركات، فالإيمان المطلق الذي لا يمازجه أي شرك هو القمة العليا بأعلى عليين، وبَعده مطلق الإيمان حيث يمازجه أي شرك، والشرك المطلق أم نكران وجود الله تعالى الذي لا يمازجه أي إيمان وهو بأسفل سافلين، وبعده مطلق الشرك حيث يمازجه أيّ إيمان إلّا الإيمان المطلق، فمطلق الإيمان ومطلق الشرك هما بدرجات ودركات متوسطات بين الإيمان المطلق والشرك المطلق، وقد تعني الآية من الإيمان مطلقه لا الإيمان المطلق، ومن الشرك مطلقه لا الشرك المطلق، وبذلك يجتمع الشرك والإيمان.

فالإيمان بوجود الله يقابله الإلحاد به بنكرانه وهو الكفر المطلق، والإيقان بوجود الله فالإيمان به يجتمع مع كافة دركات الشرك، في ذاته، وصفاته، وأفعاله، في خالقيته، ومعبوديته، وآثاره، في عبوديته وبعبادته، وفي طاعته، في الاتجاه المطلق إليه علماً وعملاً وعقيدة ونية أما هيه.

فكل درجة من درجات التوحيد تقابلها دركة من دركات الشرك.

وعلّ ﴿أَكْثَرُهُم﴾ في الآية هم من الأقلية المؤمنة، حيث ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ ثم الأقلية المؤمنة بوجوده أو الموحدة له: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ حيث يتدسس الشرك في صورة من صوره أم صور منه إلى علومهم وحلومهم وعقولهم وأفكارهم

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

وأعمالهم وألفاظهم أماذا من سرهم وعلانيتهم، فالإيمان المطلق الخالص في كافة مراتبه يحلّق على كيان الإنسان ككل، دون فلتة ولا لفتة، بعيدة عن كل خالجة داخلة أو خارجه تحيك بالإنسان.

فمن المؤمنين مَن يؤمن بوجوده تعالى ولكنه يشرك به! ومنهم من يوحده في خالقيته ويشرك به في العبادة أن يعبد معه غيره، أم يعبد غيره تاركاً لعبادته! ومنهم من يوحّده في العبادة ولكنه يشرك في عبادته رئاء الناس! ومنهم من يوحده في كل ذلك ولكنه يشرك به في طاعته وهذا يشمل كافة العصاة! ثم ومنهم من يوحّده في شخصه ولا يوحده في ذاته كالمجسمة، أو يوحده في ذاته دون صفاته كالقائلين بتعدد تلكم الصفات في واقعها، أم وحدتها وزيادتها على الذات.

ومنهم من يوحده في ذلك ولكنه يشرك به في أفعاله خلقاً أو تقديراً أو توفيقاً وأضرابها من اختصاصات الألوهية! ومنهم من يثنّيه أو يثلّثه على وحدته بتأويلات لاهوتية هي ويلات فلسفية غير عقلية! ومنهم من يرى وحدة حقيقته الوجود بين الله وخلقه أو الوحدة في الكثرة والكثرة في الوحدة! وأمثال ذلك من الإشراك بالله التي يجمعها الإلحاد في أسماء الله، وكما قال الله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] «هم الذين يلحدون في أسمائه بغير علم فيضعونها غير مواضعها»[2].

والإلحاد هو الميل عن الحق، وهو في أسماء الله بين أن يسمى الله بغير

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٢) نور الثقلين ٢: ٤٧٥ ج ٢٢٩ في كتاب التوحيد بإسناده إلى حنان بن سدير عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه: ولله الأسماء الحسنى التي لا يسمى لها غيره وهي التي وصفها في الكتاب فقال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠] جهلاً بغير علم فالذي يلحد في أسمائه بغير علم يشرك وهو لا يعلم ويكفر به وهو يظن أنه يحسن فلذلك قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] فهم الذين يلحدون. . .

أسمائه الحسنى، أو يسمى غير الله بأسمائه تعالى، سواء أكان إلحاداً عقيدياً أو عملياً أم في نية أو قالة أماهيه؟

فمن يشرك بعبادة ربه رغم توحيده في عبادته يلحد في ألوهية العبادة بالنية: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(١) فـ ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦ﴾ دون «بربه» دليل أنه يعبد ربه وحده ولكنه يرائي غيره فيما يعبده وهو من الشرك الخفي.

ومن يعصي الله يلحد في طاعته «والمعاصي التي يرتكبون فهي شرك طاعة أطاعوا فيها الشيطان فأشركوا بالله في الطاعة لغيره وليس بإشراك عبادة أن يعبدوا غير الله»(٢) «يطيع الشيطان من حيث لا يعلم فيشرك»(٣) «شرك طاعة وليس شرك عبادة»(٤): ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٥).

إذاً فكل العصاة والمرائين - إلّا المشركين والكافرين - يؤمنون بالله وهم مشركون، ومن يحترم غير الله كما يحترم الله دون عبادة ولا طاعة فقد أشرك بالله في حرمته كمن يسجد لغير الله أم يركع أماذا من اختصاصات لساحة الربوبية، أو يذكر اسم الله ردف أوليائه، أم يذكر فعلاً من أفعال الله ردف فاعلٍ سواه!

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) المصدر ج ٢٢٨ - القمي بإسناده عن الفضيل عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] قال: شرك طاعة وليس شرك عبادة والمعاصي...

(٣) المصدر ج ٢٣٠ أصول الكافي بإسناده عن أبي بصير وإسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال: يطيع الشيطان...

(٤) المصدر صدر الحديث رقم ٢ الذي نقلناه والحديث ٢٣١ الكافي بإسناده عن ضريس عنه عليه السلام في الآية قال: شرك طاعة...

(٥) سورة يس، الآية: ٦٠.

كما ومن يحلف بغير الله «لا وحياتك»[(١)] فقد أشرك، إذ لا حلف إلّا بالله، حيث لا يُحلَف إلا بأقدس الكائنات، اللهم إلّا ما يَحلِف به الله، وليس حلفاً، إلّا توجيهاً إلى برهان: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾[(٢)].

أو من يردف بمشيئة الله مشيئة من سواه حتى رسول الله ﷺ كمن قال: لو شاء الله وشاء محمد فندد به الرسول ﷺ ويدله بالقول «لو شاء الله فشاء محمد»[(٣)] أم «لولا الله وأنت ما فعل بي كذا وكذا ولو لا الله وأنت ما صرف عني كذا وكذا وأشباه ذلك»[(٤)] سواء أكان «أنت» رسول الله ﷺ أمن دونه.

أو من يرى في الكون مؤثراً غير الله أو مع الله فـ «يقول: لولا فلان لهلكت ولولا فلان لأصبت كذا وكذا ولولا فلان لضاع عيالي، إلا ترى أنه قد جعل لله شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه»[(٥)].

والشرك في لفظة القول هكذا، أم في نية الرئاء أم في المعصية، إنها «شرك لا يبلغ به الكفر»[(٦)].

(١) المصدر ج ٣٣٢ في تفسير العياشي عن زرارة قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن الآية قال: من ذلك قول الرجل: «لا وحياتك».

(٢) سورة يس، الآيتان: ٢، ٣.

(٣) الدر المنثور أن جماعة من اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إن دينك خير دين لولا أن أمتك مشركون فقال ﷺ: كيف؟ قالوا: إنهم يقولون: لو شاء الله وشاء محمد، فنادى الصلاة جماعة وقال: لا تقولوا هكذا قولوا لو شاء الله فشاء محمد.

(٤) المصدر ج ٣٣٤ أبو بصير عن أبي إسحاق في الآية قال: هو قول الرجل...
أقول والظاهر نقله عن المعصوم عليه السلام.

(٥) المصدر ج ٢٣٥ في تفسير العياشي عن مالك بن عطية عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: هو الرجل يقول: لولا فلان... - إلى أن قال -: قلت: فيقول: لولا أن منَّ الله علي بفلان لهلكت؟ قال: نعم لا باس بهذا.

(٦) المصدر ج ٣٣٢ في تفسير العياشي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام عن قول الله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسُف: ١٠٦] قال شرك لا يبلغ به الكفر.

ولكنما الشرك في العبادة، أن يعبد معه سواه، أو يعبد بديله سواه، هو الكفر في الشرك وهو أنحس دركات الشرك، ومن ثم الإشراك به في سائر شؤون الألوهية، فلأنه تعالى: «له الملك» لا سواه إلّا من ملّكه إياه فمن ملك أو ترأس شأناً من شؤون العباد دونما صلاحية وانطباقه لشرعة الله فقد أشرك بالله في ملكه! ولأنه «له الحكم» في شرعة وتقنين وقضاء، فالشارع شرعة من دون الله، والمقنن قانوناً دون حكم الله، والقاضي بحكم ليس من حكم الله، كل أولاء مشركون فيما يختص بالله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1] - ولأن الرسالة والإمامة بعد الرسول من المناصب الخاصة بانتصاب الله، فدعوى الرسالة أو الإمامة أو انتخاب الإمام بشورى وسواها، كل ذلك إشراك بالله ما لم ينزل به سلطاناً، كذلك - ومن بعد ذلك احتلال منصب الفتوى لمن ليس من أهلها أم في العلماء من هو أعلم منه أو أحرى، وكذلك الدعاية له، إنه شرك على علم إن كان على علم، أم شرك على جهالة قاصرة أو مقصرة.

وعلى أية حال فكل فكرة أو نية أو عقيدة أو عملية أو حركة أو سكون أماهيه ليس بأمر الله أو سماحه أو مرضاته، كل هذه إشراك بالله سواه، سواء أكان هو نفسك أم سواك!: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[2] ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[3] أن تؤلّه نفسك كما تؤله ربك فتعبد الله على حرف، فإن وافق رضى الله هواك ترضاه، وإن خالفها فلا ترضاه، وإن عملت بمرضاة ربك على سخط من هواك فقد عبدته على حرف وخرف إذ قدمت هواك على هواه! ثم هناك شرك ليس عصياناً ولا كفراً وإنما هو نقصان في الإيمان، أن يذكر غير الله ناسياً ذكر الله دون رئاءٍ ولا عصيان،

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.
(٢) سورة ص، الآية: ٢٦.
(٣) سورة النحل، الآية: ٥١.

بل نسيان هو لزام الإنسان أياً كان إلّا المعصومين في القمة، ﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ في الآية علّها تشملهم كلهم، شرك الكفر والعصيان والنسيان، فبقي الموحدون المخلصون والمخلصون وقليل ما هم، اللهم الحقنا بهم وأدخلنا في زمرتهم.

فهنالك إشراك في الله، وإشراك بالله، وإشراك مع الله يجمعها ﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ لفقد هذه الأدوات الثلاث، فلتشمل كل هذه الثلاث، ١ - إيماناً بوجود الله وإشراكاً فيه ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً، ٢ - إيماناً بوحدته في هذه الثلاث وإشراكاً به غيره في عبودية أماهيه من اختصاصات الألوهية، ٣ - إيماناً بوحدته هنا وهناك وإشراكاً معه في لفظة قول أم حلف أماهيه؟..

والتوحيد المطلق يجعل الموحد منقطعاً عمن سوى الله إلى الله على أية حال، في كل حال وترحال، ليس في قلبه إلّا حب الله، ولا يعيش إلّا مع الله ومرضاة الله، ولا يحب إلّا الله وفي الله، ولا يعمل إلّا لله وفي الله، فهو على طول الخط إلى الله وفي الله كما هو من الله، ولا يصل إلى هذه القمة العالية إلّا من أخلص دينه لله فأخلصه الله، فلا يحجب بينه وبين ربه إلّا حجاب ذات الله، فلا هناك حجب الظلمة ولا حجب النور حتى نفسه، متدنياً إلى الله متدلياً بالله كما كان رسول الله ﷺ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾[1].

فيا أيها الناظر البصير هل تجد أجمل من وجه ربك الكريم حتى تنظر إليه؟ أو تجد أحب من الله أمّن يساميه حتى تحبه دونه أم تحبه معه؟ أمّن تجده أكمل منه وأرحم أو يساويه حتى تخضع لديه؟ فكيف تشرك به خلقه وهو الضلال المبين: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٩٨﴾[2].

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٨، ٩.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٠٧﴾:

لمسة قوية لمشاعرهم لو كانوا يشعرون، تستجيش شعورهم الكامن، ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾ كما تدل عليه أعمالهم الهاتكة لساحة الربوبية، الفاتكة سماحة الألوهية ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾ حيث ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾[1] ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ﴾ عقوبة تغشاهم، تلفّهم وتعشاهم ﴿مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ غاشية بحرية: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[2] أماهيه من برية وجوية تغشى أبدانهم، فهنالك موتهم عن أبدانهم، أم غاشية تغشى أرواحهم وبصائرهم: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾[3] ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[4] هذه التي تستحل لهم غشاوة العذاب في الدنيا والآخرة: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ موتاً كقيامة صغرى، أم قيامة كبرى ﴿بَغْتَةً﴾ حيث الغيب موتاً وقيامة موصد الأبواب، لا تمتد إليه عين ولا أذن فما تدري نفس متى تموت أو تقوم القيامة، ﴿تَأْتِيَهُمُ... وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إتيانها فإنها مباغتة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ماذا يتوجب عليهم وليأخذوا حذرهم، فيا ويلاه أن تأتيهم غاشية العذاب أم ساعة الموت أو القيامة وهم غافلون، عائشين غفلة وغفوة حتى الغاشية والساعة، وهذه الغفلة اللاشعورية غاشية فوق الغاشية: ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ...﴾[5].

هنا غاشية من عذاب الله، وهناك غاشية: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ١﴾

---

(١) سورة يونس، الآية: ٧.
(٢) سورة طه، الآية: ٧٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٧.
(٤) سورة يس، الآية: ٩.
(٥) سورة النور، الآية: ٤٠.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧)﴾[1] وأين غاشية من غاشية، وهما من مخلفات غاشية الغفلة المعمدة!

﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)﴾:

هنا يؤمر رسول الهدى أن يعرّف بسبيله للعالمين وبكيفية دعوته بشرطها الأصيل له ولمن اتبعه إعلاناً صارماً صارخاً على أسماع العالمين وليكونوا على بصيرة من أمره.

فالسبيل هي الطريقة المنحدرة المعبَّدة الهادفة إلى الغاية المقصودة، ومنها الصراط المستقيم وهو واحد والسبل عدة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[2] وسبيله الوحيدة الوطيدة هي صراطه المستقيم.

فـ ﴿هَٰذِهِ﴾ إشارة إلى سبيله الخاصة به وهي صراط الله المستقيم، إشارة إلى القمة التوحيدية العالية التي لا تساوى ولا تسامى بأية درجة في مدارج العالمين، وهي مقام قاب قوسين أو أدنى، التي لا يخالطها أية دركة من دركات الشرك وحتى المرجوحة غير المحرمة، فـ ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3] لا تنفي - فقط - إشراك العبادة وأضرابه، بل وكل إشراك ندّد به في الآية السالفة: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ فهو - إذاً - التوحيد الخالص، في القمة الخاصة بأوّل العابدين والموحدين. و﴿قُلْ﴾ خطاباً للرسول إلى العالمين، إعلام عام في إعلان بإذاعة قرآنية عالمية دائبة،

(١) سورة البينة، الآيات: ١-٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٧٩.

يعرّف فيه بمبدئه أنه على صراط من ربه مستقيم وليس ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا قبل الإيمان ولا بعده.

وقد حصر سبيله في العمق بأنها ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وإنما قدم الإيجاب: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ...﴾ وهو ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ على السلب: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهو ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ خلاف المتعوّد المعمول في الاهتداء، لأنه اجتاز السلب العام إلى إيجابه، لأنه أوّل العابدين، ثم وفي ذلك الإعلان يعرف بمحتده في سبيله أنها صراط الله المستقيم، توحيد خالص خاص لا شرك فيه.

ولأن ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ... وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فأنا ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ دون عمى ولا تعمية ولا تخبّط أو تخبيط، فإنه اليقين البصير المستنير ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أن أتخذ سبيلاً غيرها أو أن أشرك به غيره، أم أدعو على غير بصيرة، أم يرسل الله داعية على غير صراطه المستقيم وعلى غير بصيرة! فسبحانه سبحانه في كل سلب وإيجاب في ابتعاث الداعية الأخيرة بتلك الدعوة الأخيرة، أن تخالجهما أية ضلة أو زلة.

﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى...﴾ دعوة واحدة على بصيرة واحدة لمكان ﴿أَدْعُوٓا۟... أَنَا۠﴾ دون «ندعو» حتى يشمل ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ ف ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ يدعو كما أنا أدعو، وإلا فليكن «ندعو...» ف ﴿أَدْعُوٓا۟... وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ تجعل دعوة من اتبعه دعوته، فليكن في سبيله وعلى بصيرته، يحذو محذاه وينحو منحاه، فليس «من اتبعني» إلّا من رباه كما رباه الله، دون أي فارق إلّا أنه مبدىء الدعوة وهم منتهاه، يأخذ منه كل ما أخذه بالوحي ثم يعطي الآخرين كما أعطاه، دون اختلاف عنه ولا قيد شعرة، فليكن ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ هم المعصومون من عترته الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين، فهم كنفسه في سبيله ودعوته ببصيرته، رفاقاً معه دون فراق إلّا في الأبدان، فهم كما يقول صادقهم عليه السلام وكلهم صادقون: «أولنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم آخرنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أوسطنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكلنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم».

فلأنه لا بد لهذه الدعوة الأخيرة استمراريتها إلى الأيام الأخيرة، فلا بد لها بعد صادعها الأوّل من حملة معصومين على طول خط الرسالة، وكما نعتقده في الأئمة الاثني عشر من أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى القائم المهدي عجل الله تعالى فرجه، فـ «ذاك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام والأوصياء عليهم السلام من بعدهم»[1].

فهم أولاء الأكارم، الذين عناهم الله في آية الدعوة الرسالية المعصومة، فإنهم «أول من اتبعه على الإيمان به والتصديق له وبما جاء به من عند الله عز وجل»[2]. دون سواهم وإن كانوا من العلماء الربانيين، فإن بصيرتهم

---

(١) نور الثقلين ٢: ٤٧٦ ح ٢٣٨ في أصول الكافي بإسناده عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨] قال: ذاك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . . .
في روضة الواعظين للمفيد قال الباقر عليه السلام في الآية: علي اتبعه.

(٢) في الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن بكر بن صالح عن القاسم بن يزيد عن أبي عمر والزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له أخبرني عن الدعاء إلى الله والجهاد في سبيله أهو لقوم لا يحل إلا لهم ولا يقوم به إلا من كان منهم؟ أم هو مباح لكل من وحد الله عز وجل وآمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن كان كذا وكذا فله أن يدعو إلى الله عز وجل والى طاعته وأن يجاهد في سبيله؟ فقال: ذلك لقوم لا يحل إلا لهم ولا يقوم بذلك إلا من كان منهم، قلت: من أولئك؟ قال: من قام بشرائط الله عز وجل ومن لم يكن قائماً بشرائط الله في الجهاد على المجاهدين فليس بمأذون له في الجهاد ولا الدعاء إلى الله حتى يحكم في نفسه ما أخذ الله عليه من شرائط الجهاد، قلت: فبين لي يرحمك الله أن الله تبارك وتعالى أخبر في كتابه الدعاء إليه ووصف الدعاة إليه - إلى أن قال -: ثم أخبر عن هذه الأمة وممن هي وإنها من ذرية إبراهيم ومن ذرية إسماعيل من سكان الحرم ممن لم يعبدوا غير الله قط الذين وجبت لهم الدعوة دعوة إبراهيم وإسماعيل من أهل المسجد الذين أخبر عنهم في كتابه أنه أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، الذين وصفناهم قبل هذا في صفة أمة إبراهيم عليه السلام الذين عناهم الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨] يعني أوّل من اتبعه على الإيمان به والتصديق له وبما جاء به من عند الله عز وجل من الأمة التي بعث فيها ومنها وإليها قبل الخلق ممن لم يشرك بالله قط ولم يلبس إيمانه بظلم وهو الشرك». . . في التهذيب في الدعاء بعد صلاة يوم الغدير المسند إلى الصادق عليه السلام: ربنا آمنا واتبعنا مولانا وولينا =

تخالطها وتخالجها غير بصيرة مهما كانوا في أخطائهم غير العامدة معذورين، وأنهم - أياً كانوا - ليسوا على صراطه المستقيم، ولا خارجين عن الشرك كله إلى الإيمان كله.

صحيح ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾[1] ببصارة الفطرة والعقل ثم الشرعة التقليدية، ولكنها ليست بصيرة معصومة، والداعية إلى الله يجب أن يكون على بصيرة بالوحي معصومة، إضافة إلى بصارة العقل والفطرة وأين بصيرة من بصيرة؟! هنا نعرف بيقين أن الخلافة الرسالية الإسلامية لزامها العصمة الرسالية تستمر دعوة الداعية الصادعة بعيدة عن الأخطاء، فـ «من اتبعني» تخص الاتّباع المطلق لا مطلق الاتّباع، حتى الذي فيه أخطاء عامدة أم ساهية قاصرة، بل هو اتباع دون أي تخلف وشذوذ، وكما اتبع الرسول وحي الله تعلماً واعتقاداً ونشراً وتطبيقاً.

هذه هي الدعوة الأولى كحجر الأساس لها من الرسول ﷺ وخلفائه المعصومين عليهم السلام ومن ثم العلماء الأتقياء، الأفضل منهم فالأفضل بشروطاتها الأساسية المسرودة في آيات الدعوة والأمر والنهي كـ ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2] دعوة مستمرة على بصيرة ممن هو على صراط مستقيم أو سبيل قويم، وهو أحق أن يتّبع ممن سواه: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[3].

= وهادينا وداعينا وداعي الأنام وصراطك المستقيم السوي وحجتك وسبيلك الداعي إليك على بصيرة هو ومن اتبعه وسبحان الله عما يشركون بولايته وبما يلحدون وباتخاذ الولايج دونه.

(١) سورة القيامة، الآية: ١٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٣) سورة يونس، الآية: ٣٥.

أجل وإن أصحاب الدعوة إلى الله لا بد لهم من ذلك التميُّز البارع، إعلاناً - منذ البداية - لما هم عليه دون تزعزع ولا مماراة، ولما يدعون إليه دون مجاراة وأنصاف حلول، صراطاً مستقيماً لا حِوَل عنه!.

وتلك هي السنة السنية الرسالية في كل خطوطها بكافة بنودها بمن يحملونها في خيوطها طول الزمان وعرض المكان:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا... إِلَّا﴾ حصر للرسالة الأصيلة الإلهية في رجال من جنس الإنس، دون نساء منهم مهما بلغن الذروة من الكمال، ولا من الجن وسواهم رجالاً ولا نساء، مما يدل على حصر الرسالة في بعدي الرجولة والإنسانية، فلا تنافي الآيات الصريحة أو اللامحة في رسالة الجن فإنها على هامش رسالة الإنس، ولا الرسالة فيمن سوى الجن والإنس حيث المجانسة شرط في الرسالة بين الرسول والمرسل إليهم، إذاً فأصل الرسالات الإلهية للعالمين ومحورها الأصيل رجال من الإنس، مهما حملها رجالٌ من الجن وسائر العالمين كخلفاء لرسل الإنس، ثم يحملها في دعوة عليمة سليمة كل من تحملها علماً وعملاً صالحاً رجالاً ونساء وكما في واجب الدعوة والأمر والنهي فـ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ...﴾[1].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ منذ بداية الرسالات ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لا ملائكة كما كانوا يزعمون ويقترحون، ولا سواهم ﴿إِلَّا

(١) سورة التوبة، الآية: ٧١.

رِجَالًا... مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ بشراً مثلك وأمثالهم من أهل المجتمعات البشرية، حيث القرية هي المجتمع أياً كان، في مدينة أو ضاحية أماهيه.

فلست أنت بدعاً من الرسل، فإنك رسول كسائر الرسل، رجلٌ من أم القرى كما هم من أهل القرى، مهما بان البون بينك وبين سائر الرسل كما البون بين أم القرى وسائر القرى.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حاضرها وغابرها، تاريخاً جغرافياً وجغرافياً تاريخياً عن شؤون الرسالات الإلهية، أفلم يسيروا فيها لينظروا رجالات الرسالات أنهم كما أنت من أهل القرى ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ ثم ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الذين أرسل إليهم ﴿حَيْثُ﴾ رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها «فأنكروا رسالات ربهم» ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾: الدنيا وهم فيها، تقوى عن طغوى النكران ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ في أنفسكم، وفيما تنظرون من الذين من قبلكم؟

ولعمر الله إنها هزّة فظّة تهز القلوب حتى المقلوبة المتجبرة، الجاسية القاسية المتكبرة، فلحظات الاسترجاعات الخيالية لحركات الطاغين وسكناتهم وخلجاتهم، فإذا هم على حين غفلة وغفوة لا حس لهم ولا حسيس ولا حركة، قصورهم خاوية، ودورهم خالية، طواهم الموت طياً ولا فوتَ، فتلك مصارعهم بين آونة وأخرى ولات حين مناص.

إنها تهز هزة وتفز فزة فظة، مهما يكن القلب خاوياً، وجاسياً قاسياً، فكيف لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؟! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ عقل دراية، فتعتبروا بعاقبة المكذِّبين قبلكم، وما قاساه رسل الله منهم:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾:

أترى من هم الذين ﴿وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾؟ أهم الرسل لقرب

المرجع؟ فمن كَذَبهم؟ أهم المرسل إليهم؟ وقد علموا أنهم كذّبوهم طول التاريخ الرسالي أشد تكذيب دون أن يكذبوهم! ويظنوا! وإنما يكذبهم المنافقون فيما يدعون من الإيمان، و﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ غاية الأمر لكل الناكرين دون خصوص المنافقين! ثم وكلّ مِن كِذبهم نفاقاً، وتكذيبهم كفراً، معلوم لدى الرسل ملموس، والنص «ظنوا»! ولقد ظن ناس ﴿أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا۟﴾[1] ونحن نكذب قولتهم بروايتهم حيث النص ﴿كُذِبُوا۟﴾ وكما يروى عن الرسول ﷺ[2] كما وتكذب الرواية القائلة إن الرسل ظنوا أنهم كذبوا في وعد الله والعياذ بالله من هذه المقحمات الزور[3] وكيف ييأس الرسل من نصر الله لحد ظنوا أنهم كذبوا في وعد الله و﴿لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[4] فضلاً عن ظنهم!.

إذاً ففاعل الظن والكذب هم المرسل إليهم المدلول عليهم - على بعدهم - بـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ حيث تتحدث عن الغاية التي انتهوا إليه أمام رسلهم ﴿... كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ...﴾ ومم استيأس الرسل، أمن نصر الله وروحه؟ و﴿لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ

---

(١) الدر المنثور ٤: ٤١ - أخرج ابن مردويه من طريق عروة عن عائشة أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا۟﴾ [يوسف: ١١٠] بالتشديد.

(٢) المصدر أخرج ابن مردويه من طريق عمرة عن عائشة عن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ [يوسف: ١١٠] مخففة واخرج ابن مردويه من طريق أبي الأحوص عن ابن مسعود قال حفظت عن رسول الله ﷺ في سورة يوسف ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ [يوسف: ١١٠] مخففة.

(٣) نور الثقلين ٣: ٤٧٨ ح ٢٤٨ القمي في الآية حدثني أبي عن محمد بن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: وكلهم إلى أنفسهم فظنوا أن الشياطين قد تمثلت لهم في صورة الملائكة، في تفسير العياشي عن ابن شعيب عنه عليه السلام قال: وكلهم إلى أنفسهم أقل من طرفة عين، أقول وتكذبهما الروايات التالية.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[(١)]! أم استيأسوا من إيمان هؤلاء النسناس إذ كذّبوهم لحدٍّ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ في وعد النصر، فكذلك الأمر وكما في روايات[(٢)] والآية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[(٣)].

وإنها ساعات حرجة محرجة للذين آمنوا أن يظن الكافرون أن الرسل كذبوا في وعد النصر، فالباطل - إذاً - يتنفش ويغدر ويبطش، والرسل ينتظرون نصر الله كما وعدوا، وهنالك زلزال المؤمنين إذ تهجس في خواطرهم الهواجس.

في تلكم اللحظات التي يستحكم فيها الكرب ويأخذ فيها الضيق بمخانق المؤمنين، ولا تبقى ذرة مثقال من الطاقة المدخرة لهم ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ فيرتاح له المؤمنون ويرتاع به الكافرون، ويحظوا به المرسلون ﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ من الرسل من زلزال المؤمنين حيث هالهم، والمؤمنون من مخالفتهم

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

(٢) المصدر في تفسير العياشي عن زرارة قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كيف لم يخف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك مما ينزع به الشيطان؟ قال: فقال إن الله إذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار وكان يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه وح ٢٥١ في عيون الأخبار في باب مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بإسناده عن علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أليس من قولك إن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى قال فما معنى قول الله عز وجل - إلى أن قال - فأخبرني عن قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠] قال الرضا عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ من قومهم فظن قومهم أن الرسل قد كذبوا جاء الرسل نصرنا، فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن عليه السلام.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

بالبأساء والضراء، ثم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ البأس الذي فيه دمارهم وبوارهم:

تلك هي سنة الله في الدعوة والداعية، إن عليهم تكريس كافة طاقاتهم في الدعوة إلى الله، والتصبر في كافة المضايق على أذى الناكرين ولظاهم، انتظاراً للانتصار من الله بعد تقطع الأسباب وتقلب القلوب، وتحير الألباب.

أجل وليس النصر رخيصاً على الأبواب، إلّا بعد استئصال الأسباب باستعمالها في كل باب، ومن ثم ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ - ولكنما﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[1] الشدائد في هذه السبيل الشاقة الطويلة الملتوية المليئة بالأشلاء والدماء، إنها لا يصمد لها إلّا الواثقون بوعد الله، الصادقون في إيمانهم بالله، فهم - إذاً - لا يتخلون عن الدعوة إلى الله مهما بلغت بهم الشدائد وحتى إن ظن الكافرون أنهم كذبوا، وزلزل المؤمنون انتظاراً للانتصار.

وكيف يستعجل الداعية أجل النصرة وهو يواجه طواغيت يملكون المال والقوة واستخفاف الجماهير واستحمارهم، ويملكون تأنيبهم بتأليب الجماهير الجاهلة ضدهم.

درسنا في قصص الصديق ألواناً من الشدائد، في الجب وبيت العزيز وأمام نسوة في المدينة وفي السجن، فصبر واصطبر دونما زعزعة لعرش رجائه بنصر الله حتى جاءه نصر الله، لا على إخوته فحسب، بل وعلى العزيز والعزيزة ورجال الحاشية وفرعون نفسه، فيا له من قصص بارع فيه عبرة لأولي الألباب:

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٧١-١٧٣.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾:

﴿قَصَصِهِمْ﴾ عله - فقط - قصص يوسف وإخوته: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾[١] وقد يعنيهم وقصص الرسل ككل، ف ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ - إذاً - يعم قصص القرآن ككلٌ: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾[٢] ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[٣].

والعبرة هيئة خاصة من العبور، فهي - إذاً - انتقالة من حالة إلى أخرى أحسن منها: من غفلة إلى ذكرى، وذلك طبيعة الحال في أولي الألباب، وهي لباب العقول، فحين يستعمل العقل سليماً تتحلل عن القشور الحاجبة، فتصل إلى الأوامر الواجبة.

﴿مَا كَانَ﴾ قصص يوسف وإخوته، ولا كل القصص القرآنية ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ أن يفتريها الرسول ﷺ على الله دونما وحي، فلو كان القرآن مفترى والتوراة والإنجيل وحياً لكان كلام البشر أفضل وأتم من كلام الله: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾[٤].

ف ﴿مَا كَانَ﴾ دون «ليس» نفي بات مؤكداً عن كينونة القرآن أن يفترى من دون الله، بطبيعة الحال في القرآن نفسه حين يتدبر في آياته وتقاس بسائر الوحي السابق عليه، حيث الرجاحة في القمة باهرة فيه دون ريب يعتريه.

(١) سورة يوسف، الآية: ٧.
(٢) سورة طه، الآية: ٩٩.
(٣) سورة هود، الآية: ١٢٠.
(٤) سورة يونس، الآيتان: ٣٧، ٣٨.

وهنا لقصص القرآن أو القرآن ككل مواصفات عدة مستفادات من القرآن نفسه دون ادعاءات خاوية عن البرهان:

(١) - ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ حيث ينقلهم من حالاتهم الرديئة جهلاً وجهالة وغفوة وغفلة إلى حالات حسنة بديعة علماً وذكرى ونبهة وحفوة.

(٢) - ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ كما يعرف من تدبُّره وقياسه إلى سائر الوحي.

(٣) - ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[1] من وحي ناصع واصب، ومن حديث الفرية ما كان من أهل الكتاب إذ يرون خلافات بين هذا القرآن وكتبهم، في حين يرون أنها هي الأصل فيقاس عليها القرآن، فما وافقها منه فمأخوذ من كتبهم، وما خالفها فمفترى على الله!، فالنفي ﴿مَا كَانَ. . .﴾ نفي للفرية «ولكن» إثبات لوحيه إذ يصدق الذي بين يديه، وليس هو الكتب الرائجة بينهم فإنها بين أيديهم لا بين يديه، ولا يعني ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هنا وفي سائر القرآن إلّا ما نزل على أنبياء الله من قبل، دون المحرف المفترى! كما عرفنا الفوارق بين قصص يوسف وإخوته هنا وفي التوراة.

(٤) - ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاجه العالمون إلى يوم الدين، وهو زيادة على «ما بين يديه» - ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾[2].

وهذه كليّة شاملة لا تشذ شيئاً يحتاجه العالمون، دون سائر الوحي، كما التوراة: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ. . .﴾[3] فـ «من» لمحة لامعة إلى تبعيض موعظةً وتفصيلاً، فـ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ كما ﴿مَّوْعِظَةً﴾ هما المحتاج إليه في الشرعة الإسرائيلية في دورها

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٧.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٥.

المحدود، إضافة إلى الفرق بين ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ حيث التنوين التنكير يشير إلى التبعيض المستفاد من «من».

فالقرآن هو تفصيل مطلق للكتاب المكنون عند الله: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾(٢).

وسائر كتابات الوحي هي مطلق تفصيل للكتاب دون شمول يعم كل زمن التكليف.

(٥) - ﴿وَهُدًى﴾ زائدة على الهدى السابقة عليه في سائر كتابات الوحي.

(٦) - ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ليست هي لناكريه مهما كان أهل كتاب من عهد قديم أم جديد، وحيث البون بين ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ هنا وهناك شاسع واسع، بوناً بين المحدود بزمن والشامل لكل الزمن، مع العلم أن الهدى المحدودة محرفة عن جهات أشراعها فلا تصلح حتى لزمنها المحدود.

فالقرآن بمنظار الإيمان ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ وبمنظار تفتيش الواقع «ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ»... وبمنظار الألباب «عبرة» فهو في ذلك المثلث الرائع تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»! وهكذا يتوافق المطلع والختام في قصص يوسف وإخوته، وقد يختلف عن سائر قصص القرآن فإنها مقصوصة مبثوثة في مختلف المناسبات، ولكن قصة يوسف مسرودة مترتبة في سورة واحدة لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من العرض، حيث الحلقات الأصيلة المذكورة منها متلاحقة، وهي تشكّل قصة واحدة لو

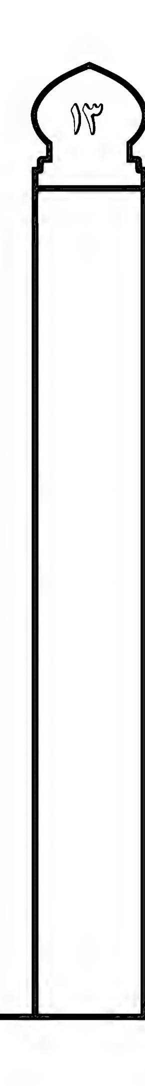
---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٧.

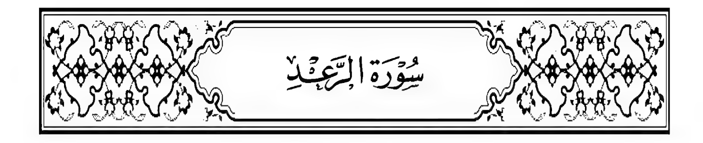
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٤.

قصّت ويُثَّت في مختلف المجالات لم تكن عبرة كما هي في مواصلتها، دون سائر القصص حيث تقتص منها حلقات بقلة أو كثرة دون تمام في مختلف المناسبات إذ تكفي عبرة ونبهة كقصص نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ ومن دونهم من رسل جاءت قصصهم في مختلف القرآن.





سُورَةُ الرَّعْدِ



مدنيّة وآياتها ثلاث وأربعون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ
عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ
يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ
فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ
ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ
مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ
بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ
لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي
خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ
وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ
ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ
عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ
أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ

مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

سورة الرعد صورة عن جملة من بوارع الكون وقوارعه ترعَد وتُرعد وتطوف بالقلب بجولات في مجالات شاسعة واسعة، وتحلِّق العقول فيها فتعلِّقها بحقائق جمة من كتابي التدوين والتكوين، اتصالاً بعُظم الخلق فوصولاً إلى معدن العظمة: الخالق العظيم.

﴿الٓمٓرۚ﴾ هي كسائر الحروف المقطعة من مفاتيح كنوز القرآن، لا نعرف من معانيها شيئاً إلّا ما يعرّفنا مَن خوطب بوحي القرآن، بما يُروى عنهم قاطعة قاصعة لا تقبل أية ريبة ولا شائبة، دون روايات آحاد متناحرة تخرص ولا يُحرس كالتي تقول «. . . ويقوم قائمنا عند انقضائها بالمر»[1] أمّا يضاحيها من تخرصات بالغيب في تخيلات لا تأوي إلى ركن وثيق.

---

(١) تفسير العياشي عن أبي لبيد عن أبي جعفر عليه السلام قال: يا لبيد إن لي في حروف القرآن المقطعة لعلماً جماً إن الله تبارك وتعالى أنزل: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ١-٢] فقام محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى ظهر نوره وثبتت كلمته وولد يوم ولد وقد مضى من الألف السابع مائة سنة وثلاث سنين ثم قال: وتبيانه في كتاب الله في الحروف المقطعة إذا عددتها من غير تكرار ليس من حروف مقطعة حرف تنقضي أيامه إلا وقائم من بني هاشم عند انقضائه ثم قال: الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون، والصاد تسعون فذلك مائة وواحد وستون ثم كان بدو خروج الحسين بن علي عليه السلام ﴿الٓمٓ﴾ فلما بلغت مدته قام قائم ولد العباس عند ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١] ويقوم قائمنا عند انقضائها بآلمر فافهم ذلك وعد واكتمه». =

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

أترى الآيات المشار إليها هنا هي آيات التكوين إذ تشمل السورة شطراً منها، ومن ثم آيات التدوين هي ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾؟ ولا تحمل الرعد كل آيات التكوين، و﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هي كلُّها لمكان إضافة الجمع الموحية باستغراق، وآياتٌ من الرعد حين تحمل تعبيرات عن آيات التكوين لا تعتبر هي نفسها آيات من التكوين، بل هي من التدوين الحاكي عن التكوين! أم هي كل آيات التكوين ومن ضمنها ما تحملها الرعد، فـ ﴿تِلْكَ﴾ - إذاً - إشارة إلى التي تحكي عنها في الرعد كنموذج بارع منها؟ ولكنها بعدُ آيات من التدوين! أم إن ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو «أم الكتاب لدى الله علي حكيم» وآياته المفصلات المدونات في الذكر الحكيم؟ ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ هي هيه! والعطف موحٍ بمغايرة! أم إنها آيات كتاب الوحي كلها، فإنها تفصيلات لأم الكتاب، ولكنها منسوخة ومحرفة، خارجة عن حقها، أم منسوخة على حقها ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ فمهما كانت آيات الكتاب في كل كتابات الوحي حقّاً، ولكنها مطلق الحق حيث تقبل بطلاناً بتحريف وتجديف، أم بطلان الزوال بنسخ، ولكنما ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ المطلق، لا يقبل أيّ بطلان وزوال، من بطلان باطل كالتحريف، أم بطلان حق كالنسخ، فـ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ معرفاً دون «حق» حصر للقرآن بحقه، دون أن يساويه أو يساميه سائر الحق: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[1].

= أقول: ليس العلم بحروف الأعداد علماً جماً فإنه يعلمه كثير من الجهال والكفار، ثم وهذه الرواية سكة لمن يدعون المهدوية لعلي محمد الشيرازي الذي ادعى البابية للإمام المهدي ثم المهدوية تطبيقاً لـ ﴿الٓمٓر﴾ [الرّعد: ١] بحساب الأعداد على زمن الباب.

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٤١، ٤٢.

أم إن ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى كل آيات التكوين والتدوين في كتابيه، على طول الخط في كل تكوين وتدوين، ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾ نموذج شامل كامل عنهما، حيث يشمل ما شملته كتابات السماء وفيه مزيد، فهو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت الذي لا حول عنه ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾[١]! فهذا القرآن العظيم أكمل نسخة عما دوِّن وكوِّن كما يحتاجه العالمون حتى آخر زمن التكليف، وكما يروى عن باقر العلوم: القرآن يجري كجري الشمس.

هذا هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الناصع البارع، كل الحق الذي أراد الله إنزاله على العالمين ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[٢] مهما كان في حروفه المقطعة اختصاصات غيبية لمن خوطب بالقرآن.

ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣] أنه أنزل إليك من ربك، وقد يؤمنون بإنزاله إليك ولكنهم لا يؤمنون أنه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت الذي لا حول عنه، تحريفاً من الناس أم نسخاً من خالق الناس.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾:

﴿رَّبِّكَ﴾ الذي رباك بالحق الذي أنزله إليك، ورفعه في سماوات الوحي لأعلى قمة شاملة تحلّق على كتابي التكوين والتدوين ﴿رَّبِّكَ﴾ هذا. هو ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...﴾.

هنا تبدأ الآيات بالمعجزة الكونية، الدالة على المكون الواحد العليم الحكيم القدير، برسم مشاهد كونية بارعة ضخمة، لمسة في السماوات

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٣) سورة هود، الآية: ١٧.

وأخرى في الأرض، ثم لمسات تلو أخرى في مشاهد أخرى ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾!

فاللمسة الأولى تبدأ بالسماوات المرفوعة، المعروضة على الأنظار ليل نهار، حيث نرى سماوات مرفوعة ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ فمن هذا الذي رفعها؟ ومن هذا الذي دعمها؟ إلّا الله الواحد القهار؟!

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جمعاً هي السبع الطباق، فحين نراها دون وثاق، والمرفوع في الجو بلا وثاق يدعمه مستحيل في العقول، فليكن لها «عمدٌ لا ترونها» فثم عمد ولكن لا ترونها»[1] فإن «ترونها» تصف العَمَد وهي جمع العماد، ولو لا عمدٌ تدعمها لكانت «ترونها» زائدة بائدة، فهي إذاً توصيفة احترازية عن عمد غير مرئية، إذاً فهي «موطدات بلا عمد، قائمات بلا سند»[2] مرئية: «سقفاً محفوظاً وسمكاً مرفوعاً بغير عمد تدعمها ولا دسار ينظمها»[3] ولا رفع إلّا برافع، ولا حفظ ولا سمْك إلّا بحافظ وسامكٍ ممسكٍ!.

تأتي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في سائر القرآن (١٩٠) مرة، ولا رفع لها إلّا هنا وفي الرحمن ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ وفي النازعات بإفرادها ﴿ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾ وفي الطور ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾.

ولأن رفع الشيء ليس إلّا بعد كونه بانخفاض، فلتكن السماوات

---

(١) نور الثقلين ٢: ٤٨٠ ح ٥ القمي حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال قلت له: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧] فقال: هي محبوكة إلى الأرض وشبك بين أصابعه فقلت: كيف يكون محبوكة إلى الأرض والله يقول: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرّعد: ٢] فقال: سبحان الله أليس يقول: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرّعد: ٢] فقلت: بلى قال: فثم عمد ولكن لا ترونها...

(٢) في نهج البلاغة قال عليه السلام: فمن شواهد خلقه خلق السماوات موطدات..

(٣) النهج في كلام له يذكر فيه خلق السماوات «جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً وعلياهن سقفاً محفوظاً..

مرفوعة بعد خلقها غير مرفوعة كما فصلتها الآيات في فصّلت وفصلناها على ضوئها وفق ما فصّلت.

فالسماوات المرفوعة بأجرامها الضخمة الثقيلة - فإنها ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾[١] - إنها تدلنا على رافع رفعها، ثم بقاؤها مرفوعة محفوظة عن التساقط دليل على داعم يدعمها، ولأن الرافع الداعم لا يرى فلنؤمن بمَن لا يُرى بما يُرى، فإن ما يرى دليل على ما لا يُرى.

وعلّ الجمع في ﴿عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ يوحي بعمدٍ لا ترى، فليست هي القوة الجاذبية فحسب إذ ليست جمعاً، وليست - كذلك - الله، إذ لا إله إلّا الله، إذاً فهي كل ما لا يرى ممن يدعمها كما رفعها بعدما خلقها وهو الله تعالى، ومما يدعمها مرتفعة كالجاذبية العامة، فالله تعالى هو العماد الأصيل في كل كثير وقليل، ثم الجاذبية أماهيه من المدبرات أمراً من قبل الله، حيث أبى الله أن يجري الأمور إلّا بأسبابها، وهو السبب الأوّل، وهو مع كل الأسباب ومسبب للأسباب، فهو العماد الأوّل المسنود إليه إمساكها في آية الحج: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾[٢].

فقصارى ما يرفعه الناس في هذه الكرة الصغيرة الهزيلة، لا تتعدى بناية أو برجاً أو طائرة، وكل ذلك بحاجة إلى دعامة بحسبها، فكيف بالإمكان أن تحفظ هذه السماوات المبنية العظيمة بهذه الأجرام الهائلة، تحفظ مرفوعة بلا عمد ولا دسار ينظمها، فإذ لا ترى عَمَدها فلتكن هناك عَمَد ولكن لا ترونها!

ولماذا يبتدىء في ذلك العرض العريض بالسماوات البعيدة عنا دون الأرض القريبة منا وهي كما السماوات مرفوعة في جوها بغير عمد ترونها؟

لأن رفع السماء وبقاءها في جو الفضاء بغير عمد ترونها معلومٌ لكل

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٨.
(٢) سورة الحج، الآية: ٦٥.

ناظر إليها، ولكنما الأرض - على كونها معلقة في جو الفضاء كما السماء - لم تكن ظاهرة التعلق والعلقة، إذ كانوا يزعمونها ولحد الآن مستقرة على دعامة، مهما دلت على كونها معلقة آيات عدة وروايات مسرودة في محالها، مؤيِّدة للعلم، ومتأيدة به لغير ذوي العلم، ومن آياتها هي الجامعة بينهما كآية الإمساك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(١) وإمساكهما بعد زوالها دون خلقهما مرة أخرى يدلنا أن زوالهما هو تساقطهما عن محالهما، دون انعدامهما، فكما السماوات بحاجة إلى إمساك عن السقوط كذلك الأرض.

ولأن دخان السماء رفع قبل تسبيعها: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ . . . فَقَالَ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ. . .﴾(٢) إذاً فرفع السماوات رفع ثان لذلك الدخان اقتساماً له إلى سبع وجعله طباقاً فوق بعض، وفي ذلك الرفع الرفيع خلق الأنجم لأنه تكملة لبناء السبع الطباق وبعده استواء الله على عرش الملك والتدبير.

﴿. . . ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ﴾ مما يؤكد خلقهما في ذلك الرفع، وهما من أنجم المجرة الأدنى إلى أرضنا ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ وهو أجل قيامتهما ضمن القيامة العامة الطامة ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ في السماوات والأرض وما بينهما ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ تكويناً وتدويناً وكل ذلك ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لقاء المعرفة في الأولى والأخرى، ولقاء الجزاء يوم الجزاء.

لقد فصلنا القول حول العرش في طيات آياتها الأنسب وأنه كناية عن السلطة الربوبية المطلقة على كل شيء، ولأن السلطة الفعلية ليست إلّا بعد

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٤١.

(٢) سورة فصلت، الآيتان: ١١، ١٢.

مُلكٍ بالفعل، فلا عرش لله قبل خلقه إذ «كان الله ولم يكن معه شيء» ثم خلق المادة الأولية التي خلق منها كل شيء ف ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ قبل أن يخلق منه الأرض والسماء: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[1] ومن ثم كان عرشه على السماوات والأرض: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[2].

فاستواء الرحمن على العرش ليس إلّا لبسط الرحمة بباسط يديه، حيث الرحمن رحمة عاملة شاملة كل شيء.

وهنا تسخير الشمس والقمر نموذج من تسخير الأنجم، وتدبير الأمر يعم أمرها وكل خلق تكويناً وتشريعاً، وتفصيل الآيات يعم آيات التكوين كعامة الكون، وخاصة الرسل فإنهم آياته العظمى، وآيات التشريع كعامة، وخاصة الشرعة القرآنية، فكما له الخلق وحده، كذلك له الأمر وحده، لا خالق ولا آمر معه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3] فالخلق هو خلق الكون كله المعبر عنه بالسماوات والأرض، والأمر هو عرش ملكه في ربوبيته المطلقة علماً وتدبيراً، وتفصيلاً وتقديراً أماهيه؟:

وترى ما هي الصلة بين لقاء الرب وما قبله من خلق وتدبير؟ إن في رفع السماوات بغير عمد ترونها واستوائه على العرش وتسخيره ما تحت العرش وتدبير الأمر وتفصيل الآيات، إن في ذلك كله آية لوجود الله ووحدته وعلمه

(١) سورة هود، الآية: ٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

وقدرته وعدله وحكمته، وهي كلها ذريعة لمعرفته وهي أفضل لقائه، ومن ثم لقاء الجزاء يوم الجزاء، فذلك الرفع الرفيع، والتسخير المنيع، والتدبير والتفصيل لكتاب التدوين والتكوين الوسيع، كلها توحي بعودة للخلق إلى الخالق فإنه من كمال التقدير الحكيم، ولولاها لكان تطويلاً بلا طائل، وتفصيلاً دون حاصل! «فنظرت العين إلى خلق متصل بعضه ببعض ودلها القلب على أن لذلك خالقاً وذلك أنه فكر حيث دلته العين على أن ما عاينت من عظم السماء وارتفاعها في الهواء بغير عمد ولا دعامة تمسكها، وإنها لا تتأخر فتنكشط ولا تتقدم فتزول، ولا تهبط مرة فتدنو ولا ترتفع فلا ترى»[1] والقادر على هذا الخلق العظيم الحكيم إبداعاً أقدر على إعادته مرة أخرى ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾[2]!.

ثم من السماء البعيدة المدى، القريبة لهذه الذكرى، إلى الأرض التي نعيشها ونمشي على مناكبها، هبوطاً للخط التصويري الهائل من السماء إلى الأرض، عرضاً للوحتها العريضة الأولى حين أكملها وبناها كما السماء بناها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾:

وهنا يرسم مدّ الأرض بعد خلقها كلمسة أولى لهذه اللوحة الفسيحة لساكنيها، ومن ثم خط الرواسي وخدُود الأنهار بخطوطها، ثم الثمرات الناتجة عن ازدواجية الخطين، وامتزاجهما تلو بعض وزوجية الثمرات وإغشاء الليل النهار في سباقهما على مدّ الآفاق ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

---

(١) نور الثقلين ٢: ٤٨١ عن كتاب الإهليلجة قال الصادق عليه السلام...

(٢) سورة ق، الآية: ١٥.

وللأرض مدان اثنان، مدٌّ أوّل لإحيائها كما هنا وفي أضرابها: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[١] ﴿... وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[٢].

ومدٌّ ثان لإماتتها: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾[٣] وأين مدٌّ من مدٌّ تعميراً وتدميراً؟.

ولأن المدّ ليس إلّا عن انقباض فلتكن الأرض قبل مدِّها منقبضة لا تحنُّ لجعل جبال ورواسي أو إلقائها عليها، فضلاً عن جعل الأنهار والثمرات، فبمدها قرّت فغرّت لقرارة الحياة عليها: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾[٤] وذلك هو ذلّها بعد شماسها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[٥] وفي ذلك كفاتها: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧﴾[٦].

ولأن الأرض كروية فمدها هو بسطها في حجمها، وعلّه على أثر حركاتها الدورانية حين ذوبانها، وقانون الفرار عن المركز يحكم بذلك الانبساط في جوانبها، فانجماد سطحها، وانبثاق أقسام منه هي أثقل من فوقها، وهي جبالها الراسية في متن أديمها وأعماقها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾!

ومن خلفيات جعل الرواسي جعل الأنهار حيث يدخر فيها من ثلج

---

(١) سورة الحجر، الآية: ١٩.
(٢) سورة ق، الآية: ٧.
(٣) سورة الإنشقاق، الآيتان: ٣، ٤.
(٤) سورة غافر، الآية: ٦٤.
(٥) سورة الملك، الآية: ١٥.
(٦) سورة المرسلات، الآيات: ٢٥-٢٧.

السماء وبردها ومائها خلالها، فتشق من أطرافها وأكنافها أنهارٌ يجري ماؤها فيها، أم تنبع نبعات في أكنافها فتجري أنهاراً صغاراً وكباراً.

فجعل الجبال يتبنى مد الأرض كما مُدّت، وجعل الأنهار يتبنى جعل الجبال، وجعل الثمرات يتبنى جعل الأنهار لأرض مستعدة للإثمار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾!

﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ تستغرق كل ما بالإمكان الراجح من مختلف الأثمار، فكل الثمرات الممكنةِ الكينونة، الراجحة في إمكانيتها، مجعولة في هذه الأرض، وعلّ «من» قبل ﴿كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ تشير إلى هذه المباعضة الراجحة وكما في أضرابها: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1] ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[2] ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]: ذلك وكما الجنة أيضاً كذلك: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾[4] فما كل ثمرة بالإمكان خلقها تصلح لخلقها في الأولى أو الأخرى، إلّا ما فيها رحمة راجحة.

وترى ما هما ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ والزوجان هما اثنان دون زيادة ولا نقصان؟ الزوج هو الفرد الذي له قرين، فكلٌّ زوج للآخر كما الآخر، وهو القرينان معاً، فلكي يدل على المعنى الأوّل: القرينين - قيدهما باثنين لكيلا يعنيا الأربع في المعنى الآخر، فمن الأوّل ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[5] ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢.
(٣) سورة النحل، الآية: ١١.
(٤) سورة محمد، الآية: ١٥.
(٥) سورة النساء، الآية: ١.
(٦) سورة النجم، الآية: ٤٥.

ولأن الثمرات أزواج وأقران لا - فقط - زوجين، فقد يعنيان الذكر والأنثى، ولا تعني الثمرات - فقط - الناضجات حتى يقال: إن زوجية الذكورة والأنوثة إنما هي في زهراتها دون نفس الثمرات المخلَّفة منها، حيث الثمرات هي ناتجات نابتات عن الأرض بأنهارها، منذ زهراتها إلى ناضجاتها.

فكل النابتات تحمل في ذواتها زوجين اثنين، فتضم أعضاء الذكورة وأعضاء الأنوثة مجتمعة في زهرة واحدة، أو متفرقة في العود، فهي لا يتولد ثمارها وحَبّها إلّا بين زوجين اثنين، كما والبعض منها - كذلك - زوجان اثنان.

عضو الذكر قد يكون عشيراً لعضو الأنثى في شجرة واحدة كالأغلبية الساحقة من الأشجار، وأخرى يقتسم العضوان بين شجرة وأخرى كما النخل وفي الواحدة أيضاً قد يجتمعان في زهرة واحدة كشجرة القطن، أم في زهرتين كالقرع، وذلك مما كشف العلم عنه النقاب بعد قرون عدة من نزول القرآن ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾! ومن ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ في الثمرات: الحلو والحامض، الرطب واليابس، الحار والبارد، الصيفي والشتوي أما ذا من زوجيات، وقد تجد في شجرة واحدة ثمرة ذات زوجين أم أزواج من ألوان وطعوم و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾! ثم ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ لمحة لامعة إلى كروية الأرض ودورانها، فذلك الإغشاء دليل كونهما مع بعض، فليست الأرض - إذاً - مسطحة ذات أفق واحد ليل كلها ثم نهار كلها، بل هي ذات آفاق في إشراقة الشمس عليها من مشرقها إلى مغربها، ففي كل انتقالة للأرض حول نفسها يغشي سرادق الليل وجه النهار: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾[1]: سريعاً جسيساً، فغشي الليل النهار في

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

طلبه السريع دليل على سرعة الحركة الأرضية وتبادل آفاقها في إشراقة الشمس عليها، فقبل أفق الشمس ليلٌ وبعده، والليل الخلفي لها يغشي نهارها الذي تنتقل عنه، كما والليل الآتي يغشاه النهار الذي يأتي، وآيته: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾(١) كما فصلناها تفصيلاً.

فلولا كروية الأرض لم يكن ليل ونهار مع بعض، ولولا حراكها حول نفسها لم يطلب الليل النهار حثيثاً، ومهما لم تكن كروية الأرض ودورانها معروفاً حين نزول القرآن وحتى ردح بعيد بعده، بل كان خلاف الحس والرأي العام، ولكنما التفكر في حالات الأرض يدلنا على ما يخفى منها فـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

إن في مدّ الأرض وجعل الرواسي والأنهار فيها، وجعل الزوجين من كل الثمرات فيها، وإغشاء الليل النهار، إن في ذلك المربع الربيع ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ عدة ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في آيات العلم والقدرة والحكمة والرحمة الواسعة!.

فعلى مدّ الزمن وتمديد الأفكار زمناً بعد زمن تظهر آياتٌ تلو آيات من هذا الكون البارع البديع لقوم يتفكرون، فيزدادوا على ضوئها معرفة برب العالمين، حيث العلم في توسُّعه الدائب هو من خدام الإيمان لو لم يخلد إلى الأرض اتباعاً للأهواء.

ولنقف هنا وقفة متأملة متعملة أمام تلك التقابلات الفنية في ذلك المشهد الرائع البديع، بين مدّ الأرض والرواسي والأنهار والزوجين من كل الثمرات وتلاحق الليل والنهار في إغشاء بطلب حثيث، من ثم إلى قطع الأرض:

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ

(١) سورة الزمر، الآية: ٥.

صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾:

أرض واحدة هي ﴿قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ على كونها قطعة ورقعة واحدة فما هو رمز الكثرة المتجاورة؟

لأنها حسب الحالات والأثرات ليست واحدة، فمنها السبخة النكدة، ومنها الجدبة المقفرة، ومنها صخرة صلدة، ومنها رخوة لينة، ومن ثم هي بين عامرة وغامرة، ريانة وعطشانة، حية مزروعة ومهملة ميتة أمّاهيه، وكلها أرض واحدة، تقابلات فنية في لوحة واحدة بقطع متجاورات، فليكن وراءَها تصميمة قاصدة واحدة حيث الاختلاف بذلك النسق المنضد المنظم دليل الإرادة الوحيدة، غير الكثيرة ولا الوهيدة.

هذه إجمالة جميلة عن هذه الأرض وإلى تفصيلات هي من خلفيات مختلف القطع بطباعها المختلفة: ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ فالأعناب والنخيل يمثّلان كل الأشجار المثمرة لأنهما أهمها نفعاً، والزرع يشمل كل ما يزرع، وهذه الثلاث بين ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ مع أن الكل ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ ثم ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ حيث استعمال العقل في مختلف هذه المظاهر على وحدة الأرض والماء دليل التصميم الهادف الوحيد، لولا ذلك فلماذا الاختلاف وهو لا يأتي إلّا عن مختلف، والماء واحد والأرض واحدة، والبذر الواحد يأتي بمختلف الأثمار لوناً وطعماً وحجماً!.

و﴿صِنْوَانٌ﴾ مثنى وجمع، واحده «صنو» وهو المماثل، وهو الغصن الخارج عن أصل الشجرة، فالصنوان هي الأمثال النابتة على أصل مشترك، وغير صنوان خلافها وهي من أصول عدة، فمن الصنوان مختلف الأعضاء، بين خضراء وحمراء وصفراء من شجرة واحدة، فترى ثمرات مختلفة حجماً

وطعماً ولوناً في نخلة واحدة، وعِنبات حلوة وحامضة، بين خضراء وحمراء وصفراء من شجرة واحدة وأرض واحدة وماء واحد، كما نرى متماثلات ومختلفات من أصول عدّة، فمن هذا الذي يجعلها مختلفة صنوان، أم متوحدة وغير صنوان إلّا الرحمن، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؟

وهكذا تكون الثمرات في أنسال الإنسان ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ وكما يروى عن النبي ﷺ قوله: «يا علي الناس من شجرتين وأنا وأنت يا علي من شجرة واحدة ثم قرأ الآية»[1] وقوله ﷺ «إن عم الرجل صنو أبيه»[2].

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ صنواناً وغير صنوان، فقد نرى تفاحات من شجرة واحدة مختلفة الطعوم مفضلة بعضها على بعض في الأكل حلاوة وحموضة أمّاهيه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أرض واحدة وماء واحد وشجرة واحدة والثمرة مختلفة، أترى هذه صدفة عمياء أم تصميمة قاصدة لألاء.

لسنا نقول أن ليست هناك علل طبيعية تؤثر هذه التأثيرات، ولكنها معلّلة بإرادة الله الواحد القهار، لو كانت هي الطبيعة وحدها كانت أثراتها على نسق واحد دونما اختلاف، ولا سيما في الصنوان، فسبحان العزيز المنان!.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾:

---

(١) الدر المنثور ٤: ٤٤ - أخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي وابن مردويه عن جابر ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا علي.. ورواه ابن شهر آشوب عن الخركوشي في شرف المصطفى والثعلبي في الكشف والبيان والفضل بن شاذان في الأمالي واللفظ له بإسنادهم عن جابر بن عبد الله ورواه النطنزي في الخصائص عن سلمان عنه ﷺ.

(٢) المصدر أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن مجاهد أن النبي ﷺ قال: لا تؤذوني في العباس فإنه بقية آبائي وإن عم الرجل صنو أبيه:

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ﴾ يا رسول الهدى أنت ومن تبعك بإحسان وكل من ألقى السمع وهو شهيد ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ﴾ من أمر يعجب ويحير العقول من حمقه في عمقه ﴿فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾ وقد كانوا تراباً ثم نطفة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾[1].

والخلق الجديد أهون من الخلق القديم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾[2] فكيف وهم معترفون بالخلق الأول، عارفون أن الثاني هو أهون، يستنكرون خلقهم الجديد وهو أحرى وأحق من الأول، حيث الأول قضية رحمة الله الراجحة، والثاني قضية رحمته الواجبة وعدله، ضرورة الجزاء يوم الجزاء، فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ كأن لا سواهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ أغلال الحيونة والشهوة، أغلال الجهل والجهالة، أغلال العناد والمتاهة، وأغلال الإخلاد إلى أرض المادة.

وليست «على أعناقهم» حتى يمكن وضعها عنها، وإنما ﴿فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ فهي مغلولة في أصل ذواتها وأعماقها بما كسبت أيديهم، وأن الله ليس بظلام للعبيد، ولأنهم في ذواتهم نيران مسعّرة فـ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

فلو كان الخلق الجديد مستحيلاً لأنه من التراب، فأحرى بالخلق القديم إحالة! ولو كانت الاستحالة في الخلق الجديد لتمزق تراب البدن وتفرقه في سائر الأبدان أم أيِّ مكان، فكذلك النطفة الجرثومية هي مأخوذة من ذرات في سائر البدن والأبدان: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ

(١) سورة الحج، الآية: ٥.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.

رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[1] ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾[2].

إن أصحاب الأغلال هنا، هم أصحاب الأغلال هناك، والخالدون في نيران الشهوات والضلالات هنا، هم خالدون في النار هناك ولا يظلمون نقيراً، فإنما طبق عن طبق، فأغلال عن أغلال، وخلود عن خلود.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾:

هؤلاء الحماقى الطغاة ليسوا ليتذكروا بأيّة ذكرى ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ استعجالاً بالعذاب: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ... يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[3]:

ولِمَ يستعجلونك بالسيئة وهناك الحسنة أحرى أن يستعجل بها؟ إنما ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ...﴾[4] فما استعجالهم إلّا تحدياً وإبطالاً لدعوة الحق استغلالاً له فاستقلالاً ثم استغفالاً للمستضعفين.

والسيئة المستعجل بها قبل الحسنة هي العقوبة التي تهدّدوا بها يوم الدنيا والأخرى وهم ناكروهما، فالأخرى لكفرهم بها، والأولى لنكراهم الوحي وتوحيد الربوبية.

إنهم هكذا يستعجلون ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ والمَثُلة نقمة

---

(١) سورة يس، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

(٢) سورة السجدة، الآيتان: ١٠، ١١.

(٣) سورة العنكبوت، الآيتان: ٥٣، ٥٤

(٤) سورة الشورى، الآية: ١٨.

تنزل بالإنسان فتُجعل مثالاً يرتدع به غيره فهي كالنكال، والمثلات التي خلت هي أمثال لما تهددهم من عقوبات الدنيا والآخرة، حيث الأولى تشهد للأخرى، كما تشهد لنظيرتها في الأولى لأنها كلها تشهد لصدق الوعد والوعد الصدق.

ألا «واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال فتذكروا في الخير والشر أحوالهم واحذروا أن تكونوا أمثالهم»[١]. ألا «فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته ووقايعه ومثلاته واتعظوا بمثاوي خدودهم ومصارع جنوبهم».

أو لا تكفي هذه المثلات التي خلت عبرة لصدق الرسالات، وليصدقوا أنباءها لعقوبات هنا، وفي الآخرة أشد وأنكى ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾[٢].

ألا فلينظروا إلى مصارع الغابرين حيث استعجلوا العذاب المهين فأصابهم حيناً بعد حين وتركهم مَثُلَةً يعتبر بها وأمثولة للكافرين، ثم لينظروا إلى رحمة الله الواسعة كيف يَعد عباده على ظلمهم: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ فالناس دون «المؤمنين» و﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ دون «التائبين» يدلاننا على سعة الرحمة المغفرة كأصل بين العباد، اللهم إلّا للمعاندين المتعنتين، السائرين في ظلمهم وعُتُوِّهم بكل عناد وعتاد ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾! فمن يصر في الظلم ويَلجّ ولا يبتغي باب الرحمة ليلِجَ، مستغنياً عن رحمة الله، مستعجلاً بعذاب الله فـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ والباقون هم في رحمة الله بشروط ودون شروط، ما دامت لا تمس من كرامة عدله.

---

(١) نور الثقلين ٢: ٢٨٢ ح ١٢ في كتاب التوحيد بإسناده عن أبي ذكوان قال سمعت إبراهيم العباسي يقول: كنا في مجلس الرضا عليه السلام فتذاكروا الكبائر وقول المعتزلة فيها أنها لا تغفر فقال الرضا عليه السلام قال أبو عبد الله عليه السلام قد نزل القرآن بخلاف قول المعتزلة قال الله جل جلاله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ...﴾ [الرّعد: ٦].

(٢) سورة غافر، الآية: ٣١.

ثم ﴿رَبَّكَ﴾ في الرحمة والعذاب، تلميحة أنهم كانوا مشركين، لهم أرباب متفرقون، وأن هذه الرحمة غير محدودة تستقصي كل ما بالإمكان من رحمة رحيمية، وكما أنزل كل رحماته على هذا الرسول العظيم.

كما وأن عذابه في موقفه العدل لا يُحدُّ ولا يُمنع: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾[1].

ثم ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ تعم النشأتين، والأولى هي المعلومة المتيقنة هنا، حيث المشرك لا يغفر في الأخرى، فعلّه قد يغفر عن مَثُلات العذاب هنا لعلهم يرجعون، أم يزيدهم عذابهم في الأخرى، كما وأن عذابهم في الأولى لعلهم يرجعون: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2] ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3] ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[4].

إذاً فليس غفر المشركين يوم الدنيا سماحاً عنهم فيما يظلمون، وإنما تأجيلاً عنهم لعلهم يرجعون، أم يزيد في عذابهم إن كانوا على الحنث العظيم يصرون: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ...﴾[5].

أجل وإن باب التوبة والمغفرة مفتوحة بمصراعيها على كافة الناس في هذه النشأة على شروطها المسرودة في القرآن، ثم من المعاصي ما تُغفر دون توبة في النشأتين كصغائر السيئات لمن يجتنب كبائر ما ينهى عنه، وصغائر الواجبات لمن يأتي بكبائر الحسنات، ثم لا مغفرة بعد الموت لمن مات

---

(١) سورة الفجر، الآيتان: ٢٥، ٢٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٨.
(٣) سورة الروم، الآية: ٤١.
(٤) سورة السجدة، الآية: ٢١.
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.

مشركاً فضلاً عن الملحد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[١].

و﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ دون غافر أو غفور، للإشارة إلى عدم فعلية الغفران لمن هو في حالة الظلم والطغيان، ولا سيما الظلم بعباد الله حيث لا يغفر إلّا أن يغفروا هم ظالميهم، فقد تدل «ذو» على شأنية الغفران للظالمين على ظلمهم إن تركوا ظلمهم وجبروا ظلامتهم، فليس هو تعالى ليغضب على الظالم لحد يسد عنه باب الغفران، ولأن الظلم يعم كل صغيرة وكبيرة فهذه الآية مما تشهد لغفران الكبائر كما الصغائر - وطبعاً - بشروطه[٢] فليعش الظالمون بين الخوف والرجاء فـ «لو لا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لأحد العيش ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد»[٣].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾:

لقد طعنوا في نبوته بنكران الحشر أولاً، وباستعجال عذاب الاستئصال ثانياً، وهنا يستأصلونها - في زعمهم - أن ليست لنبوته آية ثالثاً - وبذلك الثالوث المنحوس يظنونهم غالبين! ولم يأتوا فيها بشيء مبين إلّا شبهات واهية وادعاءات خاوية! ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ هي مقالة الناكرين لهذه الرسالة السامية، وليست هي من آيات الشرعة التدوينية فهنالك القرآن أفضل آية! إذاً فهي آية تكوينية لرسالته كما أوتي رسل الله من قبل: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.
(٢) الدر المنثور ٤ : ٤٥ - أخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال رسول الله ﷺ :
(٣) الدر المنثور ٤ : ٤٥ - أخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال رسول الله ﷺ : لولا . .

رِسَالَتَهُۥ. . .﴾[1] فقد كانت له آيات تكوينية عابرة على ضوء آية القرآن القمة الأصيلة، ولكنهم كانوا يتطلّبون منه آية كما أوتي رسل الله، تعذيبية مدمرة، أم إرشادية مقترحة كما يشتهون، وهذه الآية كأضرابها إجابة قاطعة عما كانوا يقترحون، فعن آيات مستأصلة: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[2] [3] وعن سائر الآيات الحسية العابرة ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فتلك الآيات الغابرة كانت تهدي من له شرعة عابرة، ولكنما الشرعة الدائبة القرآنية فآيتها دائبة كما هيه، فلا تكون - إذاً - كما أرسل الأولون.

وعن مطلق الآيات المقترحة أياً كانت: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ دونما أصالة في الإتيان بآية، أم وكالة عن الله في أيّة آية: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[4].

طبيعة آيات الرسالات أن تدل على صادق الوحي تدوينية كانت أم تكوينية، تخويفية أمّاهيه، فإنما الغاية المقصودة منها هي الحجة البالغة الإلهية، فليست - إذاً - في كمياتها وكيفياتها، في أمكنتها وأزمنتها، في الرسل الذين يؤتونها، ليست في ذلك كله إلّا كما يراه الله ويرضاه صالحة للتدليل على رسالة الوحي، فـ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[5]: رسالة الوحي، ورسالة الآية الدالة على الوحي أمّاهيه من كميّة وكيفية في أيّ زمان أو مكان من رسالته.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.
(٣) راجع تفسيرها في الإسراء.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

فـ ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ نكرانٌ لربوبيته له وإن كان رباً، إذ ما خوّله استنزال آيات كما يريدون، ومنها السيئة التي بها يستعجلون، وكسائر الآيات التي أرسل بها النبيون، والجواب كلمة قاطعة قاصعة: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ و﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا . . .﴾[١].

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ . . .﴾[٢] مما يخص العلم بالآيات المعجزات والقدرة عليها واستصلاحها بالله تعالى شأنه العزيز.

وهنا نجد في الإجابة عن سؤال: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تعريفاً بكيان الرسول ككل ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ إنذاراً بالوحي: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾[٣] وأما الوحي وآية الوحي فلست منهما في شيء، فإنهما - فقط - من الله دون سواه! ثم ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ من رسول كما أنا، ومن وحي كما القرآن، ومن آية للوحي كالقرآن وما قبله من آيات معجزات، ومن سائر ما يدل على رسالة الوحي.

ليس ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ عطفاً على ﴿مُنذِرٌ﴾ إذ لم يكن الرسول بشخصه ولا برسالته هادياً لكل قوم، حيث الأقوام قبله وقبل أقوامه كانت لهم هداة سواه، ثم الصيغة الصحيحة عن مغزى العطف «إنما أنت منذر وهاد لكل قوم» حتى لا يلتبس المعنى بينه وبين سواه، حيث القرآن بيان في قمته، ثم لا رباط في هداه ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ كما لا رباط بخصوص الهداة إليه، فلتعم كل هدى لكل قوم، أصلية وفرعية، رسالة أم آية لها معجزة تدل عليه.

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ٥٠-٥٢.
(٢) سورة يونس، الآية: ٢٠.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٤٥.

فإنما ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ﴾ تسلب عنه سائر المسؤوليات والمسألات إلّا الإنذار، فليس آية الوحي بيده كما الوحي، فإنهما من عند الله، ثم الله لا يهدي كل الأقوام بنسق واحد وآية واحدة، بل ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ إلى رسالة الوحي، ﴿هَادٍ﴾ رسولي ككافة الآيات المعجزة وفقاً لمناسبات الزمن وأهله والحاجيات التي يعيشونها، ووفقاً لصبغة الرسالة وصيغتها وصنيعتها، فالرسالة القرآنية في أجواء الفصاحة والبلاغة تتطلب آية خالدة تمشي مع الزمن هادية في كل الزمن حتى آخر الزمن، وهي بمتناول الأيدي في كل مكان وزمان، زمن الرسول وبعده حتى آخر زمن التكليف، إذاً فلا هادي إلى رسالة الوحي الأخير إلّا نفس الوحي الأخير في صيغة التعبير، وما يحويه من كل صغير وكبير: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[(١)]؟!، مهما كان نفس الرسول قرآناً كما القرآن وأفضل، حيث يزيد بياناً وتفسيراً وتعبيراً علمياً وتطبيقاً ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾[(٢)] فهو والقرآن يهديان إلى رسالة وحيه أصالة، ولكنما الهداية المنفصلة عنه إلى وحيه وشرعته تتمثل في الهداة معه وبعده، و«لكل قوم» يشملهم ومَن قبلهم من رجالات السماء وخلفائهم، والقرآن آية خالدة تمشي مع الزمن بردح يوازي ردح الرسالة لرسول الزمن محمد ﷺ.

فلا تنوب مناب هذه الآية الخالدة أيّة آية مضت في الرسالات الخالية غير الخالدة، إذ ليست لتهدي إلى هذه الرسالة السامية حجة لها بالغة، إلّا عابرة غابرة تخص زمن الرسول.

ومن ثم هناك هادٍ رسالي كمن رباه الرسول وصنعه على عينه من هارون لموسى والحواريين للمسيح، ومن علي أمير المؤمنين للرسول الأقدس محمد ﷺ فإنه هادٍ لرسالة وحيه وشاهد منه:

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.

(٢) سورة يس، الآية: ٦٩.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ...﴾[1] وقد تلاه شاهدٌ لرسالته منفصل عنه متصل به لأنه منه.

فعلي عليه السلام أصدق مصاديق من ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وكما يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيما تواتر عنه أنه وضع صلى الله عليه وآله وسلم يده على صدره فقال: أنا المنذر وأومأ بيده إلى منكب علي عليه السلام فقال: أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي»[2] اهتداء إلى هذه الرسالة السامية دون أية نقيصة أو زيادة.

ليس لعلي عليه السلام دور الهداية مستقلة عن هدي الوحي، فإنما هو - وعلى حدّ تعبيره - «فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنذر وأنا الهادي إلى ما جاء به»[3]

---

(١) سورة هود، الآية: ١٧.

(٢) الدر المنثور ٤: ٤٥ - أخرج ابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة والديلمي وابن عساكر وابن النجار قال لما نزلت: إنما أنت منذر ولكل قوم هاد - وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده... وأخرج مثله ابن مردويه عن أبي برزه الأسلمي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إنما أنت منذر ووضع يده على صدره نفسه ثم وضعها على صدر علي ويقول: لكل قوم هاد أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم وصححه وابن مردويه وابن عساكر عن علي بن أبي طالب عليه السلام في الآية قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنذر وأنا الهادي.

(٣) نور الثقلين ٣: ٤٨٢ ج ١٥ أمالي الصدوق بإسناده إلى عباد بن عبد الله قال قال علي عليه السلام ما نزلت من القرآن آية إلا وقد علمت أين نزلت وفي من نزلت وفي أي شيء نزلت وفي سهل نزلت أو في جبل نزلت قيل فما نزل فيك؟ قال: لولا أنكم سألتموني ما أخبرتكم نزلت في هذه الآية ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: ٧] فرسول الله..

ح ١٧ روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني في كتاب شواهد التنزيل بالإسناد عن أبي بردة الأسلمي قال: دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالطهور وعنده علي بن أبي طالب فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيد علي بعدما تظهر فألزقها بصدره ثم قال: إنما أنت منذر ثم ردها إلى صدر علي ثم قال: ولكل قوم هاد ثم قال: إنك منارة الأنام وغاية الهدى وأمير القرى أشهد على ذلك أنك كذلك.

- «فالهادي بعد النبي ﷺ هاد لأمته على ما كان من رسول الله ﷺ»[١] كما وإن «كل أمام هادي كل قوم في زمانه»[٢].

فـ «لا تخلو الأرض من قائم بحجة الله إما ظاهر مشهور وإما خائف مغمور لئلا تبطل حجج الله وبيناته»[٣].

ولئن سألنا: مَن هو الهادي بعد دور الرسول والأئمة الحضور زمن الغائب المغمور، القائم الموتور؟ فهل إنه العالم العليم الأتقى الأعلم في كل دور وكور، وليست هدايته خالصة كما الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول ﷺ فهذه الهدى غير المعصومة ولا العاصمة ليست بالتي تصلح خليفة من خلفاء الرسول في ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾؟! قلنا إن الهادي المعصوم على مرّ الزمن منذ الرسول ﷺ حتى القيامة الكبرى هو القرآن العظيم،

---

(١) المصدر ح ١٨ كشف المحجة عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه قال الله لنبيه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: ٧] فالهادي بعد النبي هاد لأمته على ما كان من رسول الله ﷺ فمن عسى أن يكون الهادي إلا الذي دعاكم إلى الحق وقادكم إلى الهدى.

(٢) المصدر ح ١٩ وفي كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد بن مسلم قال قلت لأبي جعفر في هذه الآية فقال. . . ومثله ٢٠ في أصول الكافي بإسناده عن الفضيل قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: ٧] فقال: كلّ إمام هاد للقرن الذي هو فيهم، ومثله ح ٢١ القمي بإسناده عن بريد العجلي عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: رسول الله المنذر ولكل زمان منا هاد يهديهم إلى ما جاء به نبي الله ﷺ ثم الهداة من بعده علي والأوصياء واحداً بعد واحد، فيه ٢٣ الكافي بإسناده عن أبي بصير قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: ٧] فقال: رسول الله ﷺ المنذر وعلي الهادي يا أبا محمد هل من هاد اليوم؟ قلت: بلى جعلت فداك ما زال منكم هاد من بعد هاد حتى دفعت إليك فقال: رحمك الله يا أبا محمد لو كانت إذا نزلت آية على رجل ثم مات ذلك الرجل ماتت الآية مات الكتاب ولكنه حي يجري فيمن بقي كما جرى فيمن مضى:

(٣) المصدر ح ٢٤ القمي عن حماد عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: المنذر رسول الله ﷺ والهادي أمير المؤمنين وبعده الأئمة عليهم السلام وهو قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: ٧] في كلّ زمان هاد مبين وهو رد على من ينكر أن في كلّ أوان وزمان إماماً وأنه لا تخلو الأرض. .

فكما الرسول كان ينذر بالقرآن كذلك خلفاؤه المعصومون الهادون إلى ما كان عليه، وليكن العلماء الربانيون هداةٍ بالقرآن كما يحق ويتمكنون، ثم الأخطاء حينئذ قلة مغفورة، أو مردودة إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وإن «القرآن لم يمت وإنه يجري كما يجري الليل والنهار وكما يجري الشمس والقمر»[١] فإنه «حي لا يموت»[٢] مهما وقف الرسول ﷺ والأئمة عن الجري، أو ماتوا وغاب آخرهم، فالقرآن لا يموت ولا يغيب عن المسرح إلّا إذا غيّبته حملَته، وخانته أمنته، اللهم غيِّب الحملة الخونة وأظهر الأمنة.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾:

تعريفة واسعة في هذه الآية وما بعدها بالسعة العلمية الإلهية وإعمال القدرة بمقدارها الصالح والأصلح، تربطها بما قبلها لكيلا يظن حماقى الكفر والطغيان أنه تعالى يعجز أو يظن بإنزال آية كما يقترحون.

فالعلم المطلق بما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وتزداد، هو من اختصاصات الربوبية، فلا يطارد مطلق العلم في بعض الأحوال بالبعض مما في بعض الأرحام، ما كشف عنه علم الجنين أو سيكشف، وما قد يعلمه أولو العلم المعصومون وسواهم.

---

(١) المصدر ح ٢٧ العياشي عن عبد الرحيم قال أبو عبد الله عليه السلام: إن القرآن لم يمت وإنه يجري..

(٢) المصدر ح ٣٦ العياشي عن عبد الرحيم القصير قال: كنت يوماً من الأيام عند أبي جعفر عليه السلام فقال: يا عبد الرحيم قلت لبيك قال قول الله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: ٧] إذ قال رسول الله ﷺ: أنا المنذر وعلي الهادي ومن الهادي اليوم؟ قال: فمكث طويلاً ثم رفعت رأسي فقلت جعلت فداك هي فيكم توارثوها رجل فرجل حتى انتهيت إليك فأنت جعلت فداك الهادي قال: صدقت يا عبد الرحيم إن القرآن حي لا يموت والآية حية لا تموت.

و﴿تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ هنا تحمل كل أنثى من شأنها أن تحمل، دون إبقاء، حيث الكل في لسان خالق الكل ليس ليختص بالبعض من الأناثى التي نعرفها.

فكل أنثى من إنس وجان أم أي نبات أو جماد أو حيوان أم أيّاً كان في فسيح الكون، معنيَّة بـ ﴿كُلُّ أُنثَىٰ﴾ من ذوات الأرحام وسواها، مما تغيض وتزداد وسواها، فناصية الآية تعمها كلها مهما اختصت الباقية بذوات الأرحام.

ثم ﴿مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ تعم حملها حينما تكون ﴿مَا﴾ مصدرية، وما تحمله موصولة، كما فيما تغيض الأرحام وتزداد.

وفيما يخص ذوات الأرحام من مطلق الحيوان إنساناً وغير إنسان ليس ﴿مَا تَحۡمِلُ﴾ الجنين فقط، أو النطفة الجرثومية فقط، بل هو كل ﴿مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ من ماء الذكر في كمه وكيفه بعديد الملايين من دوداته العلقية المنوية، أم من أصلاب عُقم في أرحام عقم، أم دون عقم في أرحام ولودة، وفي الولودة حين تنضج أو تعقم لحالات طارئة أم معمَّدة، وفي الناضجة حين تجهض أم تلد سليمة أم ناقصة، أم أية حال على أية حال.

ثم الغيض هو النقص بابتلاع كما ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾[1] ابتُلع، والغيضة هي المكان الذي يقف فيه الماء فيبتلعه، ولأن حقيقة الغيض إنما يوصف بها الماء فـ ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ هو الماء، وهنا بطبيعة الحال مطلق السائل حيث الأرحام لا تبتلع الماء القراح، فغيضها يعم مياه المني والنُّطَف، ومياه الحيض.

ولأن ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ هنا مطلق فقد يعمهما، وأين غيض من غيض و﴿وَمَا تَزۡدَادُ﴾ في كلّ بحسبه.

(١) سورة هود، الآية: ٤٤.

فمما ﴿تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ وتبتلع، النطف التي تجذبها إلى أعماقها في قراراتها، وتشتمل على نفاياتها، فيكون ما غاضته من ذلك الماء سبباً لزيادة فيها وسعة لها حيث تصبح علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم كسوة لها لحماً ثم إنشاءً لخلق آخر فإنساناً، والعطف هنا ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ في ذلك الردف يجمع بينهما في ولودة الأرحام.

ومنها ما تبتلع غيض الانتقاص الامتصاص بأن تفسده أو تجهضه، إذاً فـ ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ قد تعني زيادة الابتلاع الأوّل فزيادة في الأجنَّة ذكراً وأنثى[١] أما زاد، وبينهما عوان أن تغيض جنيناً واحداً فتغيض هكذا ولا تزداد ومما ﴿تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ النقص في مدة الحمل وازديادها بين أقلها: الستة وما دونها، وأقصاها: التسعة أو ما زاد[٢] والمستفاد من آية العامين: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾[٣] وآية الحمل ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[٤] أن أقل الحمل ستة، ثم لا يزيد على تسعة إلّا أياماً قلائل، فأغرب بالأئمة الثلاثة كيف مدوها إلى سنتين وأربع وخمس[٥]؟.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٤٨٥ ح ٣٣ العياشي محمد بن مسلم وحمران وزرارة عنهما عليهما السلام قالا: ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أنثى أو ذكر ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ التي تحمل ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرّعد: ٨] من أنثى أو ذكر، عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ [الرّعد: ٨] قال: ما لم يكن حملاً ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: الذكر والأنثى جميعاً.

(٢) في تفسير الفخر الرازي ١٩: ١٥، مدة ولادته قد تكون تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند أبي حنيفة وإلى أربعة عند الشافعي والى خمس عند مالك وقيل إن الضحاك ولد لسنتين وهرم ابن حيان ويقي في بطن أمه أربع سنين ولذلك سمي هرماً.

(٣) سورة لقمان، الآية: ١٤.

(٤) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

(٥) نور الثقلين ٢: ٤٨٥ ح ٣٢ العياشي عن أحدهما عليه السلام في ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ يعني الذكر والأنثى ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ [الرّعد: ٨] قال: الغيض ما كان أقل من الحمل ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ ما زاد من الحمل، فهو كل ما زاد من الدم في حملها ح ٣٥ زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول =

ومما «تغيض الأرحام وتزداد» دم الحيض، تغيضه الأرحام ابتلاعاً، طعاماً وشراباً للجنين، وما تزداد الأرحام منه دفعاً عنها وقت الحمل أحياناً، وقبله وبعد الإجهاض أو الولادة دوماً.

ومن الأرحام ما لا تغيض ولا تزداد حملاً أو دماً كمن قبل سن الحيض وبعد اليأس، والتي لا تحيض أو هي في سن من تحيض وهي عقيمة، فهذه الأرحام قد تحمل المنى ولكنها لا تغيض ولا تزداد.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من حمل وسواه، وغيض وازدياد في حمل وسواه ﴿عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ دون تفلُّت ولا تلفُّت وصدفة عمياء ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[1] فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[2].

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾:

الغيب عن بصر أو بصيرة، والشهادة لبصر أو بصيرة، هما أمران نسبيان بالنسبة للعلم المحدود، فالغيب المطلق لا يعلمه إلّا الله، والشهادة المطلقة يعلمها كل شاهد، والعوان بينهما من مطلق الغيب والشهادة يختلف بمختلف الحدود في العلوم، وكل هذه الثلاث شهادة مطلقة للكبير المتعال ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3] لأنه رب الجميع ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[4] ﴿رَبِّكَ﴾ حيث الجمعية التامة

= الله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الرّعد: ٨] قال: الذكر والأنثى ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ [الرّعد: ٨] قال: ما كان من دون التسعة وهو غيض ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرّعد: ٨] قال: ما رأت الدم في حال حملها ازداد به على التسعة أشهر.

(١) سورة الحجر، الآية: ٢١.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٣.

(٤) سورة يونس، الآية: ٦١.

لربوبيتي فيك طامة، فكما لا تعزب أنت عن علم ربك وأنت خلاصة الكون ومجمله، كذلك لا يعزب عنه أي كائن بتفصيله.

ذلك العلم المطلق منحصر فيه، منحسر عن سواه، لأنه الكبير لا كبير سواه، كبر اللّامحدودية ذاتية وصفاتية وأفعالية، علمية وفي القدرة أمّاهيه، فكيف لا يحيط علماً بما سواه وهو الذي خلقه، ثم ولا أكبر منه ولا يتصور حتى يغيب عنه كما يغيب هو عما سواه، فإنه ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ عن أن يحيط به شيء أو يدانيه أو يساميه، تعالياً في كافة ميِّزات الربوبية، فلا كبير إلّا هو ولا متعالي إلّا هو، فلا يعلم الغيب والشهادة على سواء إلّا هو، وكل شيء سواه جاهل بجنبه، صغير متدان، خاذل مُهان.

فحين يقال عنه ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ فهو الكبر في ذاته وذاتياته وقياساً إلى مخلوقاته ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[1] وحين يقال عنه «أكبر» فلا يعني إلّا أنه أكبر من أن يوصف أو يحاط به علماً أو قدرة أو يساوى ويسامى في كبريائه، لا أنه أكبر من كل شيء، إذ لا كبير أمام كبريائه حتى يكون هو الأكبر منه، مشاركاً له في أصل كبره، ولذلك لم يأت في القرآن عنه الأكبر، إلّا الكبير المتعال والعلي الكبير، ليكون حصر الكبر في الله وحسره عن غير الله، واضحاً لا يريبه شك، إذاً فلأنه الكبير المطلق فهو المتعال الأكبر عن أن يحاط به.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾:

إن مجاهيل السرائر والأسرار، ومجاهير السوارب والآثار، وكل شاردة وواردة آناء الليل وأطراف النهار، كل هذه جاهرة ظاهرة أمام ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٦٢.

ومن ذلك غيب القول ممن أسر به وشهادته ممن جهر به. فإنهما بالنسبة له جهار، كمن هو مستخف بالليل في بعدي غيب الليل بظلامه وتغيّبه واستخفائه في غيبه، ومن هو سارب: ذاهب في صدور وانحدار ﴿بِالنَّهَارِ﴾، شهادة في بعدي ضوء النهار وانجلائه ذاهباً أمام الناظرين.

فسواء أكان الإنسان مستخفاً في الظلمات أم ظاهراً في الطرقات فالله يعلمه على سواء، كما وأن قدرته بكل شيء على سواء، ودنوه من خلقه فيهما على سواء!.

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)﴾:

آية عديمة النظير في صيغة التعبير، اللهم إلّا في الأخير: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١) وقد تختلفان في مختلف التغيير، فهنا ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ قد يعم الخير والشر، وفي الأنفال يختص بالشر.

ثم ﴿مُعَقِّبَاتٌ﴾ جمع «معقبة» مبالغة «معقب» كما العلّامة للعلام فتاؤها للمبالغة دون التأنيث لمكان ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ مذكراً، وإن الملائكة ليسوا إناثاً.

وهنا ﴿مُعَقِّبَاتٌ﴾ وليست «عاقبات» حتى تختص بـ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ ويختلق لـ ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ رقيب، فالمختلق لفظ الآية «له معقبات من خلفه ورقيب من بين يديه يحفظونه بأمر الله من أمر الله»(٢) حيث ينسبها إلى الصادقين من

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.
(٢) نور الثقلين ٢: ٤٨٢ ج ٢٩ في كتاب المناقب لابن شهر آشوب حمران قال قال لي أبو جعفر عليه السلام وقد قرأت: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الرّعد: ١١] قال: وأنتم عرب يكون المعقبات بين يديه؟ قلت: كيف تقرأها؟ قال: له معقبات من خلفه ورقيب من بين =

آل محمد ﷺ زوراً وغروراً، إنه كذاب أشر لا يعرف اللغة فيهرف بما يخرف تحريفاً للآية وقد روي خلافها[1].

والمعقب من التعقيب هو أن يأتي بشيء بعد آخر، وهو الرقابة وكالة من شخص على آخر أم على نفسه ليراقبه، والمعقبة هو الحفيظ الذي يتعقب كل إنسان، يحفظ عنه كل شاردة وواردة، وكل خاطرة وخالجة أو خارجة يحفظ عليه كل حسنة وسيئة حفاظاً مزدوجاً له وعليه، وحفاظاً متراوحاً.

فملائكة الليل والنهار معقبات إذ يأتي كل تلو الآخر، وقد يتواردان كما في قرآن الفجر ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[2] لملائكة الليل والنهار[3].

= يديه يحفظونه بأمر الله، من أمر الله أقول فمختلق هذه الرواية لا يعرف لغة العرب فلم يميز معقبات عن عاقبات، ثم كيف يحفظونه بأمر الله من أمر الله، فهل الله يعارض أمره الأصل بأمره الفصل؟ ومثله عن القمي بعد نقل الآية فقال أبو عبد الله عليه السلام كيف يحفظ الشيء من أمر الله وكيف يكون المعقب من بين يديه؟ فقيل له: وكيف ذلك يا بن رسول الله ﷺ؟ فقال: إنما أنزلت: له معقبات من خلفه ورقيب من بين يديه يحفظونه بأمر الله.

(١) المصدر ح ٣٨ تفسير العياشي عن فضيل بن عثمان عن أبي عبد الله في هذه الآية ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ...﴾ [الرّعد: ١١] قال: هو المقدمات المؤخرات المعقبات الباقيات الصالحات».

أقول: تراه ترك الآية على حالها وفسرها بما فسر، وفي الدر المنثور بسند بمتنه أوردناه تحت العدد (٢) مثله عن الرسول ﷺ في نقل: كما هي في القرآن.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.

(٣) لقد تظافرت الرواية عن الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته في تفسير الآية ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسرَاء: ٧٨] أنه مشهود لملائكة الليل والنهار حيث يتعاقبون فيها ويتوافقون في شهود قرآن الفجر طائفة ذاهبة وطائفة جائية، وفي الدر المنثور ٤: ٤٧ - أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: هم الملائكة تعقب بالليل والنهار تكتب على بني آدم، وفيه أخرج ابن جرير عن كنانة العدوي قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ! أخبرني عن العبد كم معه من ملك؟ فقال ﷺ: ملك عن يمينك على حسناتك وهو أمين على الذي على الشمال إذا عملت حسنة كتبت عشراً فإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين اكتب قال: لا لعله يستغفر الله ويتوب فإذا قال ثلاثاً قال نعم اكتبه أراحنا الله منه فبئس القرين ما أقل مراقبته لله وأقل استحياءه منه يقول الله: ما =

وكلّ منهم يحفظون علينا أعمالنا ويكتبون ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾[(١)].

كما كل منهم ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ نفسه، كما يحفظون أعماله ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وإن كان ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾[(٢)] كما ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[(٣)] ولكنه ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾[(٤)] حفاظاً على أنفسنا وأعمالنا، وكل ذلك بأمر الله ومن أمر الله، و«إنهم ملائكة يحفظونه من المهالك حتى ينتهوا به إلى المقادير فيخلون بينه وبين المقادير»[(٥)] التي تقدرت عليه بما غيّر من نفسه.

وترى إذ لم يكن محمد ﷺ وهو أوّل العابدين حفيظاً ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[(٦)] فكيف يكون الملائكة وهم دونه حفظة؟! إن الحفظ المنفي

= يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله: له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، وملك قابض على ناصيتك فإذا تواضعت لله رفعك وإذا تجبرت على الله قصمك وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على النبي ﷺ وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية في فيك وملكان على يمينك فهؤلاء عشرة أملاك على كلّ بني آدم ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكاً على كلّ آدمي وإبليس بالنهار وولده بالليل.

(١) سورة الانفطار، الآيات: ١٠، ١٢.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٦.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٢١.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

(٥) المجمع رواه عن علي عليه السلام في الدر المنثور ٤: ٤٨ - أخرج أبو داود في القدر وابن أبي الدنيا وابن عساكر وأخرج ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان والطبراني والصابوني في المائتين عن أبي أمامة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: وكل بالمؤمن ثلاثمائة وستون ملكاً يدفعون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك للنصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل من الذباب في اليوم الصائف وما لو بدا لكم لرأيتموه على كلّ سهل وجبل كلهم باسط يديه فاغر فاه وما لو وكل العبد فيه إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين.

(٦) سورة النساء، الآية: ٨٠.

هو الحفاظ على هداهم، إذ ليست إلّا لله دونما وكالة، وأما الحفاظ على أعمال للشهادة يوم يقوم الأشهاد، فقد يعم بعض المؤمنين فضلاً عن الرسول وسائر المرسلين ومعهم الملائكة الكرام الكاتبون.

وكذلك الحفاظ على كل شارد ووارد، له أهل خصوص وليس من شأن الرسل الدعاة إلى الله، مهما خُوِّلوا في ذلك بقليل أو كثير.

هؤلاء هم المعقبات، وهذه شؤونهم المحولة إليهم في خلق الله ليل نهار، اجتلاباً لخيراتهم، وإبعاداً عنهم سيئاتهم ما لم يغيروا ما بأنفسهم، وحفاظاً على أعمالهم التي يعملون، ولكي يشهدوا لهم أو عليهم فيمن يشهدون.

أترى إلى مَ يرجع الضمير في «له»؟ إلى الله؟ وهو أبعد مرجعاً! و﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ دون «من أمره» يبعده راجعاً، حيث يرجع المعنى «لله معقبات» ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ ثم ووحدة السياق في الضمائر توحدها مرجعاً وهي أوفق بأدب اللفظ وأدب المعنى.

أم إلى رسول الله ﷺ؟ ولم يسبق له ذكر! ولا تخصه المعقبات ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾[1]!

أم إلى ﴿مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾؟ فنعماً هيه، حفاظاً على وحدة الضمائر الأربعة «له - يديه - خلفه - يحفظونه» وتقريباً للمرجع، وأحسن به حين يعني «له» مرسل المعقبات والمرسل إليهم، فهم لله حيث يرسلهم الله: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ وهم لعباد الله حيث «يحفظونهم من أمر الله» فـ ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾[2].

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦١.
(٢) سورة الانفطار، الآيتان: ١٠، ١١.

ثم ترى ماذا تعني ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾؟ أحفظاً من الله عن بأسه ببؤسهم ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾! ثم وكيف يرسل الله من يعارض أمره! أم حفظاً لعباد الله بأمر الله؟ وهنا ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ دون «بأمر الله»! بل حفظاً صادراً من أمر الله، كما الحفظة هم أنفسهم من أمر الله، حيث المناحرة لأمر الله هي حفظ عن أمر الله لا ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ ثم و«بأمر الله» تختص بحفظهم دون أنفسهم، ولكن ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ تتعلق بالكائن المقدر كما بـ ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ فالمعقبات هم له تعالى، وهم من أمره تعالى[(١)]، ويحفظون عباده صادرين في حفظهم من أمره تعالى فهم في مثلث الرباطات بالله لا يملكون لأنفسهم أمراً إلّا بالله.

فكما الروح من أمره يحمل أمره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾[(٢)] ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾[(٣)] كذلك الحفظة المرسلون من عنده هم في أنفسهم من أمره، يحملون أمره ليحققوا أمره، فلا أجمل - إذاً - ولا أجمع هنا من ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾! فهؤلاء المعقبات - وهم من أمر الله وفعله وإرادته ومشيئته - هم لله صادرين، وهم للناس واردين ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ تعبيراً عن جميع جوانبه بروحه وجسمه، حيطة شاملة كاملة لا تبقي منهم شيئاً ولا تذر إلّا تحت الرقابة والنظر ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ بحفظ الله وفي رعاية الله ورقابته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾[(٤)] يحفظونه عن الطوارئ المتواترة المتواردة عليه، الغائبة والشاهدة لديه، التي لا يقدرون عليها، وكما ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ في أعماله وأقواله وكل أحواله، حفظاً صادراً ﴿مِنۡ أَمۡرِ

(١) الدر المنثور ٤: ٤٧ أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ﴾ [الرعد: ١١] قال: الملائكة من أمر الله.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٣) سورة غافر، الآية: ١٥.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٥٢.

﴿ٱللَّهِ﴾ دون أمرهم، إذ لا أمر لهم إلّا من الله، كما وهم أنفسهم من أمر الله.

فالناس - إذاً - في حفظ الله ورعايته ورقابته الدائبة، ولكنها شريطة أن يحافظوهم - أيضاً - على أنفسهم كما يحافظون، فإذا غيّروا ما بأنفسهم غير الله بهم وأغار عليهم، غياراً من ذوات أنفسهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من الحفاظ عليهم ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من حفاظهم على أنفسهم ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

وهذا الغيار مرحلة أولى للذين غيَّروا ما بأنفسهم حيث يكلهم إلى أنفسهم ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[2] فإنهم ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[3].

ثم مرحلة ثانية ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[4] فـ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[5] ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾! إذاً فبينَ الحالات الأنفسية والآفاقية هالة مترابطة، والأصل فيهما كما جعل الله خير وإلى خير، فأعمق الحالات الأنفسية هي لفطرة الله التي فطر الناس عليها، وذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ثم العقل على ضوئها إذا تبناها، ثم الآفاقية فإنها آيات منفصلة تتجاوب مع الآيات الأنفسية، ثم الله يرسل عليكم معقبات حفظة يحفظونكم من أمر الله.

هذه أصول ما بالإنسان من خيرات أنفسية وآفاقية، لا يغيرها الله إلى شرور حتى يغيروا ما بأنفسهم، فإذا غيروا غيّر الله جزاءً وفاقاً ولا تظلمون

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٠.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٧٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٥.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٧٢.

نقيراً، فـ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[1] و﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾[2].

ثم غيار بالأنفس تختلف في الخير والشر، ففي الشر ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ في النشأتين ولا سيما في الأولى لأنها ليست بدار جزاء، وفي الخير مزيد من فضل الله ولا أقل من عشرة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾[3].

ومهما اختصت آية الأنفال بغيار الأنفس إلى الشر. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[4] فآيتنا هذه تعمه وغيارها إلى خير مهما تذيلت بتهديد الشر.

فإذا كان ما بأنفس قوم شراً فغيروا إلى خير غير الله شرهم إلى خير، وهذه قضية رحمته اللازمة اللازبة حيث ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ وتتبناه أبواب الشفاعة والغفران وتكفير سيئات.

وإذا كان ما بأنفس قوم خيراً - كما هو خير بما جعل الله - أما زادوا بما وفق الله - ثم غيروه إلى شر غيّر الله خيرهم إلى شر وأقل منه شراً حيث ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ ثم ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾! وليست إرادة السوء من الله لأي قوم إلّا بعدما يغيروا ما بأنفسهم من خير: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾[5] [6].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.
(٢) سورة التغابن، الآية: ١١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.
(٥) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٨، ٢٩.
(٦) نور الثقلين ٢: ٤٨٧ ح ٢٥ في كتاب معاني الأخبار بإسناده إلى أبي خالد الكابلي قال:=

هذه ضابطة سارية المفعول بالنسبة لكل قوم، وترى الأفراد تشملهم كأفراد، أم - فقط - ضمن الأقوام؟ إنها سارية في الأفراد في الناحية الروحية دونما استثناء، وأما المادية ففي ضمن الأقوام: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(١).

فالجو الجماعي إذا ساده الصلاح والإصلاح فالبركات السماوية: الروحية، والأرضية: المادية، تفتح عليهم، وإذا ساده الفساد والإفساد فلدركات من هذه وتلك إلّا على من اتقى الله فله بركاته الروحية مهما ضاقت عليه الأرض بحياته الأرضية، حيث التقوى ليس نتاجها اللزام أن لها بركات أرضية، إلّا في الآخرة: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾(٢)! وإلّا ضمن جماعة(٣).

كما الطغوى لا تلازمها دركات أرضية، إلّا في الآخرة، إلّا ضمن جماعة أم إذا طالت وتطاولت فيما طغت وبغت.

في حديث قدسي يرويه الرسول الأقدس ﷺ عن الله: «يقول الله وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهته من معصيتي ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت

= سمعت زين العابدين عليه السلام يقول: الذنوب التي تغير النعم البغي على الناس والزوال عن العادة في الخير واصطناع المعروف، وكفران النعم وترك الشكر.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٢) سورة النجم، الآية: ٤١.

(٣) نور الثقلين ٢: ٤٨٧ ح ٤٦ أصول الكافي بإسناده عن سدير قال: سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [سبأ: ١٩]: فقال: هؤلاء قوم كانت لهم قرى متصلة ينظر بعضهم إلى بعض وأنهار جارية وأموال ظاهرة فكفروا بأنعم الله عز وجل وغيروا ما بأنفسهم فأرسل عليهم سيل العرم فغرق قراهم وخرب ديارهم، وأذهب بأموالهم وأبدلهم مكان جناتهم ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦] ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

من طاعتي إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي، وما من أهل بيت ولا قرية ولا رجل ببادية كانوا على ما أحببت من طاعتي ثم تحولوا عنها إلى ما كرهت من معصيتي إلا تحولت لهم عما يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي»[١].



(١) الدر المنثور ٤ : ٤٨ - أخرج ابن أبي شيبة في كتاب العرش وأبو الشيخ وابن مردويه عن علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول الله وعزتي...

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾:

البرق ظاهرة كونية باهرة مبشرة أحياناً وقاهرة أخرى، قد تخافونها لأنها بنفسها ورعدها تهز الأعصاب وترعد الأسماع، فقد يتحول إلى صاعقة العذاب الهون، أم تنذر بسيل مدمِّر أم طوفان مزمجر، وأخرى مبشرة بهاطل المدرار المجري للأنهار، أم تجمع بين التبشير والإنذار حيث تبشر جماعة يحتاجون المطر، وينذر من يتضررون بالمطر، فأنتم تعيشونها خوفاً وطمعاً، كما ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ محمَّلة حمل الماء ليرسل عليكم مدراراً وغير مدرار.

والسحاب تأتي جمعاً كما هنا وفي الأعراف: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا...﴾[(١)]. وواحدها سحابة، أم مفرداً اسم جنس كما في سائر القرآن[(٢)].

ثم ﴿يُرِيكُمُ﴾ يلمح بوجود البرق قبل إراءته في كمون الكائنات ومنها السحاب المسخرة في جو السماء، فتعم البرق المصطنع المخترع، فالبرق كامن في كل كائن، قد يريه الله إيانا دون وسيطنا كما في سائر البرق، وأخرى بوسيطنا كما في الكهارب المخترعة، فهنا إراءة بما نسعى، وهناك نراه ولا نسعى، وتجمعهما إراءة الله، كما وهو من خلق الله.

فليس البرق - أياً كان - ليُخلق باصطكاك وسواه، وإنما يَظهر بعد خفائه بما يظهره إلهياً بأسبابه غير الشاعرة، كالسحاب وسواه، أم بأسباب شاعرة كالإنسان وسواه، فكله من إراءة الله كما الكل من خلق الله.

وكذلك السحاب ثقالاً وغير ثقال كلها مما أنشأها الله، بما يسحبه هو من أبخرة أرضية ولذلك يسمى السحاب، أم يسحبه إنسانه أم سواه فيصطنع سحاباً موضعية لحاجة شخصية أماهيه.

فمن السحاب ثقال هي ركام مؤلفة من خفافها المزجاة من الأبخرة: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[(٣)].

ومنها خفاف لا تحمل ماءً حاضراً إلّا بعدما تؤلّف فتصبح ركاماً، وعلى

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

(٢) ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] و﴿سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ [الطور: ٤٤] ﴿يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾ [النور: ٤٣] ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الروم: ٤٨] ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ [فاطر: ٩].

(٣) سورة النور، الآية: ٤٣.

أية حال فإنشاء السحاب الثقال هو من فعل الله، سواءً دون وسيط عاقل محسوس كما في سائر السحاب، أم بوسيط الإنسان وسواه كما حصل أخيراً بتعملات علمية جاهزة.

ومن غريب التكوين اللّامح إلى قريب المكون الحكيم، إراءة البرق باصطكاك السحاب خفافاً وثقالاً، فإنها أبخرة الماء، والماء يناحر النار فكيف تطلع منه نارٌ، سبحان الواحد القهار، أفلا يدل ذلك الصنع العجاب على تقصُّد وإرادة حكيمة وراء الكائنات كلها؟!.

إنه يريكم البرق من أبخرة الماء، كما النار من الشجر الأخضر ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[1].

وقد تلمح ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ بعد ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ أن إنشاء السحاب الثقال من موارد إراءة البرق، ففي تأليف خفاف السحاب اصطكاك بينها تلاحقاً وتجمعاً ركاماً، كما في اصطكاكها ركاما برق وبرق، وأين برق من برق؟ فكلما اشتد الاصطكاك بشدة الوقع وثقل السحاب اشتد البرق ولحد الصاعقة.

قد يحصل البرق من تقارب سحابتين مختلفتي الكهربائية حتى يصير ميل الكهربائية الواحدة للاقتراب من كهربائية الأخرى أشد من قوة الهواء على فصلهما، فتهجم كلٌّ على الأخرى بنور زاهر قاهر وصوت قوي، فالنور هو البرق والصوت هو الرعد.

فقد تصدق الرواية القائلة: «البرق مخاريق من نار بأيدي ملائكة السحاب يزجرون به السحاب»[2] والقائلة: «أن مَلكاً موكل بالسحاب يلم

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٠.

(٢) الدر المنثور ٤ : ٤٩ - أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في سننه من طرق عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: البرق مخاريق. .

القاصية ويلحِّم الدانية في يده مخراق فإذا رفع برقت وإذا زجر رعدت وإذا ضرب صعقت»[١].

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣﴾:

التسبيح بالحمد هو سلب بالإيجاب، وهو الصحيح الفصيح في حمده سبحانه أن يسبَّح في حمده بصفاته العليا وأسمائه الحسنى، يسبَّح تنزيهاً عما لا يليق به من صفات المخلوقين، مهما تشابهت صفات بصفات في ألفاظها، فحمده بأنه عليم حي قديرٌ، يفصحه تسبيحه عن علم من سواه وحياته وقدرته: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ...﴾.

فكما الملائكة يسبحونه بحمده من خيفته، كذلك الرعد وسائر الكائنات والحادثات الكونية حيث تثبت له صفات الربوبية، تنزيهاً عن سائر الكائنات المربوبين، وهذا من تسبيحها بحمد الله.

ولا نجد رعد القرآن إلّا هنا في الرعد مسبحاً بحمده، وفي البقرة بصيِّبه: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ﴾[٢] فالبرق هو النور البارق، والرعد هو الصوت الخارق، وهما من حصائل الاصطكاكات السحابية والتفريغات الكهربائية.

وفيما يروى عن الرسول ﷺ هو «ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب بيديه مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله...»[٣] والتعبير

(١) المصدر أخرج ابن مردوه عن جابر بن عبد الله أن خزيمة بن ثابت سأل رسول الله ﷺ عن منشأ السحاب فقال: إن ملكاً...

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩.

(٣) الدر المنثور ٤: ٥٠ - أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والضياء في المختارة عن ابن =

عن القوات الكونية وحادثاتها بالمَلَك، علّه للإشارة إلى أنها مقصودة مدبّرة دون فوضى جزاف.

ولماذا يتقدم تسبيح الرعد بحمده على تسبيح الملائكة من خيفته وأين تسبيح من تسبيح؟ علّه للتأشير إلى أن الكون كله يسبح الرب بحمده، دون عقل وإدراك كما يزعمون، أم بعقل فائق كما الملائكة الكرام يعقلون، فالكل له يسبحون ويسجدون طوعاً أو كرهاً، والرعد من الطائعين مهما كان الكافر من المكرهين، فإنه يسجد بحمده بكونه، مهما تخلف عنه في كيانه، ولأن الرعد - كما البرق والصاعقة - هو من صكاك أجرام السحاب اللطيفة الطفيفة، إذاً فأصواته الصريخة تقوى بها الدلالة على عظيم قدرة الله المقدَّرة ويُعده عن شبه الخليقة المقدَّرة، وصفات البرية المدبَّرة، حيث الرعد إنما تغلظ أصواته، وتعظم هزّاته، باصطكاك السحاب الخفيفة - على كونها ثقالاً بالمياه - معلقة بالهواء الرقيق، فأين الرعد المرعد من خفيف وخفيف، سبحان القدير اللطيف! فلولا دعائم القدرة وسماكها، وعلائق الجبرية ومساكها لما حمل عشر معشارها ولا استقلَّ ببعض أجزائها.

ثم نرى أنه على تثاقل أردافه وتعاظل التفافه ينفشُّ انفشاشَ المتداعي، والغثاء المتلاشى، إن في ذلك لعبرة لأولي النهى، حيث الرعد يسبح - هكذا - بحمده، ويحمل المرتعدين أن يسبحوه بحمده، حيث يضطرهم إلى تسبيحه عند سماعه، مهما تغافلوا عنه قبل سماعه! ثم الصاعقة وهي البرق الراعد الذي يصعق من يصيبه، هي اشتداد البرق والرعد لحد يتجاوز جو السماء إلى ساكن الأرض، كما الأحجار السماوية، فإنها شهب قوية ونيازك

= عباس رضي الله عنه قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم إنا نسألك عن خمسة أشياء فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على نبيه إذ قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القَصَص: ٢٨] قال: هاتوا قالوا أخبرنا - إلى أن قالوا -: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك..

نارية تقوى فتصيب شياطين الأرض، كما تهدف شياطين السماء، وكذلك الصاعقة: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(١) ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢).

وهكذا نرى في سائر القرآن أن الصواعق لا تصيب إلّا الظالمين (٤: ١٥٢) المعرضين عن الله وآياته (٤١: ١٣) والعاتين (٥١: ٤٤) والمتعنتين في الإيمان (٢: ٥٥) دون سواهم، فلا يعني ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هنا إلّا هؤلاء دون سواهم، فقد «يموت المؤمن بكل ميتة إلا الصاعقة، وهو يذكر الله عزّوجلّ»(٣).

إن مثلث البرق الرعد الصاعقة هي حصيلة مختلف الحركات في الهواء والسحاب، فالسحاب قد تبسم بالبرق، ثم تتكلم بالرعد، ثم تحرق بالصاعقة، والكل بين الماء والهواء، سبحان العزيز الجبار.

ومن تسبيح الرعد بحمده أنه يخوِّف حينما يُطمع، فيحمده الطامعون ربهم، وليسبحوه عما يخافون أنه ظلمٌ منه وسبحانه! فكل شيء صادر من الله فيه نفع وضر يتطلب تسبيحاً بالحمد، نحمده بنفعه ونسبّحه في ضره، أنه ليس مقصوداً بذاته، أم يُقصد عقاباً لمن يستحقه.

ومن أعجب العُجاب أنه في أهوال نور البرق وصوت الرعد ونار الصواعق، وفي تجاوب بارع لتسبيح الرعد بحمده والملائكة من خيفته

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩.

(٣) نور الثقلين ٣: ٤٩٠ ح ٦٣ في أصول الكافي بإسناده عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: . . . و فيه بإسناده عن بريد قال قال أبو عبد الله عليه السلام إن الصواعق لا تصيب ذاكراً قال قلت: وما الذاكر؟ قال: من قرأ مائة آية فيه عن أبي بصير قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن ميتة المؤمن قال: يموت المؤمن بكل ميتة غرقاً ويموت بالهدم ويبتلى بالسبع ويموت بالصاعقة ولا تصيب ذاكراً لله، أقول: موته بالصاعقة ليس إلا عند إعراضه عن الله.

وزمجرة العواصف عن غضبه، في هذه الهولة المزمجرة والتسبيحة الشاملة، هؤلاء الحماقى الطغاة يرعدون ويبرقون ويصعقون بنعرات وغوغائيات الجدال في الله وهو يريهم نفسه بقدرته البارعة وحكمته في خلقه: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾: المماكرة، فإنهم يماكرونه وهو ماكرهم وهو أشد مكراً إن كانوا يشعرون.

فمهما أبرقوا وأرعدوا تضيع أصواتهم الجهنمية الهزيلة الرذيلة في خِضِمِّ الرعد المسبِّح بحمده، والصاعقة الناطقة بوجود الله.

إن الصاعقة وهي من حصائل الصدامات السحابية واصطكاكاتها، هي أقوى نار تُعرف، رغم أنها من ولائِد الأبخرة السحابية المضادة للحرارة، ولربما تغوص في البحر وتحرق حيوانه في لجته، سبحان القدير المتعال.

تؤمض في الجو بروق، وتعقبها رعود، وتذهب بذلك من القوة الكهربائية ما قد تكفي لإنارة عشرات من المدن، أتراها تذهب ضياعاً وإن الله يسرف أو يبذر في هذه الومضات البارقة المرعدة؟! وهي قد تجتاح الكرة الأرضية على نطاق واسع، وتحدث أضراراً بليغة وكما نرى - مثلاً - في الولايات الأمريكية أراضٍ كثيرة كانت بالأمس مكسوة بالغابات والأحراش وآبار البترول وكثير أمثالها، وهي اليوم بلقع قفر على أثر الصواعق التي اجتاحت كل ما فيها.

وقد تصحبها أعاصير تحدث من الأضرار ما لا تقل عن أضرارها نفسها ولا سيما في البحار، وفي الجو حيث تنتاب الطائرات فتصعقها.

وقد تعترض أمواج الكهربائية اللّاسلكية فتعطّلها أو توقفها عن أعمالها، وقد يظلم الجو بسببها فتضطر الآلات المولدة للنور الكهربائي إلى مضاعفة جهدها.

وقد قدّر العلماء الأضرار النسبية السنوية الناجمة عن عواصف الرعود والبروق فإذا هي لا تقل عن مائتي مليون دولار.

ولكنها بجنب أضرارها تحوي منافع كبيرة وكثيرة جداً، حيث تسبب هطل الأمطار الغزيرة، وتساعد على نترجة الهواء إشباعاً لها بالنتروجين فيصبح سماداً للتربة، وقد قدر السماد النتروجيني الناشئة عن عواصف البروق والرعود في بلاد الهند الصينية وحدها بزهاء مليون دولار، فكيف بالعالم كله؟.

فإذ قد يتضرر العالم بهذه العواصف فالنفع أكثر، بل وإصابة الكفار هو النفع الأكثر ثم سائر النفع، إذا ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ حمداً في نفعه، وتسبيحاً عن ضره، أن يكون ظلماً أو إسرافاً، سبحان العزيز الجبار!

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾:

﴿لَهُۥ﴾ دون سواه ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ علّها حق الدعوة والدعوة الحقة، فمن يدعوه كان حقاً في دعوته وهو المدعو، حقٌ في إجابته، ثم لسواه باطل الدعوة والدعوة الباطلة، فإنك ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[١] ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[٢].

فالدعوة داعيةً ومدعوةً لا حق فيها إلّا له، وهي هي الباطلة لسواه، فليس لمن سوى الله دعوة حقة هدياً إلى صراط مستقيم أم إجابة لمن دعاه لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولله لا سواه هديٌ إلى صراط مستقيم، واستجابة لمن دعاه على شروط الدعاء الحقة المقررة المسرودة في الذكر الحكيم.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٤.

(٢) سورة غافر، الآية: ٤٣.

وأما ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ فـ ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾[1] فهم ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ على أية حال إلا كاستجابة باسط ﴿كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ فبلوغ الماء إلى فيه بحاجة إلى سبب مستقيم، وهو استقامة الدعاء والمدعو إليه، فمهما استقام الدعاء ببسط الكفين إلى الماء فليس بمجرد بسطه ليبلغ فاه، حيث ضل المدعو في وصوله إليه مهما توسط ببسط يديه إليه.

الداعي أياً كان يطلب في دعائه ماء الحياة وحاجياته المتطلّبة لبقائها ونضارتها وتكاملها، فهو مجد في طلبه قدر الحاجة، ورغم أن الطالب مَجِدٌّ، والمطلوب ضرورة للحياة، ولكنه ليس ليبلغ فاه إذ لم يطلبه من مَبْلغَه ومُبلِّغه والطالب هو الطالب والماء هو الماء ولكنما النبعة غير النبعة، نبعة فوارة من رحمة الله الواسعة، وأخرى غائرة ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[2] ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ وقد ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾[3].

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ (١٥)﴾:

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ (٥٠)﴾[4] ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾[5].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٤.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٩.
(٣) سورة الحج، الآية: ٧٣.
(٤) سورة النحل، الآيات: ٤٨-٥٠.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٤٥.

﴿مَن﴾ في آية الرعد تلمح إلى ذوي العقول السجود، من ملائكة أمّن هم في السماء، ومن إنس وجان في الأرض، ثم «ما» في آية النحل تُعمِّم السجود إلى كل دابة: أنهم سُجَّدٌ لله لا يستكبرون، ومدّ الظل في آية الفرقان يمده منهم ومن كل دابة إلى الكائنات كلها، فكل حراكٍ في ضوء الشمس أو سكون، يتبعه ظلٍ لأي كائن دونما استثناء، فقد تعني ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في الرعد ما تعنيه ﴿مَآ﴾ في تاليتيها، ولا سيما وإن «كرهاً» تعم سجود التكوين وخضوع كل كائن أمام إرادة الله.

والسجود - ككل - هو غاية الخضوع والذل والانكسار دون أي استكبار، باختيار كسجود المؤمنين، أم باضطرار كالكفار، وسائر السجّد الذين ليس لهم ذلك الاختيار، حيث الكرَه ما يحمل على المكرَه من خارج نفسه، والكُره من داخله، ويقابلهما الطوع، فهنا الكرَة في السجود هو التكويني من خارج نفسه، وهو إرادة الله تعالى المسيّرة لكل سائر إلى ما خلق لأجله، المذللة المخضعة له أمام ربه، ومنه الهدى التكوينية.

وسجدة الظلال ليست إلا كرهاً كما لغير المؤمنين، وما أحسنها ذكرى للغافلين، أن الظل - الذي هو في سجود الشخص وهو غير قائم بنفسه - إذاً هو تابع له خاضع لديه بما مدّ الله على ضوء الشمس، فبأن يكون الإنسان ظلاً لربه، وهو تعالى قائم بنفسه وعلى كل نفس، ذلك أحق وأحرى! وقد تعني ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ - فيما تعنيه، الأعمال الظلية غير الاختيارية، فكما الأظلال لا خيرة لها في السجدة المختارة وغيرها، كذلك هذه الأعمال كالنمو[1] وحركات القلب والنبض والدم وانهضام الغذاء في المعدة، وسائر الحركات والسكنات غير الاختيارية، فإنها خاضعة لإرادة

(١) نور الثقلين ٢: ٤٦١ ح ٧٠ القمي في الآية قال: بالعشي - قال: ظل المؤمن يسجد طوعاً وظل الكافر يسجد كرهاً هو نموهم وحركتهم وزيادتهم ونقصانهم:

الله، وهي سجدتها لله، والتخصيص بالغدو والآصال قد يعني شمول السجدة لأخص حالاتها الظلية المختارة.

فالظِّلال: منفصلة كسائر الظلال، أم متصلة وهي غير الاختيارية من الأفعال، إنها ساجدة لله كَرهاً، كما السُجَّد المؤمنون يسجدون لله طوعاً!

وقد يعني خصوص ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أظهر مظاهر الظلال، فقد تنعدم الأظلال أم تنقص في الظهيرة وسواها من أوقات النهار، فهي كالساكنة دون حراك ملحوظ، ولكنما الظلال في الغدو والآصال لها حراك ظاهرة يظهر معنى السجدة فيها في بُعدي الظهور، مهما كانت الظلال بين شروق الشمس وغروبها دائبة للساجدين وسواهم من ذوي الأظلال.

وما أحسنه ازدواجية السجود ضماً لشخوص الظلال إلى شخوص الأشخاص، وهما بالغدو والآصال عند انكسار الأشعة وامتداد الظلال، فكما الظلال تبعٌ للشخوص في الأشخاص، فليكن الإنسان وأضرابه ظلالاً لإرادة الله، في جُثُوٍّ وخشوع وخضوع سجَّداً لله خاضعين، كما وظلالهم المتصلة من فعالهم اللّااختيارية ساجدة مطاوعة لإرادة الله.

«فتبارك الذي يسجد له من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ويعفر له خداً ووجهاً ويلقي بالطاعة إليه سلماً وضعفاً ويعطي له القياد رهبة وخوفاً»[١].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾:

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله الهدى لهؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أنداداً ﴿مَن

(١) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ وهم يقتسمون الربوبية بين الخالقية الخاصة بالله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1] وبين تدبير أمر الخلق حيث يختلقون له آلهة، لذلك فحقُّ الجواب إنما هو منك دونهم: «قل لله» فإن الخالق للكون أحرى أن يكون بيده أمر الكون، فله - إذاً - ربوبية الخلق والأمر: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] مهما أجاب حماقى الإشراك بالله أن لغير الله ربوبية في السماوات والأرض باستقلال أم تفويض! وفيه تعريض لساحة الربوبية وتقويض لسماحته.

فبناءً على ربوبيته في الخلق كما هم معترفون، وربوبيته في أمر الخلق كما عليهم أن يعترفوا ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يلُون أمركم أو أمر الخلق كلّاً أو بعضاً، من أصنام وأوثان لا تشعر، أم طواغيت ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فضلاً عن سواهم الذين يعبدونهم أم لا يعبدون، ففاقد الشيء ليس ليعطيه، ففي تولّيهم - إذاً - خسار بائر وضلال مبين، والبون بين حق الربوبية في الله وباطلها في غير الله كما البون بين الأعمى والبصير والظلمات والنور، فالأعمى مصيره الظلمات والبصير مصيره النور، ومن يتولى غير الله فهو أعمى يتابع أعمى مثله، وهما في الظلمات، ومن يتولى الله هو البصير يتابع البصير، فهو في نور والى نور، فـ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[3]؟

فلأن من له الخلق هو الذي له الأمر، فليكن شركاؤهم خلقوا كخلقه حتى يأمروا كأمره ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ فمن خلق لله فله أمره، ومن خلق لغير الله فله أمره، فهو ولي في خلقه وأمره كما الله، ولأن الخلق تشابه عليهم يحتاطون بجمع الأمر لغير الله، ولا يفصلون نصيباً

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٣) سورة هود، الآية: ٢٤.

في الأمر لله! ولكنهم يصدقون أن الخلق كله لله ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾.

وهكذا تحاط قضية الشركاء في المطلع بسجود من في السماوات والأرض له سبحانه طوعاً وكرهاً وضلالهم بالغدو والآصال، وفي الختام بالقهر الذي يخضع كل شيء، وبينهما اختصاص الخلق والأمر بالله، فاختصاص الولاية المطلقة - وهي من مخلفات الربوبية المطلقة - بالله.

ولنقف وقفة التأمل الباهر عند وحدانية الخالق ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ لنرى هل هنالك بعدُ خالق إلّا الله، وإن كان بإذن الله، مهما كان رسول الله أم أيّاً كان؟ أن يفوض الله إياهم خلقاً منه؟[1] كلا، بل ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ سواءً أكان شيء الآية الرسالية كإحياء الموتى، فإنه المحيي حيث يأذن، وليس من المسيح وسواه إلّا ظاهر من الأمر تدليلاً على اختصاصه بالله: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ﴾[2] فالخالق لها - إذاً - هو الله، وما المسيح إلّا نافخاً فيما صنعه من الطين بإذن الله، وهكذا سائر الآيات الرسالية لفظية وعملية فإنها كلها من خلق الله دون سواه، وما الرسل إلّا وسطاءَ في إبدائها ليظهر اختصاصهم بالله، فيصدّقوا فيما يحملون من وحي الله.

فـ ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾[3]؟ كلا! بل ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ

---

(١) نور الثقلين ٢: ٤٩٢ ح ٧٤ في اعتقادات الإمامية للصدوق روي عن زرارة أنه قال قلت للصادق عليه السلام: إن رجلاً من ولد عبد الله بن سنان يقول بالتفويض قال: وما التفويض؟ قلت يقول: إن الله عز وجل خلق محمداً وعلياً ثم فوض إليهما فخلقا ورزقا وأحيا وأماتا فقال عليه السلام: كذب عدو الله إذا رجعت إليه فاقرأ عليه الآية التي في سورة الرعد ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرّعد: ١٦] فانصرفت إلى الرجل فأخبرته وكأنما ألقمته حجراً أو قال فكأنما خزي.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣.

كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[1] [2] ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[3] [4] ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[5] و﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعم الشيء المخلوق أياً كان، دون الشيء الخالق حيث الخالق ليس مخلوقاً ومن المستحيل أن يخلق شيء نفسه - أياً كان.

ولا تخص ولاية من سوى الله بالإشراك بالله حيث ينتهر رسول الله ﷺ أبا بكر القائل باختصاصه بذلك «وهل الشرك إلا ما عبد من دون الله أو ما دعي مع الله؟ قال ﷺ: ثكلتك أمك الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل ألا أخبرك بقول يذهب صغاره وكباره أو قال: لصغيره وكبيره؟ قال: بلى - قال: تقول كل يوم ثلاث مرات:

اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم والشرك أن تقول: أعطاني الله وفلان، والند أن يقول الإنسان: لولا فلان قتلني فلان»[6].



(١) سورة الزمر، الآية: ٦٢.
(٢) راجع تفسير هذه الآية من الزمر تجد فيه تفصيل البحث من خالقيته تعالى كلّ شيء حتى شيء الأفعال الاختيارية.
(٣) سورة غافر، الآية: ٦٢.
(٤) راجع تفسير هذه الآية من الغافر تجد فيه واجهة أخرى من البحث في خالقيته كلّ شيء.
(٥) سورة يس، الآية: ٨١.
(٦) الدر المنثور ٤: ٥٤ - أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في الآية قال: فأخبرني ليث بن أبي سليم عن ابن محمد عن حذيفة بن اليمان عن أبي بكر أما حضر ذلك حذيفة من النبي ﷺ مع أبي بكر وأما حدثه إياه أبو بكر عن النبي ﷺ قال: الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل قال أبو بكر: يا رسول الله ﷺ وهل الشرك..

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ وَمِمَّا
يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ
وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ
كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ
يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ
أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٨﴾ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ
أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ
يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن
يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ
رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ
ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ
وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا
صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ
وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ
وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ
ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾

هنا يضرب الله مثلاً للحق والباطل كأمثَلِه وأشمله، للدعوة الباقية الصالحة والزَّبدة الماكثة في أراضي القلوب، والدعوة البالية الطالحة الذاهبة إدراج الرياح كالزبد الجفاء، الذاهبة عن القلوب:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾:

ثلاثة أمثال تضرب للحق والباطل في مثل واحد، فكما يضمحل الزبد فيصير جفاءً لا يُنتفع به ولا ترجى بركته كذلك الباطل يضمحل عن أهله مهما أرعد وأبرق، وكما يمكث الماء في الأرض فأمرعت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، كذلك الحق يبقى لأهله، ولكنما الحق يُبتلى بمزيج الباطل وعراقيله كما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع حيث يخرج زبداً مثله.

زبدان متماثلان، زبد الماء وزبد النار، وهما ذاهبان جفاءً ثم لا يبقى إلّا ما ينفع الناس، وهكذا يكون دوماً. مُصطرَع الحق والباطل، فالحق - بالمآل - يَصرع ويَهرع، والباطل يُهرع ويُصرع، وإن للحق دولة وللباطل جولة! ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ﴾ ضربَ كلٍّ بالآخر خلطاً ظاهراً في الكون وتميزاً في الكيان، وبالنتيجة ضرب الباطل بالحق: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ﴾[1] فـــ ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2] ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[3].

فذلك الضرب هو حقه وواقعه ثم ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ هو مثله

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨١.
(٣) سورة يونس، الآية: ٨٢.

ومثاله، فقد اختلف ضرب عن ضرب ممثلاً ومثالاً، مهما اتفقا في التذكير والبيان، فالضرب الأوّل هو نصب الحق والباطل بالشهرة كما ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[١] لتستدل عليه خواطرهم كما تستدل على الشيء المنصوب على مرتفع النجد وهو من قولهم: ضرب الخباء إذا نصبته واثبت طُنَبه وأقمت عَمَده و﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ نصباً لمنارهما وإيضاحاً لأعلامهما ليعرف المكلفون الحق بعلاماته فيقصدوه، ويعرفوا الباطل ببطلانه فيجتنبوه.

والضرب الثاني هو تسيير ما في البلاد وإدارتها على ألسنة الناس طول الزمان وعرض المكان، من قولهم ضرب في الأرض إذا توغل فيها وأبعد في أقاصيها، وكذلك ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

و«ماءً» في المثال يمثّل الحق الخالص الناصع، من خالص العلم النازل من سماء الوحي، وأتمُّه وأطمُّه القرآن، وعلى ضوئه سائر الحياة الروحية، حيث القرآن هو أحيى الحياة وحتى لحامل الرسالة العليا فضلاً عمن سواه.

فالماءُ المادة هو حياة الجسم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[٢]، والماء الروح - من المعرفة والعلم - هو حياة الروح، وقد مثلت الحياة الدنيا بماءٍ، علياها هي أصل الحياة الإنسانية، ودنياها هي المزيجة بعراقيل الدنيا: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣] ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

---

(١) سورة البلد، الآية: ١٠.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.
(٣) سورة يونس، الآية: ٢٤.

مُقْتَدِرًا﴾[١] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٢]:

وكما أن ماء السماء النازل إلى الأرض يسيل في وديانها بقدرها وهي المنخفضات المستعدة لاختزانه، وينزلق عن صلدها الناشز المترفع فلا ينتفع به أبداً، ويمر على مستواها في مثلث: الصلد، فلا ينتفع به كما نشز، والرخو الطيب فانتفاعاً بقدره، والسبخ النتنة فلا يزيدها إلّا خساراً.

كذلك القرآن النازل من سماء الوحي إلى أراضي القلوب، فمن واعية بقدرها وخيرها أوعاها، كما الوديان، ثم الأراضي المستوية الرخوة الصالحة، ومن رافضة له كالقلوب الناشزة الصلدة، ترفعاً عن استماعه، أم كالنتنة المستوية تقبلاً وازدياداً في نتنها، والمثل هنا يخص الوديان القابلة للماء.

فعلى مسيل الوحي الصارم الدائم نجد أراضي القلوب ووديانها أوعية وخيرها أوعاها التي لا تحتمل زبداً، لنضارتها وطهارتها فتزداد جلاءً كالقلب المحمدي والمحمديين من عترته المعصومين سلام الله عليهم أجمعين.

ومن ثم سائر الوديان الأوعية، السائلة غير الكاملة، إنها تسيل بقدرها ظرفاً واستعداداً، فاحتمل السيل في كلٍّ زبداً رابياً طافياً عالياً على الماء يستره في ثبج الأمواج وحالة الهياج.

فالزبدة الطالحة هنا تستر الزُّبدة الصالحة، مما يخيّل إلى الجهال أن الزَّبدة هي الزُّبدة لربوتها واعتلائها وجولتها «وإن للحق دولة وللباطل جولة».

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٥.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٢١.

إن الزَّبدة الباطلة الهاطلة المطلة على الماء الزُّبدة ليست هي من أصل الماء، فإنما هي غثاءٌ من الهواء والأودية، زَبدٌ في أوعية القلوب لتضيُّقها وعدم صفائها كما يحق، وزبدٌ في الجو المجتمع الذي ينزل فيه الوحي، وهما يعمان زبد الأفكار والعقائد والأعمال والأساطير المتعوَّدة، ولكن قلب المؤمن المتحري عن ناصع الحق يصفو عن كدره قدر سعيه وكدحه، ولكن الذين في قلوبهم مرض يزدادهم فتنة: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1] فالشيطان يلقي في أمنيات النبيين وهي وحي النبوات، ولكن الله ينسخ ما يلقيه في قلوب المؤمنين من زَبَد الباطل ولا ينسخه عن الذين في قلوبهم مرض: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾[2].

وطالما الباطل يزهو ويطفو ويجفو ويربو ردحاً من الزمن ولكنه زاهق ماحق يذهب جفاءً ببراهين الحق ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فالحق - أياً كان - لا محالة ماكثٌ، والباطل زاهق رافث، لأنّه هاجس لصالح النسناس.

وكما الأودية بين خاصة وأخرى جماعية عامة، كذلك الماء النازل فيها بما تحتمل من زبد، فطالما الباطل يرعد ويبرق ويتصدر في سيول

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة الحج، الآيات: ٥٢-٥٥.

المجتمعات الإنسانية بكل زور وغرور، ولكنه ذاهب جفاء، ودولة الحق باقية صارمة.

فالزبد - على أية حال - ذاهب جفاءً سواء أكان في أودية القلوب وأوعيتها، إذا كانت مؤمنة حيث الله ينسخ ما يلقي الشيطان ثم يحكم آياته، أم في أودية المجتمعات فإنه زاهق بأدلة الحق، وسوف يزهق من أصله حيث لا يبقى له أثر كما في دولة القائم المهدي من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

ولكنما الحق لا بد له من امتحان، وابتلاء، ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ حيث يوقد على الفلزات الخليطة استخلاصاً لها عن زبدها، كذلك أهل الحق، كلما كانت درجاتهم أعلى فابتلاءاتهم أشد وأنكى، ودوائر السوء المتربصة بهم أكثر وأشجى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾(١) ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ - ولتبلبلنّ بلبلَة ولتغربلنَّ غربلة حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم! وجماع القول هنا أن النازل من الله - أياً كان - خال من الكُدرة والاعوجاج، وناصع ناصحٌ يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، سواءً أكان من الرسل الأنفسية كالفطرة والعقل وسائر الجوانح والجوارح، أم الآفاقية كالرسالات بآياتها وسائر الآيات التكوينية، فإنها كلها هدى خالصة كالماء الخالص النازل من السماء لو أن الإنسان تبنّى فطرته بعقله وعلى ضوء هدي رسالات الوحي وسواها، هداه الله إلى صراط مستقيم: ﴿...قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ

(١) سورة محمد، الآية: ٣١.

إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[(١)] ولقد أنزل الله القرآن منذ أربعة عشر قرناً، واحتملت سيول الوديان فردية وجماعية زبداً رابياً ضده، إطفاءً لنوره وإخماداً لناره، ولكنه ما لبث بعيداً حتى برز حجة صارمة دحضت كل مكائد السوء ومصائده خالصة عن كل تحريف وتجديف وتزييف ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[(٢)] [(٣)].

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾:

هذه والتسع التالية لها تفريعات وتفريغات للمثل المضروب في سابقتها السابغة، المقتسمة كافة المكلفين إلى زَبَدة وزُبدَة، فآية ونصفين للزَبَدة الطالحة، والباقية للزُّبدة الصالحة![(٤)]:

والاستجابة للرب هي تقبل الربوبية بكل بنودها، استجابة لحكم الفطرة التي فطر الله الناس عليها، واستجابة لحكم العقل تبنياً لآيات أنفسية كأصل الفطرة وجاراتها، وأخرى آفاقية استدلالاً بها لمزيد المعرفة، ثم استجابة لنداءات الرسالات الإلهية علماً وتصديقاً وتطبيقاً ونشراً وهي الاستجابة الكاملة للرب.

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٣) نور الثقلين ٢: ٤٩٢ ح ٧٥ في الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه: وقد بين الله تعالى قصص المغيرين فضرب مثلهم بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرّعد: ١٧] فالزبد في هذا الموضع كلام الملحدين الذين أثبتوه في القرآن فهو يضمحل ويبطل ويتلاشى عند التحصيل، والذي ينفع الناس منه فالتنزيل الحقيقي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والقلوب تقبله، والأرض في هذا الموقع فهي محل العلم وقراره». . .

(٤) فالآية هي الـ (٢٥) والنصفين من هذه والتالية، والباقية لغيرهم.

لهؤلاء الأكارم الحسنى، قدر استجابتهم لربهم هنا وفي الآخرة، ولأن ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ هي تفضيل الأحسن صفة للجزاء أو الحياة[١] وعلّها أحرى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾[٢]: فما يعطيه الرب هو أحسن مما يستجيبه العبد: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾[٣] فالرب يستجيب قدر ما يستجيبه العبد، استجابة لدعائه في توبة وسواها من كل ما يُحيي الإنسان بعد موته، و﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾[٤].

فـ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ الجزاء للاستجابة هي الحياة الحسنة الطيبة أحسن من الاستجابة، دون ضياع: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾[٥] وكشف الضر: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ...﴾[٦].

والخطوة الأولى لاستجابة الرب هي السمع لما يقول، سمعُ الجوارح والجوانح وإنما ذلك للأحياء: ﴿۞ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾[٧] والموتى هم الذين يتبعون أهواءهم: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ

---

(١) قد جاءت الحسنى وصفاً للجزاء في آيات عدة ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ [الكهف: ٨٨] ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [فصلت: ٥٠] ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النجم: ٣١] وجاءت مطلقة كآية الرعد هذه و﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾ [يونس: ٢٦] والحسنى المطلقة تعم الجزاء وغيرها فهي الحياة الحسنى، تعني أحسن من حياته قبل الإحسان، فهي تعم الآخرة والأولى.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٦.

(٤) سورة يونس، الآية: ٢٦.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٨٤.

(٧) سورة الأنعام، الآية: ٣٦.

لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[١].

وكما من الحياة الحسنى هي الحاضرة، كذلك وبأحرى هي المستقبلة العاقبة في مثلث الحياة دنياً وبرزخاً وعقبى وهي أحرى وأبقى ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾﴾[٢].

ثم ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ وهم موتى الفِطر والعقول والقلوب، فعقباهم الأخرى نكبة نكدة خاسرة لحد ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ من عذاب يوم القيامة، ولكنها لا تقبل منهم، استحالة على أخرى، ظلمات بعضها فوق بعض بما قدمت أيديهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣] ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ وهو الحساب الدقيق غير الرفيق، حسناً في ميزان العدل وسوءًا في ميزان المحاسَب حيث يرجو التخفيف والتطفيف، إذاً فهو «أن لا تقبل لهم حسنة ولا تغفر لهم سيئة»[٤] حيث الحسنات حابطة والسيئات خابطة لا يعفى عنها أو يخفف.

فمن الناس من لا يحاسب وهم السابقون والمقربون وأصحاب اليمين ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾[٥] ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ

(١) سورة القصص، الآية: ٥٠.
(٢) سورة النجم، الآيات: ٣٩-٤١.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٦.
(٤) المجمع في الحديث، من نوقش في الحساب عذب وقيل هو: . . . وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام.
(٥) سورة المدثر، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[(١)] ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[(٢)] ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾[(٣)].

ومنهم من يحاسب حساباً فضلاً حسناً حيث تقبل حسناتهم ويُعفى عن سيئاتهم جميعاً أو بعضاً أو يخفف عنهم، وهم بين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝﴾[(٤)].

ومنهم من يحاسب سوء الحساب وهم أصحاب الشمال: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾[(٥)].

﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ وهو من مخلَّفات سوء الحساب فإنه سوء العذاب: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾[(٦)] ويقابله ترك العذاب عفواً أم حسن العَذاب تخفيفاً.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝﴾:

علمٌ مختار بما اختار من الذرايع إليه، تذرُّعاً بسليم الفطرة والعقل، وتضرعاً إلى الله أن يهديه سواء السبيل، استبصاراً بالآيات الآفاقية والأنفسية، وتدبراً في آيات القرآن نفسه، فعلما أنه الحق من ربِّك دون باطل أو مزيج منه، فهذا هو البصير، البصير ذو عقل وفير، ولب غفير، دون الأعمى الذي يتعامى عن آيات الحق، فيعمي على نفسه وسواه وجه الحق، فإنما يتذكر بذكرى الآيات أولو الألباب فيعلمون أنها الحق من ربك، وإنما

(١) سورة الزمر، الآية: ١٠.
(٢) سورة غافر، الآية: ٤٠.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦٩.
(٤) سورة الانشقاق، الآيات: ٧ - ٩.
(٥) سورة الطلاق، الآية: ٨.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٥٧.

يتذكر البون الشاسع بين العالم بحقها والجاهل بها أولو الألباب الذين زالت القشور عن عقولهم وقلوبهم.

قشور الهوى وغشاواتها الغاشية لنور العقل والفطرة هي التي تحجبها عن البصيرة إلى العمى، وعن الهدى إلى الردى، وكما الأغشية الحاجبة للبصر تغشاه عن إدراك المبصر، كذلك البصيرة المحجوبة بغشاواتها مغشية عن إدراك الحقائق رغم بهورها وظهورها، فتصبح بذلك العقول معقولة بقيود الهوى، والقلوب مقلوبة عن نور الهدى، فصاحبها - إذاً - أعمى في بصيرته، مظلم في سريرته، فهو بدل أن يعلم أنما أُنزل إليك من ربك الحق، يجهل حقه أو يدعي العلم بباطله، ويخوض في آياته خوض المبطلين المضللين، فما ألطفه تعبيراً تقابل الأعمى بمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق، أسلوب بارع منقطع النظير في هذا الكتاب البشير النذير، في لمس القلوب وتجسيم الفروق بين السوي منها والمقلوب، فالناس أمام هذه الحقيقة الكبرى فريقان، مبصرون فهم يعلمون، وعُمي فهم لا يعلمون، فإنهم في عمى البصيرة فلا يبصرون، مهما قويت أبصارهم فيما يشتهون، عائشون في انطماس المدارك واستغلاق القلوب وانطفاء قبسات المعرفة الروحية، وانفصالها عن مصدر الإشعاع.

فالذين استجابوا لربهم لهم حسنى الحياة المعرفية إذ يعلمون أنما أنزل إليك من ربك الحق، وحينما يستقر الحق في عقولهم وقلوبهم تصبح ألباباً فوق ما كانت، ناظرة بنضارة الحق، مبصرة ببصيرة اللب.

للإنسان فطرة وعقل وقلب، ولكلٍّ لبٌّ خالص عن غشاوات، ومزيج أجيج من غشاوات الجهالات والشهوات، والسالك سبيل الحق لا بد له من لب في هذه السبيل حتى يبصر الحق فيتبعه، ويبصر الباطل فيجتنبه، فإنما المتذكرون للحق هم أولو الألباب: الذين لهم ألباب العقول والقلوب، مدركة متذكرة متفكرة.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾:

فهذه واللتان بعدها مواصفات لأولي الألباب، وحجر الأساس فيها هو الوفاء بعهد الله وعدم نقض الميثاق، فوصل ما أمر الله به أن يوصل، وإقام الصلاة، والإنفاق مما رزقوا، ودرءُ السيئة بالحسنة هي من مخلفات الوفاء بعهد الله.

كما خشية الرب والخوف من سوء الحساب والصبر ابتغاء وجه الرب هي من خلفيات عدم نقض الميثاق، وعهد الله هنا مطلق بين قديم الفطرة وهو الميثاق المأخوذ على ذرية بني آدم، ثم بين العقول التي تتبنى الفطرة، رسولان ذاتيان داخليان متجاوبان مع الرسل الخارجية، ومن ثم بين جديد الرسالة مع الرسل الذين بعثوا لتجديد الإيمان وتجويده تذكراً بما في عهد الفطرة.

والسبيل الوحيدة إلى الوفاء بمثلث العهود هو تخليص الفطرة والعقل عما يحجبها، والإخلاص إلى خالص الشرع دونما خلط فيه مما ليس منه، وهذا هو اللبُّ.

وكلما استحكم العهد بوفائه في ميثاقه ابتعد عن النقص والنقض، فـ ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ ينتج: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ كما ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ ينتج: ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ فإنهما متعاملان متجاوبان في أُولي الألباب.

أولو الألباب مذكورون في (١٦) موضعاً من الذكر الحكيم، وفي كلها تختص بهم الذكرى والعبرة فالتقوى[1] إذاً فلا ذكرى ثم عبرة ثم تقوى إلّا لأولي الألباب، ولغيرهم النسيان والطغوى، فإن إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[2].

---

(١) فالتقوى لهم في: ٣: ١٧٩ - ١٩٧، ٥: ١٠٠، ٦٥: ١٠ والعبرة بالآيات ٣: ١٩٠، ١٢: ١١١، ثم فيما سواها العشر الذكرى!

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.

إن الغشاوات الحاجبة للفطر والعقول تغشوهما عن ذكرى الحق في كل الحقول، عبرة بآياته، فتقوى في غاياته، فعملية السلب أصعب من الإيجاب، حيث الرسل الذاتية لا غبار عليها ولا ستار في ذواتها، فإنما على السالك سبيل الهدي أن يقيم وجهه للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها، بتأمل فيه عقلياً، وتعمّل في طرد ما ينافيه حتى لا يطرأه، وإزالة الطارئ ولكي يجلو ويشفّ ويعفّ عما يطارده ويستره.

ثم المترتب على الوفاء بعهد الله وعدم نقض الميثاق هو الوفاء بعهود الرسل وسائر خلق الله، وسائر العهود الفرعية مع الله، فالناهض بما يتوجب عليه في عهد الله، ناهض بكافة المتطلبات في عهود الشرعة الإلهية، قاعدة رصينة متينة تتكفل الحفاظ على سائر العهود المنبثقة عن العهد الأوّل.

إن واجب الوفاء بالعهد - أياً كان - ومحرَّمُ نقض الميثاق - أياً كان - لهما دورهما الهام في القرآن، فقد نهى الله عن نقضه أشد النهي، وقدّم فيه أشد التقدمة، وذكره في بضع وعشرين آية، نصيحة لكم، وتقدمة إليكم وحجة عليكم، وإنما تعظم الأمور بما عظمها الله عند أهل الفهم وأهل العقل وأهل العلم بالله، وقد يروى أن نبي الله ﷺ قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له»[1].

وكلما كان المعهود له أعظم ومادة العهد أضخم وأتم، فواجب الوفاء به وحرمة نقضه أهم، على اشتراك العهود المشروعة في واجب الوفاء وحرمة النقض.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾:

(١) الدر المنثور ٤: ٥٦ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية عنه ﷺ.

﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ليست لتختص بصلة الرحم وإن كانت من أوسط مصاديقها، «فلا تكونن ممن يقول للشيء إنه في شيء واحد»[1].

إنه كل صلة مأمور بها في شرعة الله، أصلية وفرعية، عقائدية وعملية، فردية وجماعية أمّاهيه؟ ومن أصول الصلات صلة الله معرفياً، ومن أصولها هنا عملياً الصّلاة فإنها خير الصِّلات، ثم صلة الرسول ﷺ والمعصومين عليهم السلام من عترته، ومن ثم العلماء الربانيين، ثم المؤمنين الأقارب منهم والأغارب، وفي كل هذه الحقول صلات روحية هي الأصيلة وأخرى سواها، وعلى هامشها من صلات الإنفاقات الواجبة والمندوبة كما أمر الله.

صلات في مقال وحال وفعال حيث الجمع بينها هو الكمال، فصلة المقال دون حال أو فعال، نفاق وإدغال، وصلة الحال دون ظاهرة في فعال هي غير واصلة إلى القلب ولا إلى مَن يوصل، وهما دون قال قد تكون محبورة مشكورة كعبادات السر، أم مرجوحة لا مشكورة ولا ممنوعة كعبادات العلن، وكلٌّ يقدّر كما أمر الله.

وفيما يعد قطع ما أمر الله به أن يوصل إفساداً في الأرض، دلالةٌ قاطعة على عموم فرض الصلة دونما اختصاص برحم وغير رحم، فإنما هو من مصاديقها في جو العائلة تبيناً لرباط عريق فيها، فإنها تتبنى الجماعة الصالحة ككلٍّ.

لذلك ترى آية اللعنة على تارك الصلة تتأخر عن خشية الرب والخوف من سوء الحساب، والصبر ابتغاء وجه الرب، وإقام الصلاة، والإنفاق مما

(١) نور الثقلين ٣: ٤٩٤ ج ٨٤ بإسناده عن عمر بن يزيد قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرّعد: ٢١] فقال: نزلت في رحم آل محمد ﷺ وقد يكون في قرابتك ثم قال: فلا تكونن...

رزقوا سراً وعلانية، ودرءًا للسيئة بالحسنة، مما يبرهن أن ذلك كله مصاديق صادقة لواجب الصلة.

ولأن ميثاق الله يعم كل المواثيق فالصلة هي الصلة في كل المواثيق التي تخلّف نقضها اللعنة وسوء الدار وإفساداً في الأرض كما هنا، والخسران كما في أخرى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1].

ومن ألعن القطع في الصِّلات قطع صلة الولاية عن الله إيماناً وقطع الصَّلاة، ثم الانقطاع عن صلة الرسالة بالرسول ﷺ وصلة الإمامة بالأئمة عليهم السلام وصلة الولاية عن ولاة الأمر العدول بعدهم، وصلة المؤمنين ككل ولا سيما الأرحام حتى غير المؤمنين منهم، كما وهي صلة كل ولي بالمولّى عليه، فهي - إذاً - صلة ذات بعدين في كافة الحقول.

قد يروى «هي رحم آل محمد ورحم كل مؤمن»[2] «وهي تجري في كل رحم»[3] كما روي «فلا تكونن ممن يقول للشيء إنه في شيء واحد» مما يعمم الصلة إلى كل الحقول كما عممتها آيات الصلة.

وفي الحق إن الشرعة الإلهية في صيغة مختصرة محتصرة ليست إلّا صِلات في واجبات ومندوبات، وانفصالات عن محرمات ومكروهات، وبينهما متوسطات المباحات، وهذه الخمسة تعم الأقوال والأحوال والأفعال في كل وصال وفصال.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧.

(٢) نور الثقلين ٣: ٤٩٥ في تفسير العياشي عن العلا بن الفضيل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الرحم معلقة بالعرش يقول: اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني وهي رحم آل محمد ورحم كلّ مؤمن وهو قول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرّعد: ٢١].

(٣) المصدر ج ٨٩ عن محمد بن الفضل قال: سمعت العبد الصالح يقول الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل «قال: هي رحم آل محمد معلقة بالعرش يقول: اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني وهي تجري في كلّ رحم.

ثم وصلة الرحم ليست فقط أن تصل من وصلك، بل ومن قطعك، فليس الحليم من ظُلم ثم حلم، حتى إذا هيجه قوم اهتاج، ولكن من قدر ثم عفى، وليس الوَصول من وُصل ثم وَصَل فتلك مجازاة، ولكن الوصول كل الوَصول من قُطِع ثم وصَل وعطف على من لا يصله «وقد بلغنا أن نبي الله ﷺ قال: إذا لم تمش إلى ذي رحمك برجلك ولم تعطه من مالك فقد قطعته»[1].

«يصلون.. ويخشون ربهم.. في صلاتهم، والخشية هي رهبة في تعظيم وليست إلّا عن عادل كريم، والخوف يعم كل قوي عادلاً وظالماً، فوصل ما أمر به أن يوصل حقّه أن يكون على أصل الخشية: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ وهو المداقة في الحساب، فهي حسن من الله في ميزان العدل، وسوء للمسيء إذ يدخله عذاب النار، وقطع ما أمر الله به أن يوصل يخلّف سوء الحساب: «أتراهم يخافون أن يظلمهم أو يجور عليهم؟ لا! ولكنهم خافوا الاستقصاء والمداقة»[2].

فمن سوء الحساب أن «لا تُقبل حسناتهم ويؤخذون بسيئاتهم»[3] ثم «أن

(١) الدر المنثور ٤: ٥٦ - أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في الآية قال: بلغنا... وفيه عنه ﷺ أن البر والصلة ليخففان سوء العذاب يوم القيامة ثم تلا الآية.
في نور الثقلين ٣: ٤٩٤ ح ٨٤ عن الكافي بسند عن مولاة أبي عبد الله عليه السلام قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام حين حضرته الوفاة فأغمي عليه فلما أفاق قال: أعطوا الحسن بن علي بن الحسين وهو الأفطس سبعين ديناراً وأعطوا فلاناً كذا وفلاناً كذا فقلت: أتعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة؟ فقال: ويحك أما تقرئين القرآن؟ قلت: بلى قال: أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرّعد: ٢١].

(٢) نور الثقلين ٣: ٤٩٤ في كتاب معاني الأخبار بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال لرجل يا فلان ما لك ولأخيك؟ قال: جعلت فداك كان لي عليه شيء فاستقصيت عليه في حقي فقال عليه السلام: أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرّعد: ٢١] أتراهم..

(٣) المصدر عن تفسير العياشي عن أبي إسحاق قال سمعته عليه السلام يقول في سوء الحساب: لا تقبل..

تحسب عليهم السيئات وتحسب لهم الحسنات وهو الاستقصاء»[1] ثم واصل السؤال عن السيئات حتى إذا لم تُحسب عليهم، فـ «لو لم يكن للحساب مهولة إلا حياء العرض على الله وفضيحة هتك الستر على المخفيات لحقٌ للمرءِ أن لا يهبط من رؤوس الجبال ولا يأوي إلى عمران ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلا عن اضطرار متصل بالتلف»[2]:

فأسوأ السوء في الحساب هو الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، وكل هذه عدلٌ في ميزان الله، والخائف من سوء الحساب يعمل عمل من لا يحاسب كالسابقين والمقربين وأصحاب اليمين.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾:

فالصبر ابتغاء وجه الرب صلة، وإقام الصلاة صلةٌ، وهما من صلات الرب، ثم الإنفاق مما رزقوا صِلةٌ بأمر الله لعبادة، ودرءُ السيئة بالحسنة هو مجمع الصلتين، فالسيئة العصيان تُدرأ بالحسنة التوبة وبرجاحة الحسنات، ويفعل كبائر الحسنات وترك كبائر السيئات، فهي صلة إلهية، والسيئة الإساءة إليك من عباد الله تدرأُ بالحسنة العفو والإغماض، وبالنصيحة الإرشاد، فهي صلة خلقية بأمر الله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[3] و﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴿لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ عقباها فيها حيث ﴿الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[4] وعقباها بعدها في البرزخ والأخرى.

(١) المصدر عنه هشام بن سالم عن أبي الله عليه السلام في الآية قال تحسب...
(٢) المصدر عن مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: لو لم يكن...
(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٤.
(٤) سورة هود، الآية: ٤٩.

والصبر ابتغاء وجه الرب هو الصبر في الطاعة فعلاً وعن المعصية تركاً، تحملاً لمرير الطريق الشاق الطويل المليءُ بالأشلاء والدماء والحرمانات والهجرانات، صبراً يتغلب على حاضر الشهوات وحاذر الخطرات وظاهر المغريات.

ثم وإقام الصلاة ليس - فقط - إتيانها، وإنما إقامها في نفسك وفي أهلك وذويك، وفي سائر من يتعظون بعظتك، أو تتم عليهم الحجة بك.

ثم الإنفاق مما رزقتم يعم كافة النعم الموهوبة المحبورة، التي يمكن الإنفاق منها، من مال أو منال أو علم ومعرفة أو حال على أية حال، ففيه صلات روحية وبضمنها مادية.

ودرءُ السيئة أياً كانت ومن أيٍّ، منك إلى الله أم إلى عباد الله، أم من غيرك إليك، فتحاول وصلاً بحسنتك بعد فصلٍ بسيئة، منك إليك أم إلى سواك أم مِن سواك.

ففي نفسك أن تجبر سيئتك بحسنة تدرؤها كما أمر الله وقرر الله، سواء أكانت بجنب الله أم بحق عباد الله وكما يروى عن رسول الله ﷺ: «يا علي إذا عملت سيئَة فاتبعها بحسنة تمحها سريعاً وعليك بصنايع الخير فإنها تدفع مصارع السوء»[1] وفي غيرك أن تدرأ سيئات الناس بجنب الله بحسنة الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، وسيئاتهم بجنبك أم سواك أن تدرأها بحسنة تنهيها وتمحيها فيرجع صاحبها كأنه ولي حميم: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾[2].

فلتكن حياتك حياة الجمع والوصل والدرء عن كل فصل يفصل عن خير

(١) القمي حدثني أبي عن حماد عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.

ويحصل فيه شر، فتكون نوراً تخرق الظلمات وتفلق البليات إلى أنوار الخيرات.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ (٢٤)﴾:

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ هي من عقبى الدار وأعلاها ولأنها لأناس خصوص، فلتكن جنات خصوص، وعلّها على حد المروي عن الرسول ﷺ «قضيب غرسه الله بيده ثم قال له كن فكان»[1].

والعدن هو الاستقرار فكما المعن هو مستقى الجواهر، فهذه الجنات هي مستقر جواهر الصابرين الأصلاء، لذلك لا نرى «العدن» إلا في (١١) آية بين آيات الجنة والجنات الـ (١٣٧) وقد تبرهن مواصفات أصحابها في آياتها على اختصاصها بين الجنات بعلاتها، وأنها معادن جواهر الإنسانية الأصيلة وكما يروى عن رسول الله ﷺ: «لا يسكنه إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عادل»[2].

﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ هم الأصلاء في صبرهم ابتغاء وجه ربهم، «و» على ضوئهم وهامشهم ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾ فلو أن ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ تعني هنا كافة الصالحين لكانوا يدخلون في ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ دون تثنية لهم بـ ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ ولكنهم هم الأصلاء في الصالحين فإنهم أولو الألباب، الموفون بعهد الله، الواصلون ما أمر الله، الخاشعون ربهم وسوء الحساب، والصابرون ابتغاء وجه بهم، المقيمون الصلاة، المنفقون مما رزقوا، الدارئون بالحسنة السيئة، وليس كل الصالحين كما هم، بل هم الحائطون حومهم والمستضيئون بضوئهم، يدخلون جنات عدن كما هم وحسب مراتبهم ودرجاتهم.

---

(١) الدر المنثور ج: ٥٧ - أخرج ابن مردويه عن علي عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ.
(٢) المصدر أخرج ابن جرير وابن المنذر الى... وحصاها اللؤلؤ.

فهي إذاً كـ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[١] وكما يرجو لهم حملة العرش: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨﴾[٢].

في هذه الجنات العدن يألف شمل أولئك الصابرون مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، و«أزواجهم» تعم أزواج النكاح زوجاً وزوجة، فقد يكون الزوج أصلاً والزوجة فرعه، وأخرى تكون الزوجة أصيلة والزوج فرعها، وثالثة يتفاوتان فريق في الجنة وفريق في السعير، وإذا كانا من أهل الجنة فلكلٍّ الخيار فيما يختار[٣] وكذلك الأزواج في الإيمان والصبر بمعنى القرناء التابعين لهم بإيمان وكما في ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾[٤].

و﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ هنا كما الأزواج تعم ذريات النسب الصالحة، وذريات التبعية الصالحة، كما وأن ﴿ءَابَآئِهِمْ﴾ قد تعم آباء التربية إلى آباء النسب، مع اشتراكهما في فرعية الصلاح، أن فلاناً رباك ولكنك أصبحت خيراً منه إيماناً وعمل الإيمان.

---

(١) سورة الطور، الآية: ٢١.

(٢) سورة غافر، الآيتان: ٧، ٨.

(٣) نور الثقلين ٣: ٤٩٩ المجمع عن العياشي بالإسناد عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له جعلت فداك أخبرني عن الرجل المؤمن له امرأة مؤمنة يدخلان الجنة يتزوج أحدهما الآخر! فقال: يا محمد إن الله حكم عدل إذا كان أفضل منها خيره الله فإن اختارها كانت من أزواجه وإن كانت هي خير منه خيرها فإن اختارته كان زوجاً لها، فيه عن الخصال عن موسى ابن إبراهيم عن أبيه رفعه بإسناده إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أم سلمة قالت له بأبي وأمي المرأة يكون لها زوجان فيموتان فيدخلان الجنة لأيهما تكون؟ فقال: يا أم سلمة تخير أحسنهما خلقاً وخيرهما لأهله، يا أم سلمة إن حسن الخلق ذهب بخير الدنيا والآخرة.

(٤) سورة الطور، الآية: ٢١.

وإن هذه الجمعية الصالحة المتلاحقة المتصالحة في الإيمان، فيها لذة وحظوة تضاعف لذة ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ وثالثة أن ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾ ورابعة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ سلام من الله كأصل السلام، ومن ملائكة الله كرسل السلام[1] مهرجان حافل باللقاء والإكرام وكل سلام وإعظام، فإن الدار هي دار السلام: ﴿۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[2] وذلك ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾.

تلك الضفّة العليا للصابرين أولي الألباب. ثم على الضفة الأخرى للكافرين المكابرين الذين ليست لهم ألباب:

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾:

ولأن عهد الله الموثق وما أمر الله به أن يوصل فيه الصلة المصلحة للأرض، فقطعهما - إذاً - إفساد في الأرض، فلا يحمل عهد الله وأمره إلا صالح الأرض بأهلها، دون صالحه تعالى، فالله هو الغني ونحن الفقراء.

ولأن عهد الله الموثق وما أمر الله به أن يوصل، هما بكل بنودهما المسرودة في الضفّة الأولى تجاه الخالق وخلقه، فيهما الصلة المصلحة

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٥٧ أخرج بعدة طرق عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ : أوّل من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء فيقول الله تعالى لمن يشاء من الملائكة: ائتوهم فحيّوهم فتقول الملائكة: ربنا نحن سكان سماواتك وخيرتك من خلقك أفتأمرونا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال الله تعالى: إن هؤلاء عبادي كانوا يعبدون في الدنيا ولا يشركون بي شيئاً وتسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كلّ باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٧.

للأرض بأهلها، ومصلحة لساكنيها، فقطعهما - إذاً - بمجرده إفساد في الأرض، كما السعي في معاكستهما سعي لإفساد الأرض، فـ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ بما التعنوا وابتعدوا عن صالح الحياة، حيث الإفساد بادئ في لعنته بالمفسد ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وعقباها فـ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ...﴾[1].

ولأن كل عهد يتبنى عهد الفطرة فالناقضون عهدها ناقضوا كل عهد، فحين يُنقض عهد العبودية لله تخلفاً عن الفطرة التي فطر الله، فهنالك النقض - وبالأولى - لكل العهود المعهودة في كل صغير وكبيرة، وهنا الطامة الكبرى حين لا يرعى عهد الله وكل عهد لخلق الله، حياة منفصلة عن كافة الحيويات، مندغمة في كافة الحيونات والشهوات، غير مستقرة على أية قرارات، وهنالك الإفساد في الأرض دون أية مبالات و﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ حيث يعيشون السوء واللعنة في الحياة من كافة الجهات.

إنّ ناقضي عهد الله من بعد ميثاقه آفاقياً وأنفسياً، هم يحسبونهم أنهم يحسنون صنعاً حيث يربحون بنقضهم الحياة الدنيا وهم جاهلون أن:

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)﴾:

فإنما الرزق بيد الله، دون الأيدي الأثيمة الناقضة لعهد الله ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ ولكنهم ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كأنها هي الحياة لا سواها، وهي الهدف الأسمى دون سواها ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ تبتغي به حياة الآخرة ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[2].

الحياة الدنيا ليست إلا متاع به يبتاع الحياة الآخرة، ولكنها ﴿مَتَاعٌ

(١) سورة طه، الآية: ١٢.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

﴿ٱلْغُرُورِ﴾ تغر الجاهلين بها وبالحياة الأخرى، أنها هي التي تبتاع بكل متاع ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[١] ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾[٢] تتمتع بها في هذه الأدنى ابتغاء رحمةٍ من الله بمتاعها في الأخرى بما قدمت يداك منها إليها.

أترى الحياة الدنيا هي في الآخرة حتى تكون فيها متاعاً؟ أجل، فإن الأحياء بها يحشرون إلى ربهم بنفس الحياة وما كسبوا فيها من عقائد وأعمال، فإنها لزامهم في هذه السفرة القاصدة، فيعيشون بها عيشة كما قدموا لأنفسهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر فـ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فإن الأعمال بأنفسها هي الجزاء حيث تظهر حقائقها: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ...﴾[٣].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾:

من مقالات الذين كفروا إعذاراً لأنفسهم في كفرهم وإنكاراً لآية الرسالة الإسلامية: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إذ لم يكونوا يحتسبون القرآن آية وهو الآية الكافية، البالغة الذروة العالية، فهم إنما يقترحون آية كما يشتهون دلت أم لم تدل، ويذرون آية دالة عبر القرون كأنها ليست بآية، ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾[٤] وإنما القصد من الآية هو التدليل الصالح على صدق الرسالة، وليست هي بخيرة الرسول: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٢) سورة غافر، الآية: ٣٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] فكيف تكون - إذاً - بخيرة المتعنتين.

ثم وليست آية الرسالة هي الهادية لو أن المرسل إليه لا يريد الإيمان، فإنما الضلالة والهدى بيد الله كما يختار المرسل إليه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي لا ينيب إلى ربه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2] ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ حتى وإن لم تأته آية الرسالة، فإنما الآية حجة قاطعة لقطع الأعذار.

والإنابة إلى الله تعني الرجوع إليه مرة تلو أخرى، وقد عرف من أناب بالإيمان والاطمئنان.



(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.
(٢) سورة الصف، الآية: ٥.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ (٢٨) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ (٢٩) كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ (٣٣) لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ (٣٤) مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ (٣٥)﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ (٢٨)﴾:

فالمنيب إلى الله مؤمن بالله قبل أن يأتيه ذكره، ثم بذكره يطمئن قلبه بالإيمان، و«ذكر الله» هو كل ما يذكر الله من ذكرى أنفسية فطرياً وعقلياً، أو ذكرى آفاقية من كتاب الذكر ورسول الذكر أم أي ذكر، والكون كله ذكر لله فإنه كله آية لله، وأفضل الذكر الوحي هو القرآن وعلى ضوئه الرسول، ثم من يحمل رسالته معصوماً.

فما آية الرسالة إلّا ذكراً تطمئن به قلوب مؤمنة من ذي قبل، وفي ذكر القرآن وآيته البارعة الخالدة كفاية عن كل ذكر: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا...﴾[1] والقرآن شهادة كافية وآية ورحمة وذكرى وافية تدليلاً على هذه الرسالة السامية! وآية الذكر - هذه - هي الوحيدة في سائر القرآن، المنقطعة النظير في هذا الكتاب البشير النذير، وقد تحلّق على كل ذكر بدرجاته، كما تطمئن القلوب به بدرجاته ودرجاتها.

فكما أن ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ إلى الله كذلك به تطمئن القلوب المؤمنة بالله إلى من آمن بالله وكما يروى عن رسول الله ﷺ قوله: «...ألا بذكر الله يتحابون»[2].

فكل ما يذكّر الله أو من يذكر الله فهو ذكر الله، وعلى حده وحدّته تطمئن القلوب إلى الله، وعلى هامشه وفي سبيله إلى أولياء الله، ثم ولا تطمئن القلوب بذكر غير الله كما وهو المستفاد من الحصر المدلول عليه بتقديم الظرف ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ على فعله ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

---

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ٥٠-٥٢.

(٢) الدر المنثور ٤ : ٥٨ - أخرج ابن مردويه عن علي (ع) أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: ٢٨] قال: ذاك من أحب الله ورسوله وأحب أهل بيتي صادقاً غير كاذب وأحب المؤمنين شاهداً وغائباً ألا بذكر الله يتحابون.

وترى إذاً ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ المؤمنة، فما هو موقف الحصر في ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾[(١)] فالقلب الوجل مضطرب ولا اطمئنان مع الاضطراب؟! إن الوجل هو قضية الإيمان حيث يخافون عذابه بما تقدمه أيديهم من أسبابه، وذلك قبل الاطمئنان التام ثم - ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[(٢)] فهم مضطربون من وعد العذاب، ثم يطمئنون برحمته على مزيد الإيمان عند تلاوة الآيات كما هي طبيعة الحال أمام القرآن: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[(٣)].

فمهما تقشعر الجلود وتوجل القلوب في بادئ الذكر بما يذكر المؤمن من تقصيره أمام ربه خوفاً من عقابه ولكنه لا يلبث بعيداً أن يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله، حيث يذكر عظمته ورحمته، ويتصل قلبه بمعدن النور اللّامحدودة، ويزيد نوراً على نوره، واطمئناناً على إيمان، ورجاء ثوابه، فـ «من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء».

إن القلوب الخالية عن الإيمان هي خاوية عن الاطمئنان، فهي مضطربة طول الحياة النكدة الكافرة، عمي عن نظارة النضارة بذكر الله ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[(٤)].

فإن بغية الإنسان فطرياً أياً كان هي الكمال اللّامحدود، وليس إلّا الله، فلا يصل إلى بغيته ما لم يتصل قلبه بالله، والاطمئنان بذكر الله هو حقيقة مرموقة مرقومة على تلك القلوب المؤمنة بالله، التي خالطت بشاشة الإيمان

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٢٣.
(٤) سورة الحج، الآية: ٤٦.

قلوبهم فاتصلت بالله، وتلك الاتصالة المعرفية الإيمانية هي التي تُطمئنها عن كل اضطراب تعيشه في الحياة الدنيا، حيث الدنيا بزخارفها وحذافيرها ومحدودياتها لا تثبت القلوب عليها مطمئنة بها، فالقلوب لهواها غير المحدود من الكمال المطلوب، هي دائمة التنقّل من هذه إلى تلك حتى إذا وصلت إلى الله فترتكن إليه وتطمئن به حيث تجد فيه بغيتها المرموقة المطلوبة، فلا تهوى بعد تنقّلاً وتبدّلاً، إلّا تأنقاً وتعمقاً في هذه الركينة العالية الذروة، واتصالة فاطمئنانة أكثر وأكثر حتى تصل إلى مقام «أو أدنى».

فكل اتصالة بغير الله هي انفصالة عن الله، فغربة واضطراب، وكل انفصالة عما سوى الله هي اتصالة بالله وقربة واطمئنان.

وليس في الحياة أشقى ممن يخلد إلى الأرض وكان أمره فرطاً، راضياً بالحياة الدنيا، واجساً من كل شيء خيفة، حيث لا يستشعر الصلة بالله، فهو يعيش معيشة ضنكاً مهما عاش في القصور العالية والأموال الطائلة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)﴾[(١)].

في الكون اضطرابات لا يصمد لها الإنسان أياً كان إلّا من يطمئن بذكر الله، فالمرتكن بغير الله غريب وحيد وهيد دائم الاضطراب، والمطمئن بالله قريب لا يحس أي اكتئاب.

فالنفس المطمئنة بالله تعيش ربها وترجع إلى ربها راضية مرضية ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾[(٢)] والنفس المطمئنة بالدنيا وزينتها هي مضطربة: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ

(١) سورة طه، الآيات: ١٢٤-١٢٦.
(٢) سورة الفجر، الآيات: ٢٧-٣٠.

ﭐلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾[(١)] تعيش معيشة ضنكاً وترجع إلى ربها غاضبة مغضوبة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ۝٢٩﴾:

وهؤلاء هم المطمئنة قلوبهم بذكر الله حيث يطمئنهم ويؤمنهم ويحملهم على عمل الصالحات، فهم لا سواهم ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾ في الحياة كل الحياة، حيث تطيب حياتهم الروحية بذلك الاطمئنان وعمل الإيمان، ثم ولهم ﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ حيث يرجعون إلى ربهم راضين مرضيين.

﴿طُوبَىٰ﴾ وهي مؤنث أطيب صفة لمحذوف يناسب الحياة، فهي الحياة الطوبى في الأولى وفي الأخرى: فـ ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[(٢)].

والشجرة المتشجرة من هذه الطوبى هي أولاً في بيت الرسول ﷺ[(٣)] ثم في بيت علي[(٤)] وأغصانها وفروعها المتهدلة هي في بيوت المؤمنين الصالحين، هنا مزيجة، وفي الأخرى ﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ حيث لا تشوبها غير طوبى.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٧.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٣) الدر المنثور ٤: ٥٩ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله ﷺ طوبى لمن رآك وآمن بك قال: طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني قال رجل: وما طوبى؟ قال ﷺ: شجرة في الجنة مسيرة مائة عام تخرج من أكمامها في نور الثقلين ٣: ٥٠٤ عن أصول الكافي قال أمير المؤمنين عليه السلام في حديث له عنه علامات أهل الدين «وطوبى شجرة في الجنة أصلها في دار النبي ﷺ وليس مؤمن إلا وفي داره غصن منها لا يخطر على قلبه شهوة شيء إلا أتاه به ذلك ولو أن راكباً مجداً سار في ظلها مائة عام ما خرج منه ولو طار في أسفلها غراب ما بلغ أعلاها حتى يسقط هرماً ألا ففي هذه فارغبوا إن المؤمن من نفسه في شغل والناس منه في راحة إذا جن عليه الليل افترش وجهه وسجد لله عز وجل بمكارم بدنه يناجي الذي خلقه في فكاك رقبته إلا فهكذا كونوا.

(٤) الدر المنثور ٤: ٥٩ - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن سيرين قال: شجرة في الجنة أصلها في حجرة علي وليس في الجنة حجرة إلا وفيها غصن من أغصانها في نور الثقلين ٣: ٥٠٢ عن =

فـ ﴿طُوبَىٰ﴾ هي الحياة الطيبة بمصاديقها المختلفة روحية ومادية في الدنيا والآخرة «فلا تكونن ممن يقول للشيء أنه في شي واحد» فإن هذه الوحدات ليست إلّا مصاديق للمفهوم الواسع.

وفي عدم تعريف ﴿طُوبَىٰ﴾ رغم أنها المبتدأ تأييد لتعميمها لكل طوبى دون اختصاص بشجرة في الجنة أمّاهيه.

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿كَذَٰلِكَ﴾ البعيد في أعماق التاريخ الرسالي والسنة الرسالية المستمرة مدى الزمان ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أنت يا حامل الرسالة الأخيرة العليا ﴿فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ فـ ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ ولا هم بدع من الأمم، ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ بجمعية الرسالات على ضوء جمعية الصفات إذ تحمل في رسالتك كافة الرسالات ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ﴾ الأمم كل الأمم في الطول التاريخي والعرض الجغرافي من الكون المكلف كله ﴿ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ونوحيه، حيث المضي في ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ تطوي مثلث الزمان، أم يعني وحي القرآن المحكم الماضي ليلة القدر، وقد تفصله الآيات المفصلات ماضية وحالية ومستقبلة، والأصل الأوّل في ﴿ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ هو القرآن المحكم، ثم الثاني هو القرآن المفصل، ومن ثم قرآن السنة فإنه وحيه في معناه وهو صنع الرسول في لفظه، وكل الثلاثة وحي يتلوه الرسول على الأمم، تلاوة لفظية

= رسول الله ﷺ قال: لما دخلت الجنة رأيت في الجنة شجرة طوبى أصلها في دار علي وما في الجنة قصر ولا منزل إلا وفيها فتر منها...

أقول: الجمع بين الأصلين أن أصلها الأول في دار الرسول ﷺ وأصلها الثاني في دار علي عليه السلام لأنه استمرار للرسالة المحمدية ﷺ. ولا تدخل مدينة علم الرسول إلا من باب علي عليه السلام.

وعملية وتطبيقية، وتلاوة إسماع وتعليم وتزكية ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾(١).

﴿وَهُمْ﴾ رغم هذه التلاوة المجيدة، التالية تلاوات الرسل ﴿يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي عمّم الرحمة الرسالية لكل الأمم، كأنهم يختصون رحمانية هذه الرحمة وعامتها بجماعة خصوص خلوا، فهم أولاء خلو من رحمته الشاملة، أم ليسوا هم بحاجة إلى تلك الرحمة الرسالية، فلا جواب لكفرهم هذا إلّا كلمة الرسالة الجامعة لكل الرسل: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ الذي رباني بهذه الرسالة السامية دون ظنّة ولا ضنّة، وكما هو رب الرسل الذين خلوا من قبل، فقد رباني بتلك التربية المكملة لما خلت حتى أربيكم بها فتفوقوا كل أمة خلت ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الذي رباني ورباهم ورباكم، فالرسالة واحدة من رب واحد مهما اختلفت درجاتها، وإن كنتم صامدين في نفوركم وكفوركم، متربصين بي دوائر السوء فها أنا ذا ﴿تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ﴾ في رسالتي ودعوتي كما في كل شؤوني، لا عليكم، حتى إذا كفرتم أترك دعوتي أو أكفر ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ ومرجعي في نهايتي لا إليكم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾(٢).

وهذه حجة قائمة صارمة تقضي على كل لجة عارمة وشجة خارمة، فإنهم مهما أرعدوا وأبرقوا ف ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾(٣).

يا عجباً أنهم يكفرون بالرحمن الذي تطمئن بذكره القلوب، ويؤمنون بالجبت والطاغوت، يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولكنك لا شأن لك إلّا ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٤٠.
(٣) سورة الشورى، الآية: ١٦.

ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٣١)﴾:

إن هذا القرآن فيه الكفاية الوافية لمن يتحراه ويسمعه ويراه ويفكِّر في مدلوله ومغزاه فـ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

إن هذا القرآن تسيَّر به العقول غير المعقولة بعقالات الهوى، وتقلب به القلوب غير المقلوبة عن الهدى، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ...﴾ ليلمسوا منه آية بصرية بديلاً عن آيته في البصيرة، فيكون فيه حَملٌ على الهدى، لم يكونوا ليؤمنوا كما لم يؤمنوا بآيات ملموسة من ذي قبل، ولو شاء الله لهداهم رغم هواهم، ولكن ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(٢) وهذا القرآن خير آية لمن يفتش عن إيمان عبر الآيات الرسالية! ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(٣) ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا...﴾.

وعلّ ﴿قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ إجابة عن متطلّبة جاهلة حمقاء من المتعنتين المتعذرين في آية القرآن وكما تقول الروايات(٤).

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢١.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١١.
(٤) الدر المنثور ٤: ٤٢ - أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عطية العرفي قال: قالوا لمحمد ﷺ لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها أو قطعت لنا الأرض كما كان لسليمان عليه السلام يقطع لقومه بالريح أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى عليه السلام يحيي الموتى لقومه فأنزل الله تعالى الآية، أقول وفي معناها باختلاف الألفاظ روايات عدة.

وهنالك جبال الإنيات وأراضي القلوب وموتى الأفكار والإدراكات تحررت وتغيرت بقارع البيان المعجز في القرآن، أوَلم يكف ذلك الخارق العظيم البارق كونه آية تفوق الآيات التي تسيّر الجبال وتقطع الأرض ويكلم بها الموتى؟

لقد سيّر القرآن ما هو أهم وأضخم من الجبال وهو تاريخ الأمم والأجيال، وهو جبال الإنيات والفرعنات، وجبال الطغيان من بني الإنسان، حيث سيّرها عن مقاعدها، واستأصلها عن قواعدها، وألانها عن صلدها، أم أزالها بصلدها، وكما نراه واقعاً منذ بزوغ الإسلام، وما أن واصل المسلمون في صمودهم الإسلامي السامي، ونراه في نِبؤُءِتْ هيِّلد:

«آيتا أمتاً مِزَعْ زَع بِرياتا عابِداً هَدْمِتا بِيَدْ بِنْ أمتاً»

ستأتي أمة تزعزع العالم وتحدث خرابات وإطفاءات بيد ابن الأمة -

«بِعالما وَنَشا وَحَرْدين كَرْشا جِبارين حاشا وَهَلْمين نَشا».

يلقي في العالم الخراب - الحراك - الزعزعة - الخوف - الإزعاج، يُبعد و«يسيِّر» ويهدم ويكسر»[١].

وفي كتاب حبقوق النبي ضمن البشارة بظهور القدوس من پاران (حرى) في الآية ٦ من الفصل ٣ يقول:

«عامِدْ ويمودِدْ أرِص رِآهِ وَيِتَّر غُويِم وَيِّت تِصِصُو هَرْرِي عَد شَحُوِ جِبْعُوت عُولام هَليخوت عُولام لُو»:

---

(١) هذه من وحي الطفل (لحمان حطوفاه) باللغة الأنقلوسية: العربيّة؟ المرموزة، وقد نقلناها تماماً في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» وما بين الخطوط الأفقية من ترجمة الجملة الثانية، هي من مختلف الترجمات لعلماء اليهود نقلنا عن منقول الرضائي لمؤلفه الحبر العظيم اليهودي الذي أسلم وألف كتابه هذا رداً على اليهود.

وقف ومسح الأرض، نظر وأذاب الأمم، وتبددت الجبال القديمة وخسفت وانحنت آكام وأتلال القدم، مسالك الأزل له.

ثم أراضي القلوب وأوعيتها، الصالحة لماء الحياة، المتقبلة للإنبات قُطِّعت عن جدبها إلى شقها عن نبتها فأنبتت وأينعت ثمار الإيمان وصالح الأعمال: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا...﴾.

ومن ثم نرى ميت الإنسان في قبور الجهالات والغفلات حيث أحييت بروح القرآن على قدر قابليتها وتقبلاتها وإقبالاتها في تحري الحق أم عدم التجري على الحق: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

فلقد أحيى القرآن مَن هم أخمَد من الموتى وأموت من الهلكى، حيث قتل الطغيان والأوهام أرواحهم، أفلا يكون هذه وتلك وتياك أعظم وأضخم وأقوم تأثيراً من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى؟

وهؤلاء الموتى بكامل الكفر، وحماقى الطغيان، يستبدلون هذا القرآن بالذي هو أدنى! إنه ليس أمر الإيمان بيدك، ولا بأيدي آيات الرسالة بصرية وبصيرية، حتى إذا جاءتهم آمنوا دون نكير، ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ من شاء هداه ومن شاء أضله، كلّاً كما يهواه ويعمل له دونما فوضى جزاف، فله أمر الآيات بنتيجتها كما يشاء وهي أدل وأحرى دونما تهواه أنفسهم ويشتهون، وهم بآيات الله يلعبون.

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ في أصل الرسالة ووحيها وآياتها وأوقاتها وأدوارها وأكوارها وأبعادها وحملتها.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ من إيمان هؤلاء الحماقى المتظاهرين بلمحة الإيمان لو استجيبوا في تطلّبات الآيات؟

﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ من استقلال التأثير لهذه الآيات مهما صغرت أو كبرت، قلت أو كثرت؟

وما أجدر نتيجة اليأس هذا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾ أن يحملهم على الهدى دونما اختيار، ولكنه أراد هدى باختيار وضلالاً باختيار، وهو يعلم الذي يختارون الهدى، أم يختارون الردى، فهم منصرفون عن آيات الله مهما كثرت: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[1].

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ تقرعهم في ذوات نفوسهم ختماً على قلوبهم وعلى سمعهم، وغشاوة على أبصارهم.. ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾[2] أم تقرعهم بما تصرعهم وتبيدهم كما في الأمم الهالكة في القرون الخالية بعد قرعهم في قلوبهم.

﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قارعة العذاب الهون بما كانوا يكسبون، وليعتبروا، ﴿تَحُلُّ﴾ قرب المكان أو قرب الزمان، بحيث تكون بمسمعهم ومرآهم شهود الواقع أم شهادة التاريخ.

هم لا يزالون على حالتهم التعيسة هذه والبئيسة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ﴾ عذاباً منذ الموت حتى القيامة الكبرى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ و﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[3]!

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.
(٢) سورة الصف، الآية: ٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٢.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾:

قارعة من قوارع التاريخ المتواصلة على المستهزئين برسل الله، إملاء ثم أخذاً ثم عقاباً فهم في تباب، وإنها تكفي معتبراً لمن يستهزئون بك يا حامل الرسالة الإلهية الأخيرة ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾(١) فالأمثلة حاضرة حاذرة، وفي مصارع الغابرين عبرة بعد نظرة وإمهال، فاصمد على دعاية صارمة لرسالتك، ولا تكن من الآيسين ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾(٢).

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾:

إنه تعالى قيوم بنفسه سبحانه ولخلقه ككل، ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ﴾ في نفسها فإنها قائمة به في كونها وكيانها و﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ روحياً أم مادياً في مثلث الزمان أياً كان وأيّان.

قياماً على كل نفس بالقسط: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾(٣) في التكوين والتشريع والعطيات والجزاء، وقياماً في الحفاظ عليها: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾(٤) ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾(٥) وقياماً لإحصاء مكاسبها خيرة وشريرة ليجازيها بها وكما هي تشهد كما صدرت لأصحابها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٧.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٩٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٦١.
(٥) سورة الرعد، الآية: ١١.

﴿١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ١٢﴾[١] والقيام المجرد يختلف عن القيام ﴿عَلَىٰ﴾ في معنى القيام، فليس هو الانتصاب والقيام بعمد[٢].

فهو - إذاً - قيام علمي وتكويني وحفاظي للأعمال بأصحابها.

وقد يعني قيامه على كل نفس - ككل - دوامه عليها دونما نعسة ولا نكسة. فـ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ كما الماء القائم هو الدائم الذي لا يجري، فالله تعالى دائم على كل نفس يُجريها ولا يجري، قياماً ربوبياً قيومياً يحلِّق على كل المتطلبات والحاجيات الخلقية لأولاها وأخراها.

فقيامه على كل نفس هو هيمنته عليها، وبما كسبت هو تدبيره لها، فلا يخرج من نفس خارج، ولا يفلت منها فالت عن قيامه عليها وقيامه بها فيما لها ومنها وإليها وعليها في كافة النشآت التي تعيشها.

أفهذا القائم الدائم تحق له الربوبية، أم الشركاء الذين جعلوا له، وهم لا يقومون على أنفسهم ولا بما يكسبون فضلاً عن عابديهم: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾[٣].

«و» هؤلاء الحماقى ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾: لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا نشوراً - ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ لأقل تقدير إذ لا يوجد لهم مسميات «أم» هي كائنة بأسمائها والله لا يعلمها وهي شركاؤه الذين جعلهم في زعمهم

---

(١) سورة الانفطار، الآيات: ١٠-١٢.

(٢) نور الثقلين ٢ : ٥٠٨ في في أصول الكافي علي بن محمد مرسلاً عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: اعلم علمك الله الخير أن الله تبارك وتعالى قديم - إلى أن قال -: وهو قائم ليس على معنى انتصاب وقيام على ساق في كبد كما قامت الأشياء ولكن قائم يخبر أنه حافظ كقول الرجل: القائم بأمر فلان والله هو القائم على كلّ نفس بما كسبت والقائم أيضاً في كلام الناس الباقي، والقائم أيضاً يخبر عن الكفاية كقولك للرجل: قم بأمر بني فلان أي اكفهم، والقائم منا على ساق فقد جمعنا الاسم ولم يجتمع المعنى.

وفي العيون رواه مسند متصلاً عنه عليه السلام مثله.

(٣) سورة يس، الآية: ٧٥.

شركاءه ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من شركاء وأنتم تعلمون؟ «أم تنبئونه بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ» بأسماء ليست لها مسميات.

كلا! فلا هناك في الكون مسميات الشركاء ولا أسمائها ﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾ في اختلاق الشركاء كما يهوون «و» بهذه الحجب الظلمانية بين الخلق والخالق ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ إذ حصروا العبودية للشركاء، أو الطاعة للطواغيت، فلم يبقوا لله مكانة في طاعة ولا عبودية، ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ بما أزاغ قلبه حيث زاغ، وطبع على قلبه بعدما انطبع ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ أنهم لا يملكون لشركهم ولشركائهم أي برهان من هذه أو تلك، إذ لا يقول بها ذو جنّة، بل زين لهم مكرهم، فلا يهدفون من جعل الشركاء لله إلا الصد عن سبيل الله، أن ينشغل العباد بها عن الله، فيعيشون حياة الحرية اللّامبالاة، غارقين في حيونة الشهوات.

فهل القائم على كل نفس بما كسبت، لا يقوم على أنفس الشركاء بما كسبت - في زعمكم - من شرك في الربوبية، فهل هي تكسب ذلك المقام السامي إلّا بما يكسبه الله.. ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهو يعلم ما في السماوات وما في الأرض، ﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ﴾ لا يملك باطناً وواقعاً من كائن الشركاء؟! وهل إن قضية الألوهية بلغت من التفاهة والهزل بحيث تتناول بظاهر من القول وليس له مدلول، وكل ما له مدلول سوى الله فقير إلى الله وقائم بالله! فهؤلاء الهمجيون الحيارى السكارى يكسبون بهذه الاختلاقة الجنونية عذاباً فوق العذاب:

﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾﴾:

ومن عذابهم في الحياة الدنيا ضمن ما تصيبهم من قارعة فيها، أو تحل قريباً من دارهم، هو جفاف القلب من ندى الإيمان، وحيرته دونما

اطمئنان، واضطرابه في كل آن ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ...﴾ مهما كان لهم هنا من واق ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾!

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾:

المثل هو الذي يمثّل الشيء توصيفاً يقربه أم نموذجاً من جنسه، وهو هنا التوصيف بأمور ثلاثة: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لأنها ملتفة الأشجار من فوق والأنهار في أرضها جارية ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ لا يفتر ﴿وَظِلُّهَا﴾ دائم.

ودوام الظل هناك دليل دوام الشمس فلا ليل فيها، أم الظل الدائم في نهارها حيث يظل أهلوها في ظلها بعيدين عن حرّ الشمس ونفاذ نورها وأذى نارها، وطبعاً هي شمس الآخرة المخلوقة بعد تكور شمسنا هذه يوم قيامتها.

﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ إيماناً وعمل الإيمان، دون الذين آمنوا دون عمل، أم عملوا صالحاً دون إيمان، وإنما التقوى الجامعة لهما هي الكافلة لذلك الوعد الصادق الأمين.

إذاً فـ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هنا كما يعني كفر العقيدة والعمل، كذلك يعني الكفر في كل مهما آمن بالآخر، ولا سيما كفر العقيدة حيث لا يصلح عمل في كفرها، مهما نجى تارك الصالحات بعقيدة الإيمان بعد عقبى النار في برزخه وعقباه.



﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ هم عامة أهل الكتاب، التالين له حق تلاوته، العارفين به، سواء في ذلك كتاب الإنجيل أو التوراة أم أي كتاب محرف وسواه، حيث الحق متجلٍّ في كتابات السماء دون مرية، مهما دخل فيها الباطل بأيدي الدس والجهل.

هؤلاء هم ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ لا ﴿أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(١) فإنهم لم يؤتوا إلا ما يؤتيهم علماؤهم فمنهم صالحون ومنهم دون ذلك كانوا طرائق قدداً، وطبيعة الحال في إيتاء الكتاب علماً ودراسة هي الفرح ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ حيث الوحي قبيل واحد مهما اختلفت درجاته، فالعارف بوحي الكتاب يعرف حق الوحي في القرآن وزيادة فإنه مهيمن على الوحي كله.

فـ ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٢) لأنهم ﴿... يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ...﴾(٣) فهم ﴿... يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾(٤) ﴿... وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٥).

فهم - على أية حال - ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ حيث يصدق ما أنزل إليهم، ويتجاوب معه في الأصول العقائدية والأحكامية، وتحمل بشارات بحق القرآن ونبيه، وذلك فرح التصديق بكله والإيمان به، مهما كان: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ وهم المتحزبون خلاف الحق ممن أوتي الكتاب، كالمحرفين الكلم من بعد مواضعه والتابعين لهم، إنكاراً للبعض الذي يشير أو يصرح ببشارات في كتابات السماء، والمصرح خلاف الاختلافات اللاهوتية الثالوثية في الإنجيل، أو الشركية التجسيمية في التوراة، وثالثة احكامية تعارض مخلفات الأحكام الكتابية، وإخباراتها بحق المرسلين وسواهم، ومنهم الأحزاب غير الكتابيين إذ لا يقدرون على إنكار القرآن

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٤.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.

كلِّه، كما ومنهم من يؤمن به كله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾(١).

فالأحزاب المنكرة لبعضه هم أعم من أهل الكتاب والمشركين، ولكن طبيعة الحال للذين آتيناهم الكتاب هي الإيمان به بحجة الكتاب، فما كفرهم به بعضاً أو كلاً إلّا تخلفاً عن حكم الكتاب جهلاً أو علماً.

والمحور الرئيسي في نكران البعض هو التوحيد حيث الكتابات العتيقة والجديدة (العهدين) مليئة من اختلاقات تغشى وجه التوحيد الحق لحدّ يسمى ثالوثهم «توحيد الثالوث» كأنه الحق لا سواه! لذلك فـ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ رافضاً ما تدعون إليه من ثالوث الألوهية، وإشراك المسيح مع الله في العبودية، والإياب إليه كما إلى الله المآب! فالفريق الصادق من أهل الكتاب، والمتحري الحق من غيرهم ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ﴾ حقيقة نفسية في القلوب الصافية الضافية وهي فرح الالتقاء على الحق وزيادة اليقين بصحة ما لديهم كتابياً أو فطرياً حيث يؤازره الكتاب الجديد في الحق السديد.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾:

إن القرآن حكم في كافة الحقول، عربي واضح لا تعقيد فيه لدى كل العقول، فهو دون توجيه وتحميل يوافق وحي الفطرة كإجمال، ويوافق وحي الرسالة في كتاباتها كتفصيل، دون حاجة إلى لزق التوجيهات غير المتحمّلة، أو لصق البراهين الخارجية، فإنه في نفسه حجة عربية لا ريب فيه، ولا شبهة تعتريه.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٧.

فالقرآن كله حكم منزل، يعم الأحكام الفطرية والعقلية والفرعية الشرعية، لا تجد فيه آية إلّا وتحمل حكماً أو أحكاماً عربية: واضحة لائحة لدى العقول الصافية، لا تعقيد فيها، لا في التعبير لمكان الفصاحة القمة وبلاغتها، ولا في المعبَّر عنه لمكان التجاوب والملاءمة التامة مع الفطر والعقول والواقعات والمتطلّبات.

فلا يعني من ﴿حُكْمًا﴾ فقط الأحكام الفرعية، ولا من ﴿عَرَبِيًّا﴾ عربية اللغة، حتى ينبري المبشر الإنجيلي قائلاً إنه يختص بالعرب دون سواهم، فالحكم هو كل حكم، والعربية هي كل واضحة لائحة، فقد يكون الحكم عربي اللفظ في اللغة، والمعنى معقّد، أم عربي الدلالة والمعنى مبهم لدى العقل والفطرة، أم عربي المعنى دلالة ومدلولاً ولكنه معقد في التصديق أو التطبيق، فالحكم الذي لا تعقيد فيه دلالة ومدلولاً وتصديقاً وتطبيقاً هو العربي المطلق المطبق، وكذلك القرآن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]! أجل ولا تجد آية طيلة الرسالات الإلهية، عبر آياتها الرسالية، أعرب من آية القرآن وأحكم، لحدّ تعتبر الآية الوطيدة، غير الوهيدة، آية كافية وافية لمتطلبات الآيات وزيادة هي رمز الخلود لمن يستقبلونها طول الزمان حتى القيامة الكبرى، كما كانت لمن مضى.

كما وأنه الحكم كلُّه وكلُّ الحكم، حكم الآية التكوينية كآية الرسالة الختمية، على كونه حكم الآية التشريعية كمادة الرسالة في الأصول الأحكامية وفروعها، وفي كافة الأقضية على مختلف الحقول الفردية والجماعية، السياسية والاقتصادية، الثقافية والحربية أماهيه من أحكام تربط فصالات المجتمعات أو الأفراد، وهو - ككل - حكم قيادي يقود كافة المكلفين في دولة مباركة واحدة بزغت منذ الدولة الإسلامية في المدينة

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

المنورة رغم العراقيل التي حالت دون شمولها، وسوف تشمل العالم كله إرغاماً للعراقيل كلها زمن القائم المهدي من آل محمد ﷺ. ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾(١).

أفبعد ذلك الحكم العربي الكامل الشامل يبقى مجال لاتباع الأهواء من الذين أوتوا الكتاب أمن سواهم، مسايرة معهم لكي يوافقوا على القرآن ويصادقوه؟

ويا لذلك التهديد الظاهر الصارم ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ من تحديد لموقف القرآن العظيم ورسوله النبي الكريم، أنهما خالدان عبر الأعصار والأمصار، دونما غيار بأي عيار، فلا تسامح ﴿بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾(٢) في أي تحوير وتغيير، وحتى لو كان من الرسول ﷺ ولن! حيث الولاية الكافية والوقاية الوافية لا توجدان إلّا في ذلك الحكم العربي لا سواه.

ففي حكم القرآن العربي تجد الولاية المطلقة، والوقاية المطلقة، النازلة من منزل الوحي إلى منزله ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾(٣).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ﴾ تحقق - في تأكيدين - السنة الدائبة الرسالية للرسل كافة أنهم بشر مثلنا فلا يملكون شيئاً من غيب الله وحياً وآية رسالية إلا ما أذن الله، فلييأس الناس المتعنّتين على الرسول أن يأتي بآية كما يشتهون، حيث الآية الرسالية غيب كما الوحي غيب: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ

(١) سورة غافر، الآية: ١٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٥.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٧.

إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾[١] ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٢] وليست الآيات تتشابه إلّا في مدلولاتها دون صورها وأبعادها، فلا ينزلها الله إلا في آجالها المكتوبة لها كما تقتضيه الحكمة الرسالية، فـ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ من آجال الرسالات وسواها ﴿كِتَابٌ﴾ مرقوم رقمه الله، وحياً وآية لرسالته، كما أن ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٣].

فكل أمة رسالية لها أجل طال أم قصر كما حدده الله، وأجل الأمة الإسلامية أجل الكون كله وهو القيامة الكبرى، ولكل أجل كتاب يرسم شرعته وحياً هو الشرعة، وآية رسالية تثبت الشرعة، وكما ليس الشرائع شرعة واحدة إلا في جذورها وهي الدين الواحد، كذلك آياتها ليست واحدة إلا في مدلولاتها وهي إثبات وحي الشرعة.

فكتاب كل أمة وحياً وآية الوحي يناسب أجله طوله التاريخي وعرضه الجغرافي، وكتاب الأمة الإسلامية يجاوب في خلوده أجلها حتى القيامة الكبرى عبر الأمصار والأعصار، فلا كتاب يحق له إلا كتابه الذي جمع وحيه وآية وحيه، كتاباً منقطع النظير عن كل بشير ونذير، مهيمناً على ما بين يديه من كتاب، ومتقدماً على تقدم الزمن بكل عقلية وعلمية بارعة، بل هو أمام العلم وإمامه، ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾! فلا يملك آجال الأمم وكتبهم إلا الله دون رسل الله ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ دون تخويل له أن يأتي بها كما يشاء، ولا تعطيل ألّا يأتي الله بأيّة آية، فإن فيه

(١) سورة يونس، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.

تعطيل الرسالة، بل هو عوان بين ذلك دون إفراط التخويل ولا تفريط التعطيل، بل هو إذن الله قريناً بفعل الرسول أم دون فعله، وإنما التدليل على أن الآية للرسول حتى يصدّق في وحيه الرسالي بالآية الإلهية.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥ أُمُّ الْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾:

آية وحيدة منقطعة النظير لا ثانية لهما في سائر القرآن إلا أم الكتاب: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ الْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[(١)] ولأن المحو ليس إلا إذهاب الكائن برسمه أو أثره، والإثبات هو استمراره، فمقسم المحو والإثبات هو الثابت قبلهما بثبات يقبل المحو والإثبات.

ولأن الثبات الأول هو قبل المحو والإثبات، فليكن هو الأم الثابت في علم الله، وفيه كل كائن أياً كان وأيان إلى يوم القيامة، ثم الكتاب هو تحقيق العلم وتطبيقه، محواً لبعض بعد ردحه إلى أجله كما يشاء، وإثباتاً لآخر كما يشاء، «وهل يمحى إلا ما كان وهل يثبت إلا ما لم يكن»[(٢)]؟ فـ «لكل أمر يريده الله فهو في علمه قبل أن يصنعه وليس شيء يبدو له إلا وقد كان في علمه إن الله لا يبدو له من جهل»[(٣)] «ما بدا لله في شيء إلا كان في علمه قبل أن يبدو له»[(٤)] فلا يعني البداء علماً بعد جهل، بل فعلاً كان يعلمه قبل ويجهله خلقه فبدا لهم غير ما كانوا يظنون.

فلا محو في علمه بعد كونه، ولا إثبات فيه بعد أن لم يكن، وإنما محو وإثبات في تكوين أو تشريع لما كان في سابق علمه، فصبغه بسابغ مشيئته وإرادته وقدره وقضائه وإمضائه.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤.
(٢) في الكافي وتفسير العياشي بإسناد عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية..
(٣) نور الثقلين ٢: ٥١٢ عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: إن الله يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ويمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء وعنده أم الكتاب وقال: لكل أمر..
(٤) المصدر: ٥١٦ بإسناده عن عبد الله بن سنان عنه عليه السلام: ...

ولأن قوله قبل ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ قد يخيّل إلى جاهله أنه يبدو له تعالى فيما يؤجِّل من أجل ويكتب من كتاب، فآية المحو والإثبات تقرر كضابطة سارية أن المعلوم من تكوين وتشريع في الخلق عند الله، إنه لا تتغير عما كان، فإنما يمحو مما كان، ويثبت مما كان أجلاً وكتاباً أم أياً كان، في مرحلة الخلق والإبرام.

فقد يمحو عن الخاطرة خطرة كانت منذ زمن بعيد أو قريب، أم يثبتها فلا ينساها صاحبها كما القرآن: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[١].

أو يمحو رسالة بوحيها عن وجوب الاتباع كسائر الرسالات، إلّا الأخيرة الإسلامية حيث يثبتها حتى القيامة الكبرى.

أو يمحو آية رسالية تثبت وحيها، يمحوها عن صورتها إلى صورة أخرى علها أحرى منها أو مثلها في رسالة أخرى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[٢] والسيرة هي السيرة تدليلاً على صدق الوحي، أو يمحو آيات بصرية عابرة عبر رسالاتها ويثبت آية يخلِّدها عبر الأعصار والأمصار إلى يوم لقاء الله كما القرآن، فإنه وحي ثابت وآية ثابتة تجاوباً صادقاً مع شرعته الثابتة إلى يوم القيامة.

أو يمحو أجلاً في أمِّ الكتاب إلى أقل منه، أو يثبته إلى أجله المحتوم، أو يمحو آجالاً معلّقة أو يثبتها، في أعمار وأرزاق أمّاهيه.

أو يمحو سيئات بمكفراتها، أم يثبتها ركاماً على بعض إذ لا مكفر لها، وكل ذلك حسب الحكمة الربانية، وفقاً للأقدار المخيرة في التكاليف، والمسيّرة في غيرها، دونما فوضى جزاف وأن الله ليس بظلام للعبيد.

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

وإذا تسأل العالم كيف علم الله؟ فالجواب الرائع البارع الجامع: «علم وشاء وأراد وقدر وقضى وأمضى، فأمضى ما قضى، وقضى ما قدر، وقدر ما أراد، فبعلمه كانت المشيئة، وبمشيئته كانت الإرادة، وبإرادته كان التقدير، وبتقديره كان القضاء، وبقضائه كان الإمضاء، والعلم متقدم المشية، والمشية ثانية، والإرادة ثالثة، والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء، فللّه تبارك وتعالى البداء فيما علم متى شاء، وفيما أراد لتقدير الأشياء، فإذا وقع القضاء بالإمضاء فلا بداء، فالعلم في المعلوم قبل كونه، والمشيئة في المنشأ قبل عينه، والإرادة في المراد قبل قيامه، والتقدير لهذه المعلومات قبل تفصيلها وتوصيلها عياناً ووقتاً، والقضاء بالإمضاء هو المبرم من المعقولات ذوات الأجسام، المدركات بالحواس من ذي لون وريح ووزن وكيل ومادب ودرج من إنس وجن وطير وسباع وغير ذلك مما يدرك بالحواس، فللّه تبارك وتعالى فيه البداء مما لا عين له، فإذا وقع العين المفهوم المدرك فلا بداء والله يفعل ما يشاء»[1].

إذاً فليس أن الله فرغ من الأمر بما علم قبلُ، فقدّره حتى لا تكون لنا خيرة، ولا لله محو أو إثبات كما قدره بمختلف الخيرة، فلا اختيار - إذاً - في خير ولا شر، ولا ينفع دعاء قلباً أو قالباً، ولا توبة واستغفار وشفاعة ولا أية وسيلة مختارة تقتضي محواً عما كان أو إثباتاً له أو تجديداً، كلا! بل لله الأمر جميعاً ﴿يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَـٰبِ﴾.

أمّ الكتاب كأصل مقرر في علمه ليس إلّا عنده، ثم عندنا الأعمال حسب الآمال، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ف ﴿يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مما ثبت في علمه الأوّل إذا تسببت في محوه ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما ثبت في علمه الأول

(١) نور الثقلين ٣: ٥١٦ ح ١٧٨ عن أصول الكافي الحسين بن محمد عن يعلى بن محمد قال: سئل العالم كيف علم الله؟ قال: يعلم...

إذا تسببت في إثباته، فالأصل الأول هو الخير لكل كائن في العلم الأول، ثم ويعلم الله من يستحق إثباته أو محوه، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء وعنده أم الكتاب.

وليس البداء في علمه سبحانه وتعالى عن جهل، بل هو فينا حيث يخيل إلينا حصول أمر بتخيّل حضور أسبابه، ثم نراه لم يحصل فيبدو لنا أن أسبابه ناقصة، فهو إذاً ليس إلّا ظهور أمر أو إرادة منه تعالى بعدما كان الظاهر لنا خلافه جهلاً منا بحقائق الأمور، فـ «من الأمور أمور محتومة كائنة لا محالة، ومن الأمور أمور موقوفة عند الله يقدم فيها ما يشاء ويمحو ما يشاء ويثبت منها ما يشاء لم يُطلع على ذلك أحداً يعني الموقوفة فأما ما جاءَت به الرسل فهي كائنة لا يكذب نفسه ولا نبيه ولا ملَائكته»[1] «كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: لولا آية في كتاب الله لحدثتكم بما كان وما يكون إلى يوم القيامة ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2].

فالأمور المحتومة ما لا يعنيها الاختيار ولا تعنيها الأسباب المختارة، والموقوفة هي المترتبة على أسبابها المختارة، فالله تعالى يعلمها بأسبابها، فلو أظهر هذه الحوادث المستقبلة للعاملين لبطلت مختلف المحاولات ومختلف الحالات، ولعاش المكلفون اتكاليات دون سعي وعمل!.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾:

عليك بلاغ الوحي تبشيراً أو إنذاراً، أحكاماً وإخباراً، وعلينا الحساب قبل أن نتوفينك أم بعده، فلا تستعجل لهم ﴿ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ ولا تستأجل ﴿فَإِنَّمَا

(١) تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: . . .
(٢) المصدر عن زرارة عنه عليه السلام . . .

عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾! فلا عليك ولا لك أن تتبع أهواءهم فيما يتطلبون من آية الرسالة أم آية العذاب ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾:

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[١].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ عطف على محذوف علّه بمناسبة المقام ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ حيث العذاب عذاب سواء أكان لهم: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾[٢] أم لأضرابهم: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ...﴾[٣].

فإن لم يروا عذاباً في أنفسهم ﴿بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ في سير التاريخ وسبره ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ إتيان القدرة الفعالة والربوبية الحكيمة، دون إتيان الذات، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وجمعية ﴿أَنَّا نَأْتِى﴾ هي جمعية الصفات، فقد يأتي الأرض إتيان الغضب على الجاحدين فينقصها من أطرافها وجوانبها الجبارة من قصور وأهليها المستكبرين، وهنا الأطراف جمع «الطرف»: الجانب، وهو جانب الظلم وثقل الزور والغرور، وفي ذلك النقص رحمة لأهل الله وعامة المستضعفين حيث غلب هنالك المبطلون ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[٤]؟ فقد «يعني بذلك ما يهلك من القرون فسماه إتياناً»[٥].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٣١.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٣١.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٤٤.
(٥) نور الثقلين ٣: ٥٢٠ ج ٢١ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام وقال: أولم يروا أن نأتي الأرض ننقصها من أطرافها «يعني بذلك ما =

وقد يأتيها ينقصها من أطرافها: كرائمها وعيونها الناظرة الناضرة وهي «علمائها»[(١)] ودعاتها إلى الحق، وهنا الأطراف جمع الطرف: الجفن والنظر، وجمع الطرف: الشيء الكريم، وهو الذي يُطرَف إليه ويُنظر، وفي ذلك رحمة لهؤلاء الأطراف أن يخرجهم من دار الظالمين إلى جوار رحمته، وابتلاء للمؤمنين فإن في ذهاب العِالم ذهاب الرحمة وثلمة في الإسلام لا يسدها شيء.

ولكن أين ذهاب من ذهاب، فالعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وأنفسهم في القلوب موجودة، والمستكبرون الجهال ذاهبون حال حياتهم فضلاً عما بعد ذهابهم ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[(٢)] فذهاب علماء الأرض هو من تأويل الآية وتعميمها عن موردها، وذهاب عملائها من تنزيلها حيث وردت بنظيرتها فيهم، «فلا تكونن ممن يقول في شيء أنه في شيء واحد».

ففي ذهاب العملاء المستكبرين عبرة للكافرين، وفي ذهاب علمائها عبرة للمؤمنين، امتهاناً للأولين وامتحاناً للآخرين.

= يهلك من القرون فسماه إتياناً».. وفي تفسير البرهان ٢: ٣٠١ عن ابن شهر آشوب عن تفسير وكيع وسفيان والسدي وأبي صالح أن عبد الله بن عمر قرأ الآية يوم قتل أمير المؤمنين عليه السلام وقال: يا أمير المؤمنين لقد كنت الطرف الأكبر في العلم، اليوم نقص علم الإسلام ومضى ركن الإيمان، والزعفراني عن المزني عن الشافعي عن مالك عن سدي عن أبي صالح قال لما قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال ابن عباس: هذا اليوم نقص العلم من أرض المدينة ثم قال: إن نقصان الأرض نقصان علمائها وخيار أهلها إن الله لا يقبض هذا العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الرجال ولكن يقبض العلم بقبض العلماء. حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فيسألوا فيقفوا بغير علم فضّلوا وأضلوا.

(١) نور الثقلين ٣: ٥٢٠ في أصول الكافي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: إنه يسخى نفسي في سرعة الموت والقتل فينا قول الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الرّعد: ٤١] وهو ذهاب العلماء، ومثله في الفقيه وسئل عن قول الله عزّ وجلّ: ... فقال: فقد العلماء.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٧.

كما وأن في ذهاب أرض الكافرين وملكهم نقمة لهم ونعمة للمؤمنين، وفي ذهاب أرض المؤمنين آية وذكرى لقوم يؤمنون.

فالأرض بمن عليها وما فيها منقسمة إلى صالحة وطالحة، ونقصها من أطرافها يعمهما، مهما نزلت الآيتان في انتقاص الطالحين، حيث النقص للصالحين امتحان وابتلاء، وهو نقضٌ للطالحين وامتهان وبلاءٌ.

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾ هنا وهناك لا سواه و﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ يتعقبه فيغلب عليه فإن ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ في الأولى والآخرة، فمهما خفي حسابه هنا فهو جلي هناك ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[2].

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾:

إن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ - متعنتين معاندين - لم يكونوا ليؤمنوا مهما أتيتهم بكل آية، فلئن يطلبوا آية على هذه الرسالة فإنها تملك الآية القمة الخالدة وهم بها كافرون، فضلاً عن الآيات الحسية العابرة فإنهم بها أكفر ولها أنكر وأمكر! فتراهم بعد كل هذه الحجج يقولون ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ فهنالك يا رسول الهدى ﴿قُلْ﴾ قولك الأوّل والأخير كحجة دامغة ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

فكتاب الله: القرآن هو شهادة كافية لله، ورسول الله شهادة، ومن عنده علم الكتاب وهو شاهدٌ من رسول الله حيث رباه كما رباه الله، وهو العالم

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.
(٢) سورة فاطر، الآية: ١٤.

من أهل الكتاب - هما شهادة من الله، شهادات أربع و﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

فالقرآن شهادة كافية في بعدي الرسالة وآيتها الخالدة: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ . . .﴾[1].

والرسول شهادة هو بنفسه لرسالته وكما المرسلون أجمع: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[2] حيث التربية الرسالية لائحة في أحوالهم، ظاهرة في أقوالهم وأعمالهم.

وخليفة الرسول شهادة لهذه الرسالة، كما العلماء الربانيون من أهل الكتاب ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3].

فالرسول على بينة من ربه هي القرآن ونفسه المقدسة، وشاهد منه الذي يتلوه هو الإمام علي عليه السلام حيث صنعه كنفسه وربّاه كما رباه ربه على عينه ورعايته، فهو من آيات رسالته كما هو استمرارية لرسالته، ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حيث يحمل بشارات في تصريحات وإشارات بحق القرآن ونبي القرآن وشاهد منه! ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قرآناً كمن يتلوه شاهداً منه وعترته المعصومون أجمعون، وتوراة كعلماء أهل الكتاب الربانيون حيث يفرحون بما أنزل إليك وهم به يؤمنون.

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ٥٠-٥٢.
(٢) سورة يس، الآية: ١٦.
(٣) سورة هود، الآية: ١٧.

أفبعد هذه القواعد الأربع من الشهادات الإلهية ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ فلئن أتى بآيات النبيين أجمع لم يكن مرسلاً - في زعمكم - بطريقة أولى، فإنها أدنى من شهاداته العليا.

النسخة الأصيلة الأولى ممن عنده علم الكتاب هو ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ علي أمير المؤمنين عليه السلام وأضرابه(١) والنسخة الثانية علماء أهل الكتاب كعبد الله ابن سلام(٢) وأضرابه، وأفضل الشهود بين الأربعة هو القرآن ونبي القرآن، ثم شاهدٌ منه «علي» عليه السلام من ثم علماء أهل الكتاب.

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٦٩ أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسقف من اليمن فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هل تجدني في الإنجيل رسولاً؟ قال: لا فأنزل الله : ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ . . .﴾ [الرّعد: ٤٣] يقول: عبد الله بن سلام، أقول: وفي روايات عدة أن عبد الله ابن سلام كان يفتخر بنزول الآية فيه في مواطن عدة، وفي روايات أخرى منهم عبد الله بن سلام والجارود وتميم الداري وسلمان الفارسي، أقول: وكون السورة مكية لا ينافي كون أمثال عبد الله بن سلام من مصاديق ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣] فإنه من باب الجري كما الأئمة المعصومون وسائر علماء أهل الكتاب بعد العهد المكي كلهم من مصاديق هذه الآية دونما استثناء.

(٢) نور الثقلين ٢ : ٥٢١ في الاحتجاج عن سليم بن قيس قال سأل رجل علي بن أبي طالب فقال له وأنا أسمع : أخبرني بأفضل منقبة لك قال: ما أنزل الله في كتابه، قال: وما أنزل الله فيك؟ قال : قوله: ﴿. . . وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرّعد: ٤٣] إياي عنى بمن عنده علم الكتاب، فيه عن أصول الكافي بإسناده عن بريد بن معاوية قال قلت لأبي جعفر عليه السلام : ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ . . .﴾ [الرّعد: ٤٣] قال: إيانا عنى وعلي أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفي الخرائج والجرائح بإسناده عنه عليه السلام مثله، في أمالي الصدوق بإسناده إلى أبي سعيد الخدري قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الآية قال: ذاك أخي علي بن أبي طالب، أقول: وقد استفاضت الأحاديث في أنه علي عليه السلام وهو من باب الإشارة إلى أفضل المصاديق، وكما استفاضت أنه ليس عبد الله بن سلام لأن السورة مكية وهو أسلم في المدينة، وقد تعني الثانية أنه ليس هو شأن نزولها كمصداق أجلى، بل هو علي عليه السلام ومن ثم هو وأمثاله.

وفي كفاية الخصام ص ٤٣٦ أخرج ستة أحاديث من طريق إخواننا وثمانية عشر من طريق أصحابنا أن ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هو علي عليه السلام فمن الأوّل ما أخرجه عن الثعلبي في تفسيره عن عبد الله بن عطا عن أبي جعفر عليه السلام وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وابن المغازلي الشافعي =

والكتاب هنا في القدر المشترك بين ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ هو كتاب التدوين قرآناً وسائر كتابات الوحي، وفي الحد الخاص بالأئمة المعصومين هو كتاب التكوين بإذن الله، فقد كان عند آصف بن برخيا وزير سليمان علم من كتاب التكوين إضافة إلى كتاب التدوين ففعل ما فعل: و﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى...﴾[1].

فهذا الذي عنده علم من الكتاب، فكيف ترى من عنده علم الكتاب؟ وهو علي والمعصومون من ولده الطاهرين، فهم على هذه الخوارق بإذن الله أقدر[2].

= بإسناده عن علي بن حابس، وأبو نعيم الأصفهاني والثعلبي بسندهما عن أبي الحنفية والشيخ علي بن يونس النباطي العاملي في كتابه الصراط المستقيم عن تفسير الثعلبي.
وفي ملحقات إحقاق الحق ج ١٤ ص ٣٦٢ عن العلامة ابن المغازلي الشافعي في المناقب (مخطوط) والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ج ١: ٣٠٧ بعدة طرق، والبدخشي في مفتاح النجا (ص ٤٠ مخطوط) والشيخ عبيد الله الحنفي الأمر تسري في أرجح المطالب ص ٨٤ و١١١ والقندوزي في ينابيع المودة ص ١٠٣ وعبد الله الشافعي في مناقبه (ص ١٥٧ مخطوط) والحافظ حسين الجري في تنزيل الآيات ص ١٥ مخطوط، كلهم أخرجوا نزولها في شأن علي عليه السلام.

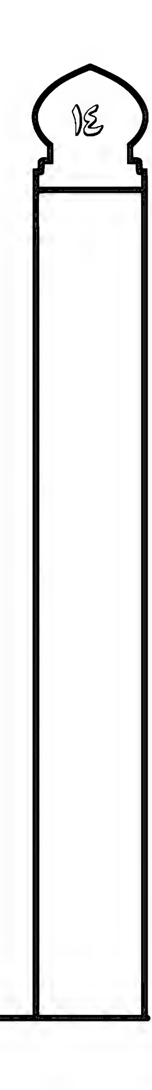
(١) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٢) في تفسير البرهان ٣: ٣٠٢ إلا عن الكافي بإسناده عن سدير قال: كنت أنا وأبو بصير ويحيى البزاز وداود بن كثير في مجلس أبي عبد الله عليه السلام إذ خرج علينا وهو مغضب فلما أخذ مجلسه قال: يا عجباً لأقوام يزعمون أنا نعلم الغيب ما يعلم الغيب إلا الله عز وجل، لقد هممت بضرب جاريتي فهربت مني فما علمت في أي بيوت الدار هي قال سدير فلما أن قام من مجلسه وصار في منزله دخلت أنا وأبو بصير وميسر وقلنا له: جعلت فداك سمعنا وأنت تقول كذا وكذا في أمر جاريتك ونحن نعلم أنك تعلم علماً كثيراً ولا ننسبك إلى علم الغيب قال فقال يا سدير أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قال فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عز وجل: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠] قال قلت: جعلت فداك قد قرأته قال: فهل عرفت الرجل وهل علمت ما كان من علم الكتاب؟ قال قلت فأخبرني به قال: قدر قطرة من الماء في البحر الأخضر فما يكون ذلك من علم =

علماء أهل البيت المعصومين يجمعون إلى علم كتاب التدوين قرآناً وسواه من كتابات النبيين، علم كتاب التدوين، والحجة الشاهدة لهذه الرسالة السامية هي في شخص علي عليه السلام فإنه شاهد منه، وذلك يجري في ولده المعصومين، ثم ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ توراة وإنجيلاً حيث يعرف البشارات الموجودة فيهما بحق هذا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دون أن يهرف فيها أو يخرف أو يُحَرِّف، ولقد أفردنا كتاباً مستقلاً يحمل قسماً من هذه البشارات: رسول الإسلام في الكتب السماوية» أوردنا فيه تسعاً وخمسين بشارة عن مختلف الكتب السماوية.



= الكتاب؟ قال قلت جعلت فداك ما أقل هذا قال فقال: يا سدير ما أكثر هذا أن ينسبه الله عز وجل إلى العلم الذي أخبرك به سدير فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عز وجل أيضاً: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: ٤٣]؟ قال قلت جعلت فداك قرأت قال: فمن عنده علم الكتاب كله أفهم أم من عنده علم الكتاب بعضه؟ قال قلت: بل من عنده علم الكتاب كله وأومى بيده إلى صدره وقال: علم الكتاب والله كله عندنا علم الكتاب والله كله عندنا.



سُورَةُ ابراهيم



مكية وآياتنها اثنتان وخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾

«سورة إبراهيم» وقد سبقتها سورتا هود ويوسف وتلحقها سورة محمد، سور أربع تحمل أسماء أربعة من النبيين اثنان من أولي العزم وآخران من سواهم.

نرى لهذه السورة الإبراهيمية ختاماً كبداية: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ

﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[١] وبينهما تفاصيل عن دعوات للمرسلين بغاياتها وعرقلاتها، ونرى الرسول محمداً ﷺ أصلاً تحول حوله وتحور حورة الرسالات كلها مهما سميت السورة باسم جدِّه الإمام شيخ المرسلين، حيث تبدأ السورة به وتختتم بما بدأت، كأنه هو الموضوع للسورة كلها وحقاً أنه ﷺ هو هو.

و﴿الٓر﴾ هنا كما في أربع أخرى أمثالها[٢] ومن الطريف أن هذه الخمس نظائر في مفتتحاتها بعد ﴿الٓر﴾ في آية واحدة تتحدث عن موقف القرآن: آيات ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ - ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ - ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ①﴾:

هذا، وهي في ختاماتها كبداياتها تذكر القرآن أو نبي القرآن[٣] مما يربط هذه السور الخمس بعضها ببعض، وكما هي متقاربة في مواضعها ومواضيعها، أربعة أخماسها تتسمى باسم الأنبياء الخصوص، وهم مطويون بداية ونهاية وفيما بينهما في الرسالة القدسية المحمدية عليه أفضل سلام وتحية.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٥٢.

(٢) وهي: يونس - هود - يوسف - الحجر، ففي يونس: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١] وفي هود: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] وفي يوسف: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١] وفي الحجر: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١].

(٣) ففي يونس: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩] وفي هود: ﴿. . . فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣] وفي يوسف: ﴿. . . مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] وفي الحجر: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

والهدف الأسمى من إنزال هذا الكتاب ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ...﴾ وفي ﴿لِتُخْرِجَ﴾ أنت الرسول دون «ليخرج» لمحة صارخة أن ليس الكتاب بمفرده مخرجاً من الظلمات إلى النور إلّا بالرسول كمعلم الوحي والمربي بالوحي ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1] كما الرسول ليس ليُخرج إلّا بالكتاب، فالثقلان هما المخرجان من الظلمات إلى النور، والرسول وعترته المعصومون هم مجامع الثقلين، فالرسول كرسول هو أفضل من القرآن دون القرآن بلا رسول أو الرسول دون القرآن، فهو مصداق تام للقرآن إضافة إلى تفسيره وتطبيقه.

وفي ذلك الإخراج سواءٌ ناس العرب وسواهم في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، محلقاً على كافة اللغات والقوميات والإقليميات ما تشملهم لغة «الناس» وكما يبرز ذلك الشمول والجمعية الكافلة في آيات أمثالها: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[2] وكالتي تختم بها السورة ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾[3].

ثم ولا فحسب الناس، فإنهم ليسوا إلا الأفضل بين المرسل إليهم في هذه الرسالة السامية، فالدعوة القرآنية تشملهم وكل البشر ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾[4] وهو أعم من الجنة والناس وسواهم من المكلفين، حيث النذارة القرآنية تشمل كل من بلغ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[5] بلوغ المنذِر والمنذَر، فالقرآن بلاغ لأيٍ كان من بالغ حد التكليف من العالمين: ﴿تَبَارَكَ

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٥٢.
(٤) سورة المدثر، الآية: ٣٦.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾(١) ولأن أقل الجمع ثلاثة فأقل النذارة في هذا القرآن مثلث الإنس والجن أمن هو ممن لا نعرفه من سكنة هذه الكرة وسائر الكرات فإنهم ممن حول أم القرى ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(٢) فالمركز الرئيسي له الدعوة الأخيرة هو أم القرى ثم ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعم العالمين أجمع حين يشمل ﴿حَوْلَهَا﴾ في العالم أجمع دون اختصاص بهذه البساطة.

إذاً فـ ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ لا تختص دعوته بالكتاب بخصوص الناس حيث الهدف الشامل، ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ وما الناس في الميدان إلّا كمحور في هذه الرسالة السامية مرسلاً إليهم، كما الناس محور في الرسالة.

ثم ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ تذكرة مكرورة في ذلك الإخراج أنه ليس - فقط - من خلفيات هذه الدعوة فـ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾(٣) إلى صراط مستقيم وإنما ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ تشريعاً وتكويناً ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ﴾: القادر الغالب ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾: في عزته دون الأعزة المذمومين، فإن صراطهم زور وغرور.

فالنور واحد هو صراط العزيز الحميد، والظلمات عدة هي السبل المتفرقة عن صراطه، فالإيمان على ضوء القرآن بدلالة نبي القرآن نور تشرق به النفس وتشفُّ، فترى الصراط واضحاً لا يشوبها غش ولا غبش ولا ضباب، حيث خرجت من الظلمات كل الظلمات على قدر شفافية الإيمان وجلائِه.

فالنور هو صراط العزيز الحميد، والظلمات هي السبل المتفرقة عن النور وهي صراط الذليل اللعين، وصاحب الصراط النور هو:

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ١.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٧.
(٣) سورة القصص، الآية: ٥٦.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾:

فمن له الكون كله مِلكاً ومُلكاً وقدرة العزيز الحميد، وهو صراطه النور ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بذلك الإلَه ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ هنا معيشة ضنكاً وفي الأخرى أشد وأنكى، والكافرون هم:

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾:

قد تُستحب الحياة الدنيا ذريعة ومتاعاً للحياة الآخرة فهو سبيل المؤمنين، وقد تبغض وتُكره زعمَ أنها دنيئة على إطلاقها حتى وإن كانت ذريعة الآخرة وهذا تقشف ورهبانية مبتدعة، وأهلها عوانٌ بين أهل الدنيا والآخرة، وثالثة تُستحب الحياة الدنيا على الآخرة إيثاراً لها عليها وركوناً وإخلاداً إليها، فذلك كفر بالحياة الأخرى، وظلمات بعضها فوق بعض، بعيد عن النور كل البعد.

إنه لا تعطيل ولا تبطيل في الإسلام للحياة الدنيا نَظِرَة الأخرة حيث الدنيا مزرعة الآخرة، تعميراً لها واستعماراً بالحق. والفضيلة ابتغاء رضوان الله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾[1] ولكنها متاع الغرور وعلى حد المروي عن الإمام علي عليه السلام (من أبصر بها بصّرته ومن أبصر إليها أعمته)!.

وهم إذا استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة في أنفسهم دون تعدٍّ في طورهم وكورهم على من سواهم فهم في ضلال قريب، ولكنهم ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ من آمن أو كاد فسبيل الله وهي القرآن وهي نبي القرآن

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٦.

بالقرآن هم يصدون عنها: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[١] ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[٢] صداً عن الإيمان قبله أو بعده في محاولة كافرة ماكرة.

وأما «يبغونها عوجاً» فهل تعني يبغون فيها عوجاً تغييراً أو تحويراً لكي تحرف عن جهات أشراعها؟ وصيغته الصحيحة «يبغون فيها»! ولا تنحصر المحاولات الكافرة في الصد عن سبيل الله في تحريفها عما هي عليه بل وتزييفها على ما هي عليه، فـ «يبغونها عوجاً» هي أن يطلبوها معوجة بتحريف إن قدروا عليه، أم تزييف إن لم يقدروا على تحريف، استغلالاً لضعاف العقول، واستحماراً لهم على استكبار. (فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معاً فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى).

فـ ﴿عِوَجًاۚ﴾ حال عن هؤلاء وبغيهم عن سبيل الله، إذ يبغونها حال اعوجاجهم عن الفطرة، فبطبيعة الحال يعوجون عن السبيل - فإن إقامة الوجه إلى الفطرة من الشروط الأصيلة لابتغاء السبيل ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾[٣].

ثم يبغونها على بغيهم هذا عوجاً في تحريف أو تزييف ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾[٤] فحقاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ فإنه إضلال بعد ضلال ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[٥].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٩.
(٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٤) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٥) سورة النور، الآية: ٤٠.

ذلك الضلال البعيد، ولكن الرسالات الإلٓهية مكافحة لكل ضلال قريب أم بعيد إذ تملك بياناً للحق الصارم، ناصحاً ناصعاً لا يشوبه ريب ولا عيب:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾:

أترى ما هو «لسان قومه»؟ هل هو لغتهم التي بها يتكلمون[1]؟ وأولو العزم من الرسل أرسلوا إلى العالمين بمختلف لغاتهم، مهما كان الموارد الأولى لدعواته قومٌ واحدُهم عائشوهم، ولكنهم كبداية الدعوة، ثم منطلَقها إلى سائر المكلفين، وهم جميعاً قومهم المرسل إليهم!

أم «قومه» هم قوم هذا الرسول ﷺ فما أرسل من رسول إلا بلسانهم العربي وهم كانوا يترجمونها إلى لغات أقوامهم[2]؟ ولم يسبق للرسول ذكر حتى يرجع إليه ضمير ﴿قَوۡمِهِۦ﴾! وحتى لو ذكر فلماذا ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ دون «لسانه» وهو أعرب العرب! ثم ولا تمت ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ بصلة إلى اللغة العربية حيث البيان لا ينحصر فيها.

أم ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ هم قوم كلِّ رسول، في رسالة خاصة كالرسل الفروع، أم عامة كأولي العزم من الرسل ولكن ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ في هؤلاء هم الذين نشأ فيهم دون سائر العالمين مهما كانوا قومه في البُعد الرسالي!

---

(١) الدر المنثور ٤: ٧٠ وأخرج أحمد عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ لم يبعث الله نبياً إلا بلغة قومه.

(٢) نور الثقلين ٢: ٥٢٥ ح٤ عن الباقر عليه السلام قال: ما أنزل الله تبارك وتعالى كتاباً ولا وحياً إلا بالعربية فكان يقع في مسامع الأنبياء عليهم السلام بألسنة قومهم وكان يقع في مسامع نبينا بالعربية فإذا كلم به قومه كلمهم بالعربية فيقع في مسامعهم بلسانهم وكان أحد لا يخاطب رسول الله ﷺ بأي لسان خاطبه إلا وقع في مسامعه بالعربية كل ذلك يترجم جبرائيل عليه السلام عنه تشريعاً من الله عز وجل له ﷺ.

فموسى يُرسَل بلغة قومه الإسرائيليين: العبرانية، ثم ويدعو مَن سواهم من قبط الفرعونية وسائر المكلفين بمختلف لغاتهم، ومحمد ﷺ يرسل بلغة قومه العرب وهو يدعو قومه الرسالي وهم كافة المكلفين.

ولوط يرسل بلسان قومه من كلدة وهم سريانيون، ثم يرسل إلى المؤتفكات العبرانيين.

ذلك، ولكن ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ لا تناسب لغة القوم الأول لكل رسولٍ، حيث البيان الرسالي لا تخص من نشأ فيهم الرسول، فكل المرسل إليهم أياً كانت لغتهم وفي أي زمان أو مكان، يستحقون ذلك البيان، فهم كلهم قومه، مهما قام عن قوم خصوص لهم لغتهم وعاداتهم!

ثم و ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بالقرآن، ليست لتعني إلا إخراجاً ببيان القرآن، وهو عربياً ليس إلا بياناً للعرب دون سائر العالمين!

﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ قد لا تعني لغة قومه مهما شملت لغتهم، وإنما هو البيان الذي يفهمون، سواءً أكان بلغتهم أم ترجمة لها إليها، فإنما المعنى المستفاد منها هو الواضح المبين، الساذج الناضح المناسب لأفهامهم.

فقد تكون الرسالة بلغتهم ولكنها مغلقة غير مفهومة، تعبيراً أم معبراً عنه، حيث لا توافق حاجياتهم مهما فهموها، أم توافق ولكنهم ليسوا ليفهموها، فهذه الرسالة هي بلغتهم وليست بلسانهم.

وأما الرسالة بلسانهم، فهي المفهومة لديهم وإن بوسيط الترجمان، المقبولة لديهم حيث يناسب حاجاتهم، وكما نرى في هذه الرسالة السامية ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[1] ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2] فالتبشير والإنذار والتذكار ليست على

(١) سورة مريم، الآية: ٩٧.

(٢) سورة الدخان، الآية: ٥٨.

أساس اللغة في متهافت حالاتها ودلالاتها، وإنما هو «لسانك»: لسان القرآن: عربي مبين، بلسان نبي القرآن، لسان ميسّر تذكاراً وتبشيراً وإنذاراً لمن يتحرى عن الهدى، ولا يتردى في الهوى.

فقد نزل القرآن بلسان قوم الرسول الخاتم، وهم مختلف الأقوام بمختلف اللغات والأفهام في طول الزمان وعرض المكان، فكل من يبلغه القرآن ببيان نبي القرآن يتذكر به ويُنذر ويبشّر، إلّا من استحب الحياة الدنيا على الآخرة فاستحب الكفر على الإيمان واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

فليس لسان هذه الرسالة أن يخاطب كل قوم بلغتهم، وإنما بلسانهم الذي يفهمون، إن عربياً فبنفسه، وإن أعجمياً فبترجمته أو ترجمانه، ثم وعلى كافة المرسل إليهم أن يتعلموا لغة القرآن، لكيلا يحيدوا عما يحويه، في ترجمة زائفة أم ترجمان زائغ، مهما كان التقليد للأورع الأعلم فيه الكفاية لمن لم يتعلم، أم تعلم اللغة ولم يُمعن في معانيها ومطاويها. ولأن ﴿قَوْمِهِۦ﴾ أخص من «أمته» فقد يعني المحطّة الأولى لدعوة كل رسول، وهو بطبيعة الحال قومه الذين نشأ منهم ونما فيهم، ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ثم هم يحملون ما بُيِّن لهم لسواهم بنفس اللغة لأهلها، وترجمة لها لسواهم، فالبيان - إذاً - عام موقفه الأوّل قوم كل رسول.

ثم وليس من المفروض أن يدعو الرسول كل المرسل إليهم بنفسه، فإنها دعوة مستحيلة، ولا سيما بعد ارتحاله إلى رحمة ربه(١).

---

(١) نور الثقلين ٢: ٥٢٥ ح ٥ عن عبدالله بن بكير الرجائي قال: قال الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أخبرني عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان عاماً للناس أليس قد قال الله في محكم كتابه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨] لأهل الشرق والغرب وأهل السماء والأرض من الجن والإنس هل بلغ رسالته إليهم كلهم؟ قلت: لا أدري، قال عليه السلام: يا بن بكير إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يخرج من المدينة فكيف بلغ أهل الشرق والغرب؟ قلت: لا أدري، =

ومن ثم فعلى حملة رسالته من خلفائه المعصومين وسائر الفقهاء في الدين أن يحملوها على ضوء القرآن والسنة إلى كافة الأرجاء والأصقاع، إذاً فلا تعارض بين رسالته للعالمين، ورسالته بلسان قومه في تقدير الله وواقع الحياة الرسالية.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ عن أية رسالة في زمنها ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فمن شاء ضلاله شاءه الله ومن شاء هداه شاءه الله، فـ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ تعم المشيئتين حيث الخلقية منها تتبنى الخالقية ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] و﴿مَن يَشَآءُ﴾ هنا تعم المشيئتين البشرية والإلهية، فمن يشاء الضلال شاءه الله، ومن يشاء الهدى شاءها الله، والمشيئة البادية الإلهية هي الهادية، حيث أرسل رسله لها، وقدم مقدمات صالحة للسالكين فيها.

ثم هو يتبع مشيئات المكلفين تخييراً دون تسيير ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في إرساله رسله ومشيئته لإضلال من ضل وهدى من اهتدى، فإنها ليست بعزة دون حكمة، أن يرسل دون حكمة، أو يضل ويهدي دون حكمة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾:

= قال عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى أمر جبرئيل فاقتلع الأرض بريشة من جناحه ونصبها لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وكانت بين يديه مثل راحته في كفه ينظر الى أهل المشرق والمغرب ويخاطب كل قوم بألسنتهم ويدعوهم إلى الله وإلى نبوته بنفسه فما بقيت قرية ولا مدينة إلا دعاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه أقول، وهذا بيان لواقع الدعوة الواسعة في هذه الرسالة لا أن الرسول بالفعل دعى المرسل إليهم كلهم، اللهم إلّا بما يحمله حملته إلى الناس كافة.

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

أترى ما هي أيام الله؟ والأيام كلها لله! إنها الأيام التي يبرز فيها حكم الله إذ لا حكم فيها إلا لله، سواء فيها أيام الفرح والترح، وهما قبل الموت أم بعده، فمما بعده يوم البرزخ ويوم القيامة وكما تعنيهما فيما تعنيه آية الجاثية: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[١].

ومما قبله يوم الرجعة وهذه الثلاثة[٢] هي الأيام الرئيسية من أيام الله، ومن ثم أيام الرحمة والعذاب التي يبرزان فيها أنهما من الله دون سواه، فهما «نعماؤه وبلاؤه ببلائه سبحانه»[٣].

فمن أيام العذاب يوم عاد وثمود وقوم نوح وأصحاب الرس ويوم فرعون والمؤتفكات والذين من بعدهم، كما ومن أيام الرحمة يوم نوح بسفينته ويوم إبراهيم بناره ويوم موسى بتابوته في يمه ويوم عيسى إذ شبه به عدوه ويوم محمد في ليلة المبيت والغار وأيام أخرى تترى تلو بعض للصالحين من عباد الله الظاهرة فيها رحمة الله كما ظهرت هنالك نقمته للطالحين.

فهنالك التذكير بأيام نقم الله التي أوقعها بالماضين، والأيام التي أنعم الله عليهم فيها وعلى الماضين بوقم الأعداء وكشف اللأواء، وإسباغ النعماء، فالأيام إذاً تذكر لمن أراد أن يتذكر وظن نشوراً.

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٤.

(٢) نور الثقلين ٢: ٥٢٦ عن الخصال عن مثنى الحناط قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: أيام الله يوم يقوم القائم ويوم الكرة ويوم القيامة، وروى القمي في تفسيره قال: أيام الله ثلاثة: يوم القائم ويوم الموت ويوم القيامة.

(٣) المصدر عن أمالي الطوسي بإسناده إلى أبي جعفر عليه السلام قال حدثني عبد الله بن عباس وجابر ابن عبد الله الأنصاري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في قوله عز وجل: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ...﴾ [إبراهيم: ٥] أيام الله. وعن العياشي بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: بآلاء الله يعني بنعمته.

ولخاصة بني إسرائيل أيام النعم والنقم من بأسهم بفرعون وسوء عمله، وبأس فرعون في غرقه بسوء عمله، المسرودة كاملة في الذكر الحكيم.

فذلك التذكير لقوم موسى يعم الإنذار والتبشير وكما لكل قوم يعيشون أفراحاً وأتراحاً ملموساً لهم أم في التاريخ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صبراً على نعمته فلا يزهو وعلى نقمته فلا يشكو.

وترى كيف يتقيد ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ في محمد ﷺ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ولكن ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ في موسى لا يتقيد بإذن؟ علّه لأن الأمر في أخرج شامل إذنه حيث يشمل إخراجه كرسول أمراً شرعياً، وإخراجه كذريعة أمراً تكوينياً، ولأن ضرورة الإذن في محمد ﷺ لزامها الأولى الإذن في موسى عليه السلام، أم أنه يخص الإخراج دلالياً وتكوينياً.

وهنا نرى موسى يذكرهم بأيام النعم والنقم كما أمره الله، ولأنهم كانوا أشداء في إخلادهم إلى الدنيا لا يذكرهم إلّا بأيامها دون الأخرى.



﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ
ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ
رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾
وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ
﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَۛ
وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى
شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا
كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن
نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَمَا
كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ
إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ

لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

هذه الآيات تحمل من ذكرى موسى بأيام الله طرفاً نموذجياً هاماً من أفراح وأتراح، ففي إنجائهم من آل فرعون مجمع اليومين، يوم نعمة بارزة لقوم موسى ونقمة لآل فرعون، يوماً حاضراً لهم يحملهما في عملية واحدة خارقة من الله، ثم تذكيراً بأيام غابرة عابرة مرّ التاريخ، ومن ثم أيام القيامة ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ ثم جمعاً للذين كفروا عبر التاريخ في مثلث الزمان ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾!.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾:

﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ تعطف إلى غرقهم دونهم وهو من ذكرى أيام الله في نعمة الله عليكم ونقمته على آل فرعون و﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ هم الفرعونيون، نفسه كأصل وأتباعه كهوامشه، والجمل الثلاث ﴿يَسُومُونَكُمْ. . . وَيُذَبِّحُونَ. . . وَيَسْتَحْيُونَ﴾ أحوال ثلاث لآل فرعون في فعلتهم بهم طوال عشرتهم في سلطتهم الجبارة.

والسَّوم في الأصل ذهاب في ابتغاء شيءٍ، وآل فرعون كانوا يذهبون مذاهبهم في ابتغاء بني إسرائيل بغياً بكل صنوفه ومن أهمه تذبيح الأبناء واستحياء النساء لحد كأنهما هما سوء العذاب دون غيرهما من عذاب وكما في البقرة والأعراف: ﴿يسومونكم سوء العذاب يذبحون - يقتلون - أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ (٤٩ و١٤١) حيث يذكر أن ردفاً بسوم العذاب دون عطف.

ثم وليس البلاء العظيم هنا - فقط - سَوم العذاب وهو بلاءُ الشر، بل والإنجاء من آل فرعون وهو بلاء الخير وهما في نجدي الخير والشر بلاءٌ عظيم: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[1].

وترى ذلك بلاء الخير ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حيث أغرق آل فرعون، فأين بلاؤهم الشر: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ من ساحة الرب؟ نقول: كل بلاءٍ خيراً أو شراً هو من الله، فلو أن الله سدّ آل فرعون عن سوم العذاب فصد عن بني إسرائيل سوم العذاب كما أغرق آل فرعون، لم يكن عليهم بلاء الشر والدنيا دار بلاء وابتلاء بخيرها وشرها ونفعها وضرها!.

فهنالك بلاءٌ لامتحان الصبر دون امتهان الذل والتخاذل، أو احتمال العذاب بتضعضع وهزيمة روحية، وإنما استعداداً للوقوف في وجه الظلم والطغيان، وتصبُّراً في الحفاظ على الإيمان والصمود في وجه الطغيان دون تلكع وتخضع.

ومن ثم بلاءٌ بالنعمة والرخاء لامتحان الشكر بعدما مستهم الضراء، وما بلاء النعمة بأهون من بلاء النقمة، بل وذلك أقوى، فإنه أزل وأهوى، حيث الزهوة والرعونة تأخذان من أهل النعماء مأخذهما الجبار: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾[1].

فـ «تدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء؟! لم يكونوا أثقل الخلائق أعباءً وأجهد العباد بلاءً وأضيق أهل الدنيا حالاً؟ اتخذتهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب وجرعوهم المرار فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة وقهر الغلبة لا يجدون حيلة في امتناع ولا سبيلاً إلى دفاع حتى إذا رأى الله جدّ الصبر منهم على الأذى في محبته والاحتمال للمكروه من خوفه جعل لهم من مضائق البلاء فرجاً فأبدلهم العز مكان الذل والأمن مكان الخوف فصاروا ملوكاً حكاماً وأئمة أعلاماً وبلغت الكرامة من الله لهم ما لم تذهب الآمال إليه بهم. . .»[2].

ثم وتذبيح الأبناء وتقتيلهم هو من أسوم سوء العذاب وأسآمه، فما هو دور استحياء النساء من سوم العذاب! وهنالك استحياء الرجال كما النساء حيث التذبيح يخص الأبناء، وليس الإبقاء على حياة عذاباً فضلاً عن سوم العذاب؟.

إن استحياء النساء لا يعني - فقط - استبقاءهن أحياءً، بل واستخدامهن في محنة المهنة ومهانتها إثقالاً عليهن بكل أثقال الأعمال بيتية وخارج البيتية، ثم وإزالة حيائهن بممارسة الجنس، حيث الاستحياء تشمل إيجاب: الإبقاء على حياة، وسلب الإزالة للحياء، ثم وفي استحياء الحياة لمن يُقتل ابنها دون إبقاء حياة مزعجة مفلجة، فأحلى للحامل أن تقتل مع حمَلها ولا تَقبل حِملها بعد حملها، أفلا يستوجب ذلك البلاء الحسن بعد سيئه شكراً

(١) سورة هود، الآيتان: ١٠، ١١.
(٢) قسم من الخطبة القاصعة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

منهم متواصلاً؟: لذلك ففي استحياء النساء بمعناه الشامل بلاء دون الرجال إذ لم تكن فيهم إزالة الحياء بلواط وسواه!

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾:

آية التأذن هذه هي منقطعة النظير في القرآن كله، فليست لتختص بذكريات موسى لقومه مهما شملتهم كأمة من الأمم المبَشرة المنذَرة، ثم ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ...﴾ قرينة لاحقة سابغة صابغة لها بصبغة العموم، فلو كانت هي كسابقتها من تذكيرات موسى فلا موقع لـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ...﴾ مهما قالها موسى لقومه نقلاً عما قال الله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ...﴾ وهو رب العالمين أجمعين طول الزمان وعرض المكان.

ولأن الأذان إعلام بإعلان، فالتأذّن تأكد عام من الإعلام الإعلان، فلا يخص أمة دون أخرى.

فذلك - إذاً - تأذن عام في إذاعة قرآنية دائبة تضرب إلى أعماق الزمان كسنة جارية سارية المفعول للإنس والجان.

ومن لطيف التعبير هنا من اللطيف الخبير نسبة الزيادة للشاكر إلى نفسه تعالى تصريحاً: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ونسبتها للكافر إلى نفسه تلويحاً: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وما الكفر هنا برَدف الشكر إلَّا ترك الشكران جهلاً بالمنعِم فكفراً، أم تجاهلاً فكفران، والعذاب الشديد يعم الكفرين مهما اختلفت دركاته بدركاتهما، عذاباً في الروح وعذاباً في الجسم، عذاباً في الأولى وآخر في الأخرى، كلٌّ حسب الحكمة العالية من العدل الحكيم، وكما الزيادة في الشكر يعم كل هذه وتلك في درجات حسب الدرجات وبركات فوق بركات، كل حسب الرحمة المتعالية من الرؤوف الرحيم.

وهنا نقف أمام هذه الحقيقة بين الخوف والرجاء، اطمئناناً بالوعد

الصادق من أصدق الصادقين، وشكر النعمة من أي منعم هو ردة فعل فطري لكل منعَم عليه فضلاً عن أرحم الراحمين، وأقله إظهارها في مقال، وأدلُّه هو في حال وفعال، أن يرى المنعم استعمال نعمته فيما يرضاه، علماً واعترافاً أنه منه فلتستعمل له وإليه، فما الشكر - فقط - قالة: شكراً لله، والحمد لله، وأنت تستعمل نعمة الله في سخطه، أم تهدرها فلا إلى سخطه ولا رضاه، فشكرها الأقرب هو المراقبة بها، دون بطر ولا استعلاء على أحد، ولا توسل بها إلى سوء أو ظلم وطغيان، وإنما استعمالها في خير لأنها خيرٌ من معطي الخير، تجنيداً لكل الطاقات والإمكانيات في صرفها إلى خير، والتصرف فيها إلى خير، دون تبديل للنعمة نقمةٌ ونعَمة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾[1].

والكفر بنعمة الله يشمل الجهل أو التجاهل بدرجاتها أم على البدل، في قال أو حال أم فعال، فمن شاكر بلسانه كافر بسواه، أم كافر بلسانه شاكر بسواه، ومن شاكر بمثلث الشكر فأشكره، أو كافر بمثلث الكفر فأكفره، ولكلٍّ درجات بما شكروا، أم دركات بما كفروا وما ربك بظلام للعبيد.

والعذاب الشديد ليس إلّا على غرار الكفر بالنعمة، فقد يكون بذهابها - فقط - أم بتبديلها نقمة ووبالاً رغم كونها نعمة، في الدنيا أم في الآخرة، أم فيهما وهو أشد وأنكى، وإنْ كلٌّ ذلك إلّا جزاءً وفاقاً.

وهذه الآية تُطمئننا بأن «ما أعطي أحد الشكر فمُنع الزيادة»[2] فأيّما عبد

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

(٢) الدر المنثور ٤ : ٧١ قال رسول الله ﷺ ما أعطى أحد أربعة فمنع أربعة ما أعطى. . لأن الله يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ. . .﴾ [إبراهيم: ٧] وما أعطي أحد الدعاء فمنع الإجابة لأن الله يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وما أعطي أحد الاستغفار فمنع المغفرة لأن الله يقول:=

أنعم الله عليه بنعمة فعرَفها بقلبه وحمد الله عليها بلسانه لم تنفد حتى يأمر الله له بالزيادة.[(١)] بل «إن من عرف نعمة الله بقلبه استوجَب المزيد من الله عز وجل قبل أن يظهر شكرها على لسانه»[(٢)].

ولكنه ليس فقط ذكراً باللسان ومعرفة بالجنان، بل وعملاً بالأركان وكما قال الله ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[(٣)]، تحديثاً عن واقع النعمة وعن معرفتها بقال وفعال، ففي ترك الجمع نفاق، وفي ترك الجميع كفر، وجمع الجمع إيمان، فمن عرف وعمل بلا قول فنفاق إيمان، أم عرف بقول دون عمل فدونه في الإيمان، أم ترك المعرفة والعمل إلى قول فأدنى الإيمان، ومن جمع بينهما فذروة الإيمان، والمزيد في النعمة ليس إلا على غرار المزيد من الشكر ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[(٤)]!

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ⑧﴾:

فإنما الشكر مصلحة لحياة الشاكر دون المشكور له، كما الكفر مفسدة لها دونه فـ ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ...﴾[(٥)] والغايات في تكوين الله وتشريعه وشرعته منحصرة في

= ﴿استغفروا ربكم انه كان تواباً﴾. وما أعطي أحد التوبة فمنع التقبل لأن الله يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

وفيه عن أنس قال: أتى النبي ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها وأتاه آخر فأمر له بتمرة فقبلها وقال تمرة من رسول الله ﷺ فقال للجارية اذهبي إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهماً التي عندها.

(١) نور الثقلين ٢: ٥٢٦ عن تفسير القمي قال أبو عبد الله عليه السلام أيما عبد... وهو قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ...﴾.

(٢) المصدر عن روضة الكافي بسنده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إن من عرق...

(٣) سورة الضحى، الآية: ١١.

(٤) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٧.

خلقه منحسرة عن جناب قدسه، فهو الغني في ذاته، وأفعاله وصفاته، والحميد بذاته مهما حمده الحامدون أم أنكره الناكرون، فليس ليكسب كمالاً وجمالاً بشكرهم أو يحظو حظوة، أم يخسر في جمال أو كمال بكفرهم فـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾[1] فلا تمنوا على الله بشكركم ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾[2] ويقبل شكركم، ويقبل بوجهه الكريم إليكم، ولا تغتروا عليه بكفركم إذ لا غالب له وأنتم عبيده الفقراء.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾:

متابعة لتذكير موسى قومه بأيام الله في بلائه السوء على الغابرين الذين خمدت نيرانهم وعفت آثارهم وأخبارهم، وهنا موسى راوية يتوارى أمام الرسل والرسالات ليستمر في عرضها بأزمانها الخالية وفي كل مكان، حيث يتلاشى فيها الزمان والمكان، مؤشراً إلى أحداث الروايات الكبرى وكما النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، ثم يفسح المجال للأبطال يحدثون في حوار بين الحق والباطل، حيث يتخطى أبعَاد الزمان والمكان، ويتخلص إلى إبعاد الباطل عن الرسالات الإلهية وحمَلَتها، وزجِّ المعارضين إلى مكان سحيق محيق من باطلهم الزائف وكفرهم الحميق العميق.

هنالك نشهد مشاهد الرسل الكرام أمام الكفرة اللئام، يواجهونهم بكل جاهلياتهم، في تواري الأشخاص والشخصيات، بمظاهر الحجاجات بين

---

(١) سورة فاطر، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٧.

﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ...﴾.

وهنالك النبأ يعم نبأ الرسالات الموجّهة إليهم، ونبأ كفرهم بها، ومن ثم نبأ استئصالهم بالعذاب، تقديماً لنبإ الحجاج في بعديها ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ آيات من الله بينات جليات لا خفاء فيها، فالرسل هم بأنفسهم بينات، يحملون آيات بينة على رسالاتهم، ومن ثم البيان الرسالي، فهم إذاً في مثلث البينات، فلا نجد رسولاً دون بينة كأوضح حجة على المرسل إليهم، ولكنهم:

﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾:

آية منقطعة النظير في حجاج الرسل مع المناوئين وسواهم، لا نجد لها مثيلاً في سائر القرآن، حيث تجمع بين مختلف الحوار الرسالي بين الرسل والمرسل إليهم في كلمة واحدة تحتمل معاني عدة بين صالحة على درجاتها أدبياً ومعنوياً، وبين سواها، والقرآن حمال ذو وجوه فاحملوه إلى أحسن الوجوه.

فقد ترجع الضمائر الثلاثة هنا إلى مرجع واحد: ١ رسلاً؟ ٢ أو مرسلاً إليهم؟ ٣ أم الأوّل للأولين والآخران للآخرين، ٤ أم الأوّل للآخرين والآخران للأولين ٥ أم الأول والآخر للأولين؟ ٦ أم هما دونه للآخرين.

ثم ١ الأيدي قد تعني الجارحة الظاهرة أم الحجج الباهرة، و﴿فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ ظرفاً مستقراً لـ «ردوا» ٢ أم لغواً لمقدر، و«في» نفسها قد تعني معناها، أم «٣ إلى أو ٤ الباء» وهي ثمانية وأربعون احتمالاً حسب متحملات لفظية ومعنوية.

ولأن الظاهر من «في» ظرفيتها دون تأويلها إلى الباء أو إلى، وأن

الظاهر استقرار الظرف هنا دون لغويته، فـ ﴿فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ إذاً ظرف لـ «ردوا» لا سواه ولا سواها، مهما كان للغوه مستقر من معنى[١].

فهل الرسل هم الذين ردوا أيدي أنفسهم في أفواههم أيدياً وأيادياً، أن عضُّوا عليهم الأنامل من الغيظ كيف ينكرون بيناتهم، أم سكتوا عن بيناتهم بعدما لم يجدوا لها تصديقاً من الناكرين؟

أم هم المرسل إليهم أن ردوا أيديهم الجارحة في أفواههم إذ عضُّوا أناملهم تغيُّظاً على رسلهم وحَنْقاً عليهم وخَنْقاً كما يفعل المتوعِّد لغيره، المبالغ في معاندته ومكايدته، وهذه عادة معروفة مألوفة في المغيظ المحنَق عضُّ الأنامل وفرْك الأصابع!، أو هزءًا بهم - كما يفعله المجان والسفهاء - وضِعةً منهم وإزراءً عليهم؟ أم ردوا حججهم الداحضة في أفواههم إذ لم يقدروا رداً على رسلهم؟ أم سائر المحتملات من الاثني عشر؟.

ولكنما الحجج باهضةً وداحضةً لا تسمى أيدياً بل هي أيادي تؤيد حقاً أو باطلاً، فالمحتملات إذاً ستة! وهي الأول على كون الأيدي هي الجوارح.

فقد رد المرسل أيدي أنفسهم إلى أفواههم تحسراً عليهم وتغيظاً، وكما رد المرسل إليهم هزءًا منهم وضِعة، وتاشيراً لهم أن اسكتوا مانعين لهم عن الكلام كما يفعل المسكِت منا لصاحبه، الراد لقوله، وقد ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾[٢] إظهاراً للتمنُّع من الاستماع والسماع، ومن الكلام إلا تكذيباً لهم وكما ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ...﴾.

---

(١) فردوا أيديهم الكائنة في أفواههم إلى ما كانت بطبيعة الحال، حيث قضت بيناتهم على عجابهم إذ جعلوا أصابعهم في أيديهم عضاً عليها.

(٢) سورة نوح، الآية: ٧.

أم هم ردوا أيدي الرسل في أفواههم حيث صدوا عليهم منافذ الكلام، وردوا حججهم من حيث جاءت؟ وكما الرسل ردوا أيدي هؤلاء في أفواههم بما واصلوا في دعواتهم ودعاياتهم، فسكّتوهم عن حججهم الداحضة إلا ردهم ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ...﴾.

فقد تعم الأيدي هنا الأيادي، فهي الجارحة أحياناً، والجانحة أخرى، وقد حصل كل ذلك في ذلك الحوار المحتدم طول التاريخ الرسالي، حجة باهضة من هؤلاء الأكارم، وداحضة من أولاء اللئام.

فهنالك أفواه الرسل التي تفوح منها كل بيّنة رسالية دامغة، وأيديهم وأياديهم الباهضة الناهضة بكل حجة، وهم يردون بأيديهم وأفواههم أيادي أثيمة في أفواه لئيمة دحضاً لحججهم، وخوضاً في لججهم، وهناك أفواه الناكرين التي تفوح منها كل نكرانة داحضة وأيديهم وأياديهم في فيهم استئصالاً لبينات الرسالات، وكما هي في أفواه الرسل صداً عن أقوالهم، ولا يأتون بشيء مهما أرعدوا وعربدوا، وضجروا وزمجروا، إلا فعلتهم عضاً على أناملهم وهزءًا برسلهم، وإلّا قولتهم ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[1] دونما شطرٍ من حجة إلا تنمرداً وتمرداً.

وهنالك الأيدي التي في أفواه المرسل إليهم هزءًا ترد إلى ما كانت إذ لا يقدرون على شيء مما كسبوا، وقد كانوا إذا بدأ عليهم الرسل بكلام سدوا بأيديهم أسماعهم دفعة، وأفواههم دفعة، إظهاراً منهم لقلة الرغبة في سماع كلامهم وجواب مقالهم ليدلوهم بفعلتهم على أنهم لا يصغون لهم إلى مقال ولا يجيبونهم عن سؤال ولا يعتنون بشأنهم على أية حال، إذ قد أبهموا طريقي السماع والجواب وهما الآذان والأفواه وكما عن قوم نوح ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٤.

﴿اَسْتِكْبَارًا﴾[١]. والتي في أفواههم عجباً من بينات الرسل ترد إلى ما كانت لحالة اعتيادية تصديقاً لهم وتسليماً.

والتي في أفواه الرسل من الناكرين ترد إليهم فالجة خارجة عما هي فيه فإن الباطل كان زهوقاً.

والتي في أفواه الرسل من أنفسهم لمَّا ييأسوا تُرد إلى استدرار الدعوة فإن للحق دولة وللباطل جولة، «وغُلب هنالك المبطلون».

فكل الأيدي والأيادي، وكافة الأفواه فاشلة عاطلة أمام أفواه الرسالات وأيديها وأياديها مهما زمر الباطل ودمّر، فإنها سوف تزمجر وتدمّر، فإن الحق يملك كافة البينات مهما أنكرها الناكرون، والباطل لا يملك إلا دعايات زور وغرور ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[٢].

فردُّ الأيدي قد يعني ردها إلى ما كانت، وأخرى ترديدها في الأفواه مراراً وتكراراً حيث كانوا يكثرون جعلها في أفواههم عند كلام الرسل.

﴿فَرَدُّوٓا... وَقَالُوٓا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ ويكأنهم يكفرون بمادة الرسالة مع التصديق بأصلها، فهنا ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ دون «بالرسالة» وذلك تناقض بين، أم وتشمل الرسالة باحتمال «ما» مصدريتها على هامش أنها موصولة، وضمير الغائب «به» برجوعه إلى «ما» تؤصِّل بموصوليتها نكران مادة الرسالة والجمع أجمل وأشمل.

ومن ثم ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ شك مريب يورِّط الشاك في ريبة حيث هناك في مادة الدعوة ما يريب، رغم أن بينات الرسل لا تشكك فضلاً عن أن تريب، حيث الريبة ليست إلّا بما يضل أو كاد، والبينة ليست إلا لتهدي أو تكاد وعلَّ الفصل بين الصفة ﴿مُرِيبٍ﴾ وموصوفها

---

(١) سورة نوح، الآية: ٧.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨١.

﴿شَكٍّ﴾ للتدليل على أن الريبة ليست إلّا من الدعوة، حيث لحقت ﴿مُرِيبٍ﴾ الدعوة بمادتها ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾.

فما جاؤوا - إذاً - إلا بكل دعاية زور وغرور ومدعي الباطل يتفلت في كلامه دون تلفت، فهو يبطل باطله بنفسه دون حاجة إلى إبطال، خاسراً في حاله ومقاله على أية حال.

والى جواب فالح كاسح عن أي شك وأية ريبة مما يدعو إليه الرسل، كاملاً شاملاً يجتث كل خالجة على ساحة الربوبية:

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾:

إن دعوة الرسل تبدأ بإثبات وجود الله وتتوسط كركيزة لها بتوحيد الله، وتختم بصفاته الحسنى وقضيتها ضرورة الرسالة والمعاد، والناكرون في الله بين ثلاث، إلحاداً فيه وإشراكاً به ونكراناً لأصلي الرسالة والمعاد بعد توحيده أم قبله، فقيلة الناكرين من قبل ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ تعم كل ما جاء به الرسل من هذه الثلاث، وقد أسرفوا في الكفر بما جاؤوا به ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ إنهم هم الغرقى في شك مريب، ولكن ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يزيح كل شك وريبة عن ساحة الدعوة الرسالية ويسد كل ثغرة ونافذة إلى أي شك وأية ريبة.

فأصل انفطار السماوات والأرض دليل على أصل وجود الفاطر، والوحدة السائدة في المنفطرات في كل صغيرة وكبيرة، بما يُرى وما لا يرى دليل على وحدة الفاطر، والرحمة السارية فيها لكلٍّ على حدها وحاجتها دليل على رحمته الخاصة بالخاصة منها والإنسان في هذا الميدان سابق على الكائنات بأسرها بسابغ الرحمة المتعالية في روحه وجسمه فإنه في أحسن

تقويم، فقضية الرحمة السائدة من فاطر السماوات والأرض أن يختص نوع الإنسان وأضرابه بخاصة رحمته وخالصتها التي تخرجه من الظلمات إلى النور، ألا وهي رحمة الوحي والرسالة.

ولأن الفَطر هو الشقّ فالانفطار هو الإنشقاق إما في نفس الشيء وهو الانشقاق عن كيانه ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾[1] أم انشقاقاً في غيره واشتقاقاً عنه كما في خلق السماوات والأرض وأين انفطار من انفطار؟ إذاً فالسماوات والأرض منفطرتان منشقتان عن أصل سابق هو المادة الأولية للكون وكما في آية هود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ...﴾[2] فقد فطر السماوات والأرض عما سماه ماءً وهو المادة الأولى التي خلقها لا من شيء.

فمما لا يريبه شك لدى الأحزاب الثلاثة: الملحدين - المشركين والموحدين - أن السماوات والأرض هما منفطرتان عن أي كان، والانفطار دليل الفاطر، وانتظامه بملايين القوانين دليل علمه وقدرته وحكمته البارعة، والوحدة السائدة فيه دليل وحدته، ولا يملك أي مدلول ما يملكه فاطر السماوات والأرض من براهين قاطعة ساطعة فطرية وعقلية وكونية: آفاقية وأنفسية، وكلٌّ إلى ذاك الجمال يشير!

ليس في الله شك فضلاً عن شك مريب، مهما شك فيه الشاكون وارتاب فيه المرتابون.

أفليس العقل والعلم يقولان وكل فطرة وفكرة تقول: كل حادث بحاجة ضرورية إلى محدث، وكل منفطر لزامه فاطر، فعلى قدر الحكمة في الانفطار نستدل بحكمة الفاطر الجبار؟

---

(١) سورة المزمل، الآية: ١٨.

(٢) سورة هود، الآية: ٧.

أليس العقل يحيل حدوث شيء دون علة تعاصره وتناصره ما هو كائن كما كوِّن؟

أليس العلم لا يزال يفتش عن علل الحوادث الخفية[(١)].

﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فمجرد الإشارة إليهما والإحالة عليهما يكفي، حيث يرد الشارد المارد إلى رشده سراعاً، فلم يزد الرسل على الإشارة حيث العاقل تكفيه الإشارة.

إن الانفطار الانشقاق واقع معلوم ملموس لا مردَّ له في كل كائن سوى الأوّل: المادة الفردة الأولى، فإنها لم تنشقَّ عن شيءٍ قبلها، وإنما خلقت لا من شيء، ثم فطرت سائر الأشياء كلها من المادة الأم، بوسيط أم بوسائط أم دون وسيط، حسب مختلف التراكيب الذرية والجزئية والعنصرية أما هي فوق الذرية وبعد العنصرية، فإنها كلها منفطرات، وقد عبر عنها كلها في القرآن كله بـ ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تعبيراً عن الكون المنفطر دون المادة الأم.

أم أنها أيضاً تدخل ضمن الكل في نطاق الانفطار، انشقاقاً لا عن شيء إلّا الإرادة الإلهية - إن صح التعبير - والانفطار هنا هو انفطار التعمير، ومن ثم انفطار التدمير ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾[(٢)] ولا نجد الانفطار في سائر القرآن إلّا تعميراً عن المادة الأم أم تدميراً، ولكن الخلق قد يعم إيجاد المادة الأم وولائدها ككل: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[(٣)] والمادة الأم شيء بل هي أصل كل شيء، مخلوقة قبل كل شيء.

فليس الخلق هو التقدير فقط، إذ لا تقدير في الخلق الأول إلا بعد خلقه

---

(١) راجع كتابنا «حوار بين الإلهيين والماديين».

(٢) سورة الانفطار، الآية: ١.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٦.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(١) ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝﴾(٢) وإن كان ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(٣) فهناك قدَر في العلم يسبق خلق كل شيء، ثم قَدَرٌ بعد الخلق يلحقه، ولأن الانفطار ولادةٌ وتبدلٌ، فهو حركة في ماهيات الأشياء، دائبة في المادة والماديات على أية حال.

والحركة لزامها التغير والزمان، وهذه الثلاث لزامها التركب في أصل المادة وفرعها، وقد يعم الانفطار هذه الأربع بحذافيرها، فآية الفاطر هي من البراهين القاطعة الشاملة لحدوث العالم.

ثم العلم المحيط والقدرة المطلقة والحكمة العالية بارزة في كل منفطر في الكون ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝﴾(٤).

فـ ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دليل أوّل يزيح كل شك وريبة في الله، ثم ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ دعوة أولى بضمان الإيمان ومن ثم دعوات أخرى على ضوء الإيمان بشروطه غفراً لسائر الذنوب، دعوة مُربحة مَريحة، ليست لأن الفاطر بحاجة في دعوته إلى منفطر، بل غفراً عن ذنوب هي لزام البعد عن الله.

فمن غَفرٍ لا يخرج المغفور له إلى توبة وسببه الإيمان: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾(٥) وهذه دعوة أولى فيها غفرٌ لبعض الذنوب وهي السابقة على

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢.
(٢) سورة الأعلى، الآيتان: ٢، ٣.
(٣) سورة القمر، الآية: ٤٩.
(٤) سورة الملك، الآيتان: ٣، ٤.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

الإيمان وطبعاً من غير حقوق الناس، و﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾ هي ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ثم السالف الخاص بحقوق الله، بعض من بعض.

ومن ثم الإيمان قيد الفتك لاحقاً بضمان الجهاد فغفراً لكافة الذنوب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢﴾[1].

فقد وُعد المؤمنون المجاهدون بغَفْر ذنوبهم كلها، والكافرون بغفر البعض إن آمنوا وهكذا نرى فيما خوطب به الكافرون كما هنا وفي سواها: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ...﴾[2] ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ...﴾[3].

ومن ثم الذين آمنوا وأصلحوا وجاهدوا يغفر لهم ذنوبهم بتوبة أو ترك كبائر السيئات أو فعل كبائر الحسنات كما هنا، وبالشفاعة في الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[4] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ...﴾[5].

فالقول إن «من» هناك زائدة زائدة من القول، بل هي قاصدة ما قصدت من تبعيض.

وقد تعني ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ فيما تعني تأخيراً لأجل هم بالغوه تكملةً للغفران بكمال الإيمان، كما تعني تأجيلاً عن عاجل العذاب إن

(١) سورة الصف، الآيات: ١٠-١٢.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٣١.
(٣) سورة نوح، الآيتان: ٣، ٤.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.
(٥) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١.

لم يؤمنوا، فُسحةً لمجال التفكير حتى يؤمنوا، فيغفر لهم ما قد سلف ومن ثم سائر الذنب على شرطه.

ترى وما هو ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾؟ إنه المحتوم المسمّى في أم الكتاب وهو لا يؤخَّر مهما قُدِّم معلقاً وهو الأجل المعلق: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ﴾[1] فأصل الأجل هو المؤجل لمسماه وقد يعجل قبل مسماه لسبب غير مسمى أو مسمى كعذاب الاستئصال، فمن التأخير إلى أجل مسمى الإمهال إليه دون عذاب، ولكن الذين كفروا وكذبوا بآيات الله وظلموا قد يستعجل لهم العذاب قبل الأجل المسمى.

فالآجال المعلقة قد تعلق بسيئات العقائد والأعمال فعذاب الاستئصال، أو اللامبالاة في الحفاظ على الحياة من صاحب الأجل أو الآخرين، أو التعمد في هدر الحياة منه أو الآخرين، ثم الحسنات - بإذن الله - قد تحول دون تحقق الآجال المعلقة كما في نار إبراهيم الخليل، وقد لا تحول كما في سائر المضطهدين من أولياء الله، لطفاً خفياً بهم، وكما يجلو أحياناً لآخرين.

أَوَ مَا كان جواب الناكرين عن هذه الحجج البالغة؟ إنه التعلق بمُنعة المماثلة في البشرية عن اختصاصهم بالرسالة: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا...﴾ وهي تتضمن تصديق الحجة السابقة إلّا في مصداقها الرسالي، فالمماثلة في البشرية حاضرة ماثلة، فأنتم بشرٌ كما نحن، فلنكن وإياكم على سواء فيما أنتم، فإذ لا نجد في أنفسنا وحياً ولا رسالة - ونحن أحرى بما نملك من أموال وبنين - فبأحرى ألّا تجدوا أنتم في أنفسكم وحياً ولا رسالة حتى بالنسبة لأنفسكم فضلاً عمن سواكم، فليكن حامل رسالة الوحي غير بشر.

فما أنتم إلّا صادين عن سبيلنا ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ

(١) سورة نوح، الآية: ٤.

﴿ءَابَآؤُنَا﴾ فهل نترك ما تعودناه وعهدناه من آبائنا القُدامى بدعوى خاوية خالية عن سلطان، فما تزيدوننا غير تخسير حين تتفضلون علينا بادعاء جوفاء ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾[١].

ولو أنكم مفضّلون علينا بوحي، أم أنتم على حق مما تصدون ﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أنكم بحق وعلى وحي، وكيف نترك ما يعبد آباؤنا دون سلطان مبين، ونحن في ذلك على سلطان الآباء.

وترى أن السلطان المتقاضى هو آية الرسالة البنية؟ و﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ. . .﴾[٢] فما من رسول إلا أرسل بآية لرسالته بينة منذ دعوته فكيف يتطلبون سلطان الآية على رسالاتهم؟!.

إنهم كانوا يتطلبون منهم آيات كما يشتهون غضّاً عما أتوا به من آيات فيها الحجة البينة، آيات هي سلطان على عقولهم كما يهوون، أم هي سلطان على نفوسهم لو أنهم رسل الله ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ. . .﴾[٣].

فالسلطان - أياً كان - هو السلطة عقليةً أو نفسيةً على طالبه، غَلَباً على عقله حتى يصدِّق، أم غلباً على حياته إذ ليس ليصدِّق، وهو على أية حال آية غالبة، ولا سيما المبين حيث يبين الحق عن الباطل، ولذلك تمتاز عن سائر الآيات كما ويفرد بعدها بالذكر: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾[٤] وهنا الجواب حازماً حاسماً بين تصديق لصادق الحجة وتكذيب لكاذب الدعوى:

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٥.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.
(٤) سورة هود، الآية: ٩٦.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾:

فـ ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تصديق للمماثلة، ثم «ولكن».. إخراج عنها، فإنما المماثلة في البشرية الظاهرة بمتطلباتها ومشاركاتها، ثم الخروج عن قضيتها المتعودة بما ﴿يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

فكما أن المماثلة في أصل البشرية في سائر البشر لا تقتضي المساواة في العلم والعقل من الأمور المعنوية، وبل ولا في الجمال والمال والأولاد وسائر الميِّزات الظاهرة من غير المعنوية، كذلك - وبأحرى - بالنسبة لخارقة معنوية كالوحي والرسالة.

ولئن رجعوا قائلين إن هذه الميزات من حصائل المساعي على قدر سعي الساعي، ولكنما الوحي ليس يحصل بالسعي، فالجواب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

فكما بالإمكان الواقع تفاضل البشر - على مماثلتهم - في بعض الفواضل والفضائل بما يعملون ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] كذلك الإمكان في التفاضل بما قد يأملون على ضوء ما يعملون، قضيةَ الضرورة القاطعة من هدى الله، دون فوضى جزاف فيمن يهدي به الله وحياً ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أم ودون عمل كما في الجمال وأمثاله.

فهل من صاد يصد عن رحمة الله ومنّه على من يشاء من عباده ليشملهم كلهم برحمته؟ وكل الرحمات هي من الله لا سواه ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾[2].

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

فإذ يمن الله على بعض في بعض النعم بما سعى، فمنُّه على بعض ومنُّه على العالمين أولى وأحرى، منة ضخمة لا على أشخاص الرسل وحدهم، ولكن على البشرية التي تشرف بانتخاب أفراد منها لهذه المهنة العظمى، تلقياً بالقلب من الملإ الأعلى، وإلقاءً على سائر المكلفين بكل سلطان مبين، رسالة واحدة هي ضرورية لهدى الحائرين الضالين، فسلبها كلياً سلب لرحمة كتبها الله على نفسه، وإيجابها لكل احدٌ هدر للوحي حين يلقى إلى قلوب مقلوبة، وتسوية ظالمة بينها وبين قلوب طاهرة، وتسيير لغير الصالحين إلى صلاح الوحي وصالحه، وسلب للامتحان، فليختص بمن صنع نفسه مؤمناً كأعلى القمم الممكنة، ثم يصنعه الله كما هيأه من ذي قبل، صناعة مثلثة الزوايا، والأخيرة منها هي رأسها حيث يسدده الله تعالى عن كل خطأ، ولكنها ليست فوضى جزاف، وإنما بما سعى وقَدرَ ما سعى، وإن كان الله يساعده في المبدإ والمنتهى، فالمأثوم عمداً وسواه لا يصلح أن يصبح معصوماً، وإنما الذي يصنعه الله على عينه ويرعاه برعايته وهو يعمل بعين الله كما يجب وكما قال الرسول ﷺ : «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت».

ولكن السلطان - أياً كان - ليس هو من فعلنا وتحت قدراتنا، فـ ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما نقول وتقولون ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لأنه - فقط - فعل الله دون تحويل لسواه أو تخويل، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا سواه ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فنحن نتوكل عليه في رسالاتنا ودعواتنا وعلى سائر المؤمنين أمّن يفتش عن إيمان أن يتوكل عليه في سلطان وسواه، دون توكل على الرسل فإنهم بشر كما أنتم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ. . .﴾.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾:

وهذه تتمة من صامدة الحجة الرسالية تقطع آمال الناكرين المعارضين حين يسمعون المرسلين مطمئنين إلى مواقفهم، ﴿وَمَا لَنَآ﴾ في رسالتنا ﴿أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الذي أرسلنا ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ شخصياً ورسالياً، فعلينا المضيُّ في سبيلنا تصبُّراً على كل أذًى من الأعداء وكل لظى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾ صبر الصمود على الدعوة، وعدم التفلُّت عنها أم تلفُّتَ إليهم قيدَ شعرة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا سواه ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ حيث التوكل في صعاب الأمور مما لا بد منه، والتوكل على من سوى الله خسار وبوار، إذ لا يغني أحد من الله شيئاً، فكما علينا نحن المرسلين أن نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا، كذلك على المؤمنين إذ قد هداهم سبلهم.

فالقلب الذي يحس ندى الرحمة المتواصلة غير المحدودة من خالق الرحمة، وأنها تقود خُطاه ويسده عن خُطَاه وتهديه السبيل، إنه قلب موصول بالله، فائض بخاصة الله، فاض عما سوى الله، فما لصاحبه ألا يتوكل على الله؟! أياً كانت العقبات في سبيل الرسالة الشائكة بالشبكات، المليئة بالأشلاء والدماء... فتصبراً دونما زعزعة وزحزحة، ودون انفراط وانفلات وحتى النفس الأخير.

ولمَّا يرى الطغيان ذلك الصمود السائد في وجوه حاملي رسالات الله وواجهاتهم، ولم تبق له أية باقية من حجة إلّا داحضة، هنالك يتوسل بجبروت القوة وكما هي السنة السائدة بين حماقى الطغيان:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ (١٤)﴾:

تَهدُّد من الذين كفروا لرسلهم بإخراجهم من أرضهم نفياً عن بلادهم، أم عوداً في ملتهم، ثم توعَّد من ربهم ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

ترى هذا إخراجهم من أرضهم فكيف عودهم في ملتهم ولم يكونوا فيها بدءًا حتى يرجعوا فيها عوداً؟.

ألأن هذه مقالة الكفار ودعواهم أنهم كانوا قبل دعوى الرسالة في ملتهم ثم تحولوا عنها إلى ملة التوحيد ودعوى الرسالة، وكيف يُصدق الكافر في قولته على المرسلين؟ ولكنما الدعوة الكافرة الباطلة لا تظل في كتاب الدعوة الحقة دون إبطال وإجابة! ولا نراها هنا! أم خُيِّل إليهم أنهم كانوا من قبل في ملتهم إذ لم يكونوا يتظاهرون بشيء من هذه وتلك، فليعودنَّ فيما كانوا؟ فكذلك الأمر! أم أن العودة هي الصيرورة فلا تستلزم بداية الشرك؟ ولو عنتها لجيء بلفظ الصيرورة دون العودة!.

أم وإن كانوا على علم بما كانوا قبلئذ فليعودن في ملتهم كأحدٍ منهم سكوتاً عما يدعون فـ ﴿مِلَّتِنَآ﴾ لا تعني الملة الروحية بل هي هنا الملة والسلطة الزمنية، فليست الملة لتخص الروحية منها، وهنا القرينة على الزمنية أن المرسلين ليسوا قبل الرسالة إلا مؤمنين وفي قمة الإيمان نسبة إلى سائر المؤمنين، واحتمال الملة هنا الشرعة ليس يصنع حجة يمس ساحة الرسالة، أو يناحر حجة الرسالة بسابقة الإيمان وهي لزام الرسالة، كما أن آيات الاجتباء والاصطفاء كـ ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] وأضرابها تصريحات بهذه السابقة السابغة، إضافة إلى برهان إمكان الأشرف، فلتكن الملة - إذاً - الملة الزمنية بسلطتها الجبارة. وقد تفي «في» دون «إلى» دلالة على هذا المعنى، فقد كانوا فيهم كما هم في ظاهر الحال فليعودوا فيهم كما كانوا على تقية دون دعوة ظاهرة؟ وعله - فقط - ما يعنون، أم هم مختلفون فيما يختلقون، فالمعاني الثلاثة - إذاً - معنية، وكفى الثالث معنى أصيلاً لا يحتاج إلى ابطال.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

ثم الخطاب لا يخص المرسلين حيث يهدفون بما يتهددونهم حسم مادة الرسالة والدعوة لها، فبقاء المؤمنين دون المرسلين بقية للدعوة، وتوطيد للداعية مهما خرجت عن محيط الدعوة، وكما صرحوا في شعيب ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا . . .﴾[1] وأما ذيل الآية ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾[2] فلا يدل - أيضاً - على الملة الروحية، حيث البقاء تحت السلطة الزمنية الكافرة دون دعوة جاهرة باهرة، وبعد انقضاء زمن التقية، ذلك افتراء على الله في هذه السلبية أن الرسالة لا تحمل دعوة جاهرة، وإنما هي سرية خفية على تقية! فتقية الرسل في الوقت الذي تحرم فيه التقية، تحسب من شاكلة الرسالة، وهكذا رسالة خاملة خَامدة فرية على الله كذباً ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[3] أن نعود إلى التقية في تلك الملة المشركة.

وبعد ذلك التهديد اللهيب يُطَمئِنهم الوحي الحبيب: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ باستئصالهم قبل أن يحققوا وعيدهم على المرسلين ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ وعداً لهم عليهم غير مكذوب، وأصدق المصاديق لهلاك الظالمين - ككل - وإسكان النبيين الأرض مكانهم، هو آخر الزمن حيث يقوم القائم المهدي عليه السلام بالحق والعدل المطلق ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾[4].

ذلك مهما صدق هلاك هؤلاء وإسكان أولاء، خلال الزمن الرسالي

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١١.
(٤) سورة الأنبياء، الآيتان: ١٠٥، ١٠٦.

أحياناً حيث تقوم دويلات الحق، ولكنها لا تدوم ولا يهلك الظالمون عن بكرتهم في هذه الدويلات.

إذاً فـ ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ تعني ذلك الزمن حيث الهلاك الجماهيري للظالمين كوناً وكياناً وسلطة، ثم ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ بعد هلاكهم مهما كانوا موجودين، فإن في زوال سلطتهم اضمحلالهم.

وهكذا وعد المرسلون - ككل - ولم يحقق وعده تعالى طول حياتهم السابقة، فليكن في رجعتهم الخاصة زمن المهدي المظفر المنصور من آل محمد عليهم السلام حيث يرجعون أنصاراً لهذه الدولة المباركة، وأصحاب الألوية، ثم من بعد موته عليه السلام يحكمون كما حكم.

وعل ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ هنا هم أئمة الظلم والضلالة حيث يرجعون مع أئمة الإيمان والعدالة وكما في الخبر المستفيض «يرجع من محض الإيمان محضاً ومن محض الكفر محضاً» وهذه رجعة بالاستعداد عامة، كمن قبلهم خاصة من النبيين وأئمة الدين المعصومين عليهم السلام ثم رجعة بالاستدعاء لمن التمس من متوسطي الإيمان أن يرجع مع من محض الإيمان محضاً.

وهكذا يجاب عن مشكلة ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ﴾ إذ لم يسكنوا أرضهم حيث الظلم وحملته الرؤوس والهوامش احتلوا طول التأريخ حتى أراضي الدعوة للمرسلين، فكيف «لنسكننكم أرضهم» ويعد ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ وترى ما هو مقام الرب وليس له قيام مصدراً أم زمناً أو مكاناً كما هي معاني المقام؟

إضافة المقام إلى الله تُجرِّده عن كل مقام لمن سوى الله، وتستخلص له من المقام قيامه بذاته ويأمر الربوبية في الدنيا والآخرة، فهو القيوم في ذاته وصفاته وأفعاله، مقامات ثلاثة، وهي دون الأولى بين جمال وجلال، ومقام جلاله جل جلاله هو موقف القدرة والجبروت ومكانة العزة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ

مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[١] ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[٢] [٣].

فمن قيامه تعالى بالقسط جزاءه العدل يوم القيام حيث ﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٤] وإلى سائر قيامه في سائر الحياة و﴿ذَٰلِكَ﴾ الانتصار التام ليس لكل مدعٍ للإيمان، وإنما ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ والخائف مقام الرب ووعيده لا يخاف مقام سواه في تحقيق مرضاة الرب وتطبيقها في المجتمع قدر المستطاع، وقد عبر عنهم في بشارة أخرى بالصالحين ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[٥] وفي ثالثة بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ومن أصلح الصالحات الإيمانية محاربة الظلم ومحاولة بسط العدل دون تساهل وخُمول، والساكت عن الظلم شيطان أخرس.

ومِن الخائفين مقام ربهم ووعيده قوم يضحكون جهراً في سعة رحمة ربهم ويبكون سراً من خوف عذاب ربهم يذكرون ربهم بالغداة والعشي في البيوت الطيبة والمساجد ويدعونه بألسنتهم رغباً ورهباً ويسألونه بأيديهم خفضاً ورفعاً ويقبلون بقلوبهم عوداً وبدأً فمؤنتهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة يدأبون في الليل حفاة على أقدامهم كدبيب النمل بلا مرح ولا بذخ يقرؤون القرآن ويقربون القربان ويلبسون الخلقان عليهم من الله تعالى شهود حاضرة وعين حافظة يتوسمون العباد ويتفكرون في البلاد أرواحهم في الدنيا وقلوبهم في الآخرة ليس لهم همٌّ إلا أمامهم أعدوا الجوار لقبورهم

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.
(٣) راجع الفرقان ج ٣٠ ص ٩٦ - ٩٧ و٢٧: ٤٨ - ٤٩.
(٤) سورة المطففين، الآية: ٦.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

والجواز لسبلهم والاستعداد لمقامهم ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[(١)].

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ⑮﴾:

الاستفتاح هو طلب الفتح في معركة صاخبة دائبة بين الرسل والمرسل إليهم، وترى من هم المستفتحون هنا؟

هل هم الرسل؟ ف ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾[(٢)] وكما في نوح: حيث ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ⑪⑦ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ⑪⑧ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ⑪⑨ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ⑫⓪﴾[(٣)] وفي محمد ﷺ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[(٤)] وهكذا مَن بينهما من النبيين قائلين: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[(٥)].

أم وهم المرسل إليهم الكافرون، استفتاحاً بدعاياتهم الزور الغرور وما هددوا به المرسلين وفعلوا ما افتعلوا ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ واستفتاحاً ليوم الدين: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ②⑧ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ②⑨﴾[(٦)] ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾[(٧)] ولقد كانوا باستفتاحهم يوم الدين يستعجلون العذاب الأليم ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ

---

(١) الدر المنثور ٤: ٥٧٢ أخرجه الحاكم من طريق حماد بن أبي حميد عن مكحول عن عياض بن سليمان وكانت له صحبة قال قال رسول الله ﷺ: خيار أمتي فيما أنبأني الملأ الأعلى قوم... لمقامهم ثم تلا ﷺ «ذلك..».

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٩.

(٣) سورة الشعراء، الآيات: ١١٧-١٢٠.

(٤) سورة الفتح، الآية: ١.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

(٦) سورة السجدة، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

(٧) سورة سبأ، الآية: ٢٦.

فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] [2] ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[3].

ولكن فتاح الأمر هو وعد الله ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ وختامه تحقيقه ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وبينهما استفتاح من أولاء ومن هؤلاء وأين استفتاح من استفتاح؟.

﴿... كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾:

﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ إذا مات جباراً عنيداً،

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

(٢) نور الثقلين ٢: ٥٢٠: ح ٢٦ في روضة الكافي عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن محمد ابن سليمان عن أبيه عن أبي بصير قال: بينا رسول الله ﷺ جالساً إذ أقبل أمير المؤمنين عليه السلام فقال رسول الله ﷺ: إن فيك شبهاً من عيسى ابن مريم لولا أن يقولوا فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى ابن مريم لقلت فيك قولاً لا تمر بملإٍ من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك يلتمسون البركة قال: فغضب الأعرابيان فأنزل الله على نبيه ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ...﴾ [الزخرف: ٥٧] فغضب الحارث ابن عمرو الفهري فقال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا...﴾ [الأنفال: ٣٢] إن بني هاشم يتوارثون هرقلاً بعد هرقل ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فأنزل الله عليه مقالة الحارث ونزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] ثم قال له: يا عمرو إما تبت وإما رحلت؟ فقال: يا محمد ﷺ! بل تجعل لسائر قريش شيئاً مما في يديك فقد ذهبت بنو هاشم بمكرمة العرب والعجم، فقال له النبي ﷺ: ليس ذلك إلي ذلك إلى الله تبارك وتعالى فقال: يا محمد! قلبي ما يتابعني على التوبة ولكن ارحل عنك فدعا براحلته فركبها فلما صار بظهر المدينة أتته جندلة فرضت هامته ثم أتى الوحي إلى النبي ﷺ فقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾﴾ [المعارج: ١-٣] فقال رسول الله ﷺ لمن حوله من المنافقين: انطلقوا إلى صاحبكم فقد أتاه ما استفتح به قال الله عز وجل: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥].

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٢٩.

ولماذا ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ و﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ وهما أمام كل جبار عنيد حيث يستقبلونهما في مسيرة الحياة ومصيرتها؟

علّه لأنهم يستدبرونهما إيماناً إذ هم بهما كافرون، مهما يستقبلونهما كواقع، فجاء التعبير بالواقع المختار كما يزعمون دون الواقع على أية حال.

ثم ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ لا تخص وراء الأخرى، بل والأولى، فإن جهنم الحياة هنا هي من وراء ما يعتقدون وما يعملون خلفيَّةً لا حِوَل عَنها إلا بحول الله وقوته، فالجبار العنيد يعيش جهنم الحياة ويُعيِّش من تحت وطأته إياها في الحياتين: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ...﴾ ف ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ هنا وهناك، تعني مخلفات وراء تخلفاتهم، سواء أكان لهم في مثلث الحياة، أم والآخرين حيث العمليات الكافرة تظلم الجو على عائشيه: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾[1] ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2] ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾[3].

فلأن الناكرين للقيامة يجعلونها وراءهم نكراناً، وهم مقبلون إلى الدنيا وشهواتها، فجاعلون الأخرى وراءهم يوماً ثقيلاً، لذلك نرى القيامة لهم - لا للمؤمنين - وراءً، فهم في دنيا الحياة في وراء وعراء.

فالوراء - إذاً - قد تكون الواقع الذي لا حِوَل عنه ولا حُولَ في إيجابه أو سلبه، والحياة الحساب ليست وراء بل هي أمام، وقد تكون حياة الحساب حسب العقيدة والعمل الصالح لها، فهي وراء لمن لا يعتقدها ولا

(١) سورة الإنسان، الآية: ٢٧.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.
(٣) سورة الجاثية، الآية: ١٠.

يعمل لها ف ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ وهو أمامهم في الواقع، ونرى الوراء في الحياة الحساب تختص في آياتها بناكريها دون المؤمنين فإنها لهم أمام.

وعلَّ الوراء الأول هو البرزخ والثاني هو القيامة، وقد يلمح له ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ حيث البرزخ أمامه غير غليظ، وهو وراء جهنم.

و﴿مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ هو القيح السائل من الجرح[1] وهذه مرة يتيمة يعبر فيها عن ماء الجحيم بصديد، وعلّه صدُّ الحياة كحياة وإن كان ليس بميت.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ جرعة جرعة، حيث لا يتجرأ على ابتلاعه دفعة، ولا يستغني عنه حتى لا يتجرع، ضرورة العطش الهالك الحالك، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ويروّيه، بل ويزداده عطشاً على عطش، فقد يشرب الشارب ماءً ولا يسيغه لمرض العِطاش، فقد يسيغه لولا العطاش، ولكنه ماءٌ ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ لأنه لا يروِّي، بل ويزيده عطشاً! ثم ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ في الجحيم ﴿وَيَأْتِيهِ... وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فهو ذائق طعم الموت بكل بواعثه وكوارثه من كل مكان خارج وجوده، ومن كل مكان من جسمه، وحتى من مكان حياته وهو فمه الآكل الشارب، فإنهما مميتان

(١) الدر المنثور ٤ : ٧٣ - أخرج أحمد والترمذي والنسائي وابن أبي الدنيا في صفة النار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في الآية قال: يقرب اليه فيتكرهه فإذا دنا منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمّد: ١٥] وقال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

وفي نور الثقلين ٢ : ٥٣٢ عن تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام : إن أهل النار لما غلى الزقوم والضريع في بطونهم كغلي الحميم سألوا الشراب فأتوا بشراب غساق وصديد ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧] وحميم يغلي به جهنم منذ خلقت، ﴿كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

كسائر بواعثه، وعلَّه من أتعسه حيث يختص بالذكر بينها، فأصبح باعثُ الحياة باعثَ الموت وكارثَه! ولكنه لا يموت، فهو - إذاً - أموَت من الموت ببأسه، وأحيى من الحياة ببؤسها، جمعاً بين كوارث الموت والحياة، حياة خالدة مارجة بموت خالد، لا حظوة في تلك ولا خلاص عن ذلك ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

أجل! وإن غواشي الكروب، وحوازب الأمور تطرقه من كل مطرق، وتطلع عليه من كل مطلع، حيث ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩﴾[1]. . . ! وقد يوصف المغموم بالكرب، والمضغوط بالخَطب بأنه في غمرات الموت، مبالغةً في عظيم ما يغشاه، وأليم ما يلقاه.

وترى إذا ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فأين موت النار بمن في النار صيانة على العدالة الربانية؟ إن ﴿كُلِّ مَكَانٍ﴾ هنا هي مكانات الجحيم، فما دام الجحيم ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ منها، فإذا زال الجحيم فلا مكان - إذاً - يأتيه الموت منه، ولا هو كائن حتى يأتيه الموت!.

ثم الموت الآتي من قبل الله حين ختام العذاب العدل، ليس هو من أي مكان فضلاً عن كل مكان، وإنما هو من خالق الزمان والمكان ولذلك يؤثر أثره، دون سائر عوامل الموت حين لا يريد الله تأثيراتها في الموت.

ومن ثم فالظاهر من ﴿كُلِّ مَكَانٍ﴾ هنا مكانات الجحيم البرزخية، ثم ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ في الجحيم الأخروية.

إذاً فلا دلالة ولا إشارة في ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ إلى فرية معروفة على الله أن أهل النار مؤبدون فيها إلى غير النهاية!

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٨﴾:

---

(١) سورة المدثر، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله وآياته قلباً وقالباً ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ قالباً وقلباً ﴿كَرَمَادٍ...﴾ فطالحات أعمالهم هباء دونما حاجة إلى إهباء وإحباط، وصالحات أعمالهم حابطة لأنها خابطة دون رباط بإيمان.

ولماذا ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ...﴾ إبدالاً، دون «مثل أعمال الذين كفروا»؟ علّه تعبير عن احتصار كيانهم الكافر في أعمالهم الكافرة، باطنة وظاهرة، علماً وعقيدة وطوية ونية، ثم بروزاً لما في الجوانح في الجوارح، فقد استأصل ذلك المثل كيانهم - ككل - في أعمالهم الهباء الخواء، حيث الله منها براء: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[1]. إذا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾[2] إذ خفت موازينهم! فمثل هذه الأعمال الخاوية عن الإيمان، كرماد مركوم، متصلة الظواهر، منفصلة بعضها عن بعض وعن مكانها، يخيَّل إلى الناظر الغافل أنه شيءٌ، ثم إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف، تراه هباء منثوراً ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ...﴾! وهكذا تكون الريح العاصفة يوم الحساب، تعصف بأعمالهم فتجعلها هباءً منثوراً.

ولأن ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ جمع مضاف، فقد تستغرق كل أعمالهم صالحات وطالحات، ولكنما الطالحة حابطة في ذاتها دون حاجة إلى ريح تشتد بها، فقد تعني - فقط - صالحاتهم، إلّا أنها كطالحاتهم حابطة دون إحباط لفقدها شريطة الإيمان، وهذا المثل بيان لواقع أعمالهم في حساب الله، وأنهم يحسبون طالحاتهم - كما الصالحات - صالحات، والله ينبئُهم أنها كلها حابطات، إن في بُعدٍ كصالحاتهم، أم في بعدين كالطالحات،

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٥.

ف ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ - إذاً - تعني كل أعمالهم، كما أن ﴿مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ﴾ تؤيد العموم: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ بخلاف الصالحين حيث يعاكس أمرهم: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾[1].

وهنا تبرز حقيقة ناصعة أن ليس العمل هو - فقط - المعوَّل، وإنما هو باعث العمل، إن إيماناً فصالح، وإن كفراً فطالح.



(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ

قُل تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا رسول الهدى - استفهام تقرير -: رؤية المعرفة اليقين القمة وهو حق اليقين ببصيرة الفطرة والعقل، المزودة بالوحي، و﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المخاطب العاقل رؤية دون الوحي من إنسان وجان وسواهما من العالمين المكلفين الصالحين لخطابات الله شرعة وتكليفاً، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وهما الكون كله ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: الله بالحق، خلق بسبب الحق ومصاحبته ولغايته، وبالإرادة الحقة والنظام الحق، دون فوضى جزاف في كمِّ الخلق وكيفه، في بدايته أو غايته ونهايته، ومن هذا الخلق أنتم المخاطبون المكلفون من الجنة والناس وأضرابكم.

فالخطاب هنا مطلق لا يقيد بالناس، مهما يخص في الفاطر بالناس كأصدق مصاديقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾[1] والخلق الجديد هنا - أعم من الناس.

﴿خَلَقَ... بِالْحَقِّ﴾ فإن أخلدتم إلى الباطل ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ جديد قد لا يكون هم من الناس: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾[2] أم جديدهم من الناس ولكنهم قرن آخرون: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾[3].

وهكذا يتهددنا ربنا إن عشنا خلاف الحق ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ وكما قضى على قوم نوح أجمعين إلا شرذمة صالحين، ثم أتى منهم بآخرين.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾:

ترى ومتى برزوا لله جميعاً وهم بارزون منذ كونهم في كونهم وقبل كونهم في علم الله بكيانهم، هل هو يوم القيامة؟: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[4] وهم في مثلث الزمان، وفي اللازمان بارزون لله جميعاً!: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾[5].

إن واقع بروزهم لله كائن على أية حال، ولكنهم لكفرهم بالله يخفى

(١) سورة فاطر، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٣٣.
(٤) سورة غافر، الآية: ١٦.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٥.

عنهم يوم الدنيا بروزهم لله، ثم هم بعد الدنيا بارزون في اعترافهم بالله: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾! ومن ﴿هَٰذَا﴾ بروزهم بأعمالهم لله سراً وعلانية.

بارزون لا يقدرون على تستر واستخفاء رغم ما كانوا يظنون: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾[1] ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[2] ثم وصيغة الماضي «وبرزوا» تبرز مضي واقع البروز لله منذ برزوا إلى الوجود وبروزهم لعلمه قبل الوجود مهما كان البروز هو الظهور بعد الاستتار، فحين كانوا مستترين عن أصل الوجود كانوا بارزين لله كعلم سابق، وحين أوجدهم كانوا بارزين كما كانوا على سواء مهما خيل إليهم أنهم بأعمالهم مستورون عن الله، وحين يردون على الله في يوم الله يتحقق بروزهم بكل زواياه، حيث هم يعلمون بروزهم لله، فهم بارزون لله قبل بروزهم إلى الوجود وبعد موتهم وبعد بعثهم وبعد موت من في النار مع النار، وبقاء من الجنة في الجنة عطاءً غير مجذوذ ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

كما وأن هذه الصيغة الماضية بجنب هذه اللمحة اللامعة، تُحقِّق مستقبل بروزهم كأنه ماض، فقد كانوا بارزين لله لا يخفى عليه منهم شيء، وسوف يبرزون دون أية غطاء ولا في أنفسهم أنهم بارزون لله!.

ولما ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ كافة المكلفين، وفيهم الضعفاء والذين استكبروا، ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ تقصيراً دون قصور، حيث الضعف القاصر عاذر كما ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ... لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾[3] وإنما ضعفٌ من ضعيف مقصر، حيث سامح عن عقله، وتغافل عن فطرته، وتغرَّب عن

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.
(٢) سورة الحاقة، الآية: ١٨.
(٣) سورة النساء، الآية: ٩٨.

إنسانيته، تنازلاً عامداً عن أخص خصائص الإنسان وهو الحرية والاستقلال في التفكير وانتخاب المسير والمصير، فقصارى ما يملكه المستكبرون هي تحديد الحياة المادية وتحبيسها، أما الحياة الروحية والفطرية والعقلية فلا مدخل لأي مستكبر إليها إلّا من الضعفاء الذين يفتحون أبواب أرواحهم بمصارعها لأي غادر مغادر.

إن المستضعفين هم ثلة على طول الخط، والمستكبرون قلة، فلماذا تخضع تلك الثلة لهذه القلة، إلا لضعف الروح، وسقوط الهمة، وعدم استقلال الإرادة، والتنازل الداخلي عن أية كرامة إنسانية موهوبة لكل إنسان.

ولقد بلغ بهؤلاء الأنذال الذلُ وحياة التبعية اللاشعورية لحدّ يستطير إلى مسرح الآخرة حيث يسألونهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ عرضاً لموقفهم المتخاذل أمامهم كأنه يحرضهم أو يمكّنهم لمقابلة الحسنى بالحسنى وهنا ﴿تَبَعًا﴾ مصدراً مفرداً دون: أتباع جمع «تابع» وقضية الجمع في ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ هي «أتباع»؟ علّه تأشيراً إلى مبلغ هذه التبعية اللعينة الأعمى كأنهم نفسها دون فاعل لها، فهم كأنهم تجسيد لأصل التبعية، إذ لم يبق من كيانهم إلّا هيه ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ذلك العذاب الأليم الذي هو من خلفيات تلك التبعية الملعونة المرذولة، وقد تلمح ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ بمقال سابق للمستكبرين وكما كانوا يقولون للمؤمنين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

ثم ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ وتثنية «من» المبعّضة تثنّي التبعيض، عناية

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ١٢، ١٣.

إلى بعض من بعض، استئصالاً لإغنائهم عنهم شيئاً من عذاب الله وإن قليلاً في ذلك اليوم العصيب: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾[1] فحين ﴿كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في مطلق التبعية كالعبودية المطلقة، فهل يقابلها هنا - وفي كمال الحاجة والاضطرار - أن تغنوا عنا شيئاً وإن ضئيلاً قليلاً من عذاب الله؟! ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ وعلّها هدى الأولى والأخرى، إلا أن ﴿لَوْ﴾ في الأولى إحالة للهدى بما زاغوا فأزاغ الله قلوبهم، فلما لم يهتدوا لم يكن منهم إلا الإضلال لأتباعهم وامتناع الهدى باختيار لا ينافي الاختيار حيث اختاروا الضلال فلم يكن الله ليهديهم سبيلاً إلا سبيل جهنم، ثم ﴿لَوْ﴾ في الأخرى إحالة لهدى الثواب، أو التنحي عن العقاب، فمثلنا كمثلكم سواء ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ جميعاً ضعيفاً ومستكبراً ﴿أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

إن الضال في طبعه، هو من طبعه الإضلال، كما المهتدي في طبعه من طبعه الإهداء، فكونكم تبعاً لنا ككوننا جميعاً تبعاً للشيطان لا يبرِّر لنا حياة التبعية الضالة، فكما كان مسيرنا واحداً في ضلال، كذلك مصيرنا و﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ حيث الآخرة هي مثال الدنيا في ضلال وهدى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[2].

لقد قضي الأمر، وانتهى الجدال، وما كاد تنفع الحوار، ويجنبنا الشيطان هاتف الغواية لنا جميعاً يعترف بمثواه ومأواه، محلقاً في إذاعة جهنمية على كافة الضالين من الضعفاء والمستكبرين، منددا بهما جميعاً،

(١) سورة غافر، الآيتان: ٤٧، ٤٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

ومردداً ضلاله وضلالهم جميعاً، كافراً بما أشركتموه من قبل ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾:

أجل! «إنه يعظم إبليس لجهنم»[1] ويقول قولته النادمة، الصارخة الصارحة للحق، إذاعة بمذياعه الحاشر أتباعه، الحاسر عن مكائده ومصائده وعن كل شيطناته طول حياة التكليف، فتبدو شخصيته هناك على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء والمستكبرين، في طعنة أليمة نافذة ناشزة، حيث لا يملكون عليه رداً، ولا لأنفسهم مرداً، فإنه مصارحة له ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ وما هو هذا الأمر؟ هل إنه أمر حياة التكليف منذ الموت في الحياة البرزخية؟

ولمَّا يقضِ كل الأمر إلا إشخاص الأمر لأشخاصه! ﴿وَقَالَ﴾ تلمح لمرة واحدة في ذلك الخطاب للضالين كلهم! والحساب فيه مؤقت برزخ! أم إنه أمر التكليف ككل عند قيامة الإحياء قبل الحساب؟ ولم يقض كل الأمر، فإن أمر الحساب إمر هو أمرٌ من أصل القيامة!

أم إنه أمر الحساب حين استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار؟ وهنالك أمر لم يقض بعد وهو خروج جمع من أهل النار من النار!

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٧٤ - أخرج ابن المبارك في الزهد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ وقضى بينهم - وفيه ذكر تسلسل الشفاعة من آدم إلى محمد ﷺ ثم : ويقول الكافرون عند ذلك قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ما هو إلا إبليس فهو الذي أضلنا فيأتون إبليس فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا فيقوم إبليس فيثور مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط ثم يعظم لجهنم ويقول عند ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ...﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وإمر الخطاب هذا لأتباعه عذاباً فوق العذاب ليس إلّا بعد قضاء كل أمر! قد يجمع الأمر هنا كل أمر يرجع إلى أهل الجمع وقد قضي الأمر كله، وكما يلمح له لام الاستغراق في الأمر، مهما شمل مثلث الأمر قبله، ورباعية الأمر لا تنافي ﴿وَقَالَ﴾ فإنه كل قالة من الشيطان تختصر وتحتصر في هذه القالة.

وترى ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ هنا تعم شياطين الجن والإنس؟ وظاهر الصيغة إفراده، وإلّا لكان ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ كما في أمثالها السبعة عشر الأخرى! وأنه رئيس الشياطين المضللين: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]! وإن «كم» في ﴿وَعَدَكُمْ﴾ و﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ تشمل كافة الضالين من مستكبرين ومستضعفين من الجنة والناس أجمعين! ولم يذكر ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ في موارده السبعين إلّا ويعني إبليس - فقط - دون حزبه، اللهم إلا بقرينة كـ ﴿طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[2] و﴿شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾[3] و﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾[4].

فالشيطان - إذاً - هو الشيطان، رئيس المضلين والضالين منذ التكليف إلى يوم الدين.

في هذه المحاضرة الشيطانية - المحاذرة، ينهار سائر الشياطين صغاراً وكباراً، وعلى هامشهم كل من استجاب له.

ويا لها من كلمة قصيرة الأداء طويلة المدى، بعيدة الصدى، تضرب إلى الأعماق، وتخرق الآفاق، فتضيف إلى جحيم النار لأتباعه جحيم الندامة والحسرة الحاسرة، حيث يُعرِّف بنفسه هناك كما عرَّف الله به هنا، والقرآن يجمع بين ما هنا وهناك، حجة قارعة بارعة لمن ألقى السمع وهو شهيد.

---

(١) سورة ص، الآية: ٨٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.
(٣) سورة النساء، الآية: ١١٧.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.

﴿وَقَالَ... إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ وعداً يملك كل مؤشرات وبراهين الحق من برهان الواقع وواقع البرهان، دونما تخلف لوعده عن حكم الفطرة والعقل والشرعة والواقع يوم الدنيا، والذي سوف يقع يوم الدين.

وقد يعني المضي في «قال» إضافة إلى مستقبل متحقق الوقوع، قاله في ماضيه منذ اصطكاكه بالمكلفين، وطبعاً لا يتفهمه إلا من يعتقد في قضاء الأمر، حيث يتعرف إلى قاله من أفعاله، وإلى أفعاله من قالِه.

ثم ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ دون «الوعد الحق» يلمح لتحقيق الوعد الحق في كل حقوله، دون الوعد فقط، فمن الواعدين من يعد حقاً ثم يمنعه مانع أم يقضي نحبه قبل قضاء وعده، وقد لا يعد أمراً ثم يحققه، ولكن وعد الله هو وعد الحق.

وقد تعني إضافة «وعد» بـ «الحق» كل تقديراتها، وعداً بالحق ووعداً في الحق ووعداً للحق وإلى الحق، حقاً في الوعد وفي تحقيقه وفي تطابقه لقضية الفِطَر والعقول، فلا تجد أي تخلف في وعد الله الحق، مستغرقاً كل حق موعود دونما استثناء، حقاً في الأولى وفي البرزخ والأخرى، وقد تبين لهم كله في الأخرى، وهنالك يخسر المبطلون.

﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ إخلافاً في أصل الوعد لكذبه، وإخلافاً في تحقيقه حيث لا يقدر عليه ولو صدق، إذ لا يملك من دون الله من شيءٍ.

وذلك الإخلاف ليس - فقط - يظهر ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ بل ويوم الدنيا لمن أبصر بها فبصّرته، دون من أبصر إليها فأعمته.

فوعده - إذاً - وعد الباطل، وجاه وعد الحق لله، وكان وعد الله مفعولاً ومقروناً بكل مؤشرات الصدق وبينات الحق، دون وعد الشيطان إذ ليس له من سلطان:

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ سلطان البرهان، أم سلطان القوة السالبة الاختيار فإنه - ككل - من السلاطة وهو الممكن من القهر أياً كان، كما وقد يلمح «من» لاستئصال أي سلطان للشيطان، وليس له إلّا كيد و﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾(١) ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾.

ثم ﴿وَمَا كَانَ﴾ تضرب إلى أعماق المضي مهما مضى ولا قل تقدير منذ التكليف لأهله.

﴿وَمَا كَانَ. . إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾: دعوة فاضية خاوية، دون أن تملك أي برهان في أي حقل من الحقول، اللّهم الا مصائِد ومكائد، لا يصاد بها ولا يكاد إلا من تناسى كرامة العقل والفطرة وهدي الشرعة، وبصيغة عامة، من تغافل عن آيات الله آفاقية وأنفسية، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه وكان أمره فرطاً: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾(٢).

فهنا الاستثناء منقطع، حيث السلطان السالب للاختيار ينافي تكليف الاختبار، والدعوة الكائدة الصائدة السائدة في كل حركات الشيطان لا تجد سبيلاً لتحقيقها في ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٣): ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾(٤) سلطانٌ ليس إلّا استجابة من الذين يتولونه ويتقبلونه، فليس - إذاً - سلطاناً مستقلاً قاهراً، بل مستغلاً ظاهراً حين يجد له ظرفاً مطاوعاً.

(١) سورة النساء، الآية: ٧٦.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٢.
(٣) سورة النحل، الآية: ٩٩.
(٤) سورة النحل، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

فلأن سلطانه على الذين يتولونه تابع لمطاوعتهم فليس هو سلطاناً له عليهم، بل تسليطاً له منهم عليهم.

فإن صدق عليه سلطانٌ - ولا يصدق - فهو سلطان لا ينافي التكليف، والاستثناء إذاً متصل، ولكنه لا يلائم معناه لغوياً وهو التمكن من القهر إذ لا قهر في سلطانه، إلا تجريداً له عن القهر في المستثنى، فهو مطلق التأثير، إذاً فلا فرق معنوياً بين انقطاع الاستثناء واتصاله ما لم يكن له سلطان القهر.

وهذه وخزة معيرة مغيرة على أتباعه إذ قضي الأمر فلا مناص ولات حين خلاص: ﴿إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾.

دعوة تُزَيِّن لهم الباطل فيحسبونه حقاً، وتُصوِّر لهم الحق باطلاً، فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى.

وللشيطان دعوات عدة في مختلف الحقول، ولمختلف العقول، لا تملك أية برهنة وسلطان إلَّا نفسها بكل زور وغرور فإنه غَرور.

﴿إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ تشمل كافة دعواته وكافة الإجابات له على طول الخط، مهما اختلفت في الصورة، فإنها سيرة واحدة.

ليست دعوة الشيطان لغير المخلصين على حدّ سواء، بل له خطوات يخطو بها إلى أهدافه حسب الظروف والإمكانيات.

فقد يدعو ويستجاب بسهولة، وهذه لمن يتولونه وهم به مشركون، وأخرى بصعوبة ومحاولات عدة وهي لمن يؤمنون بالله، وهنالك صراعات وصدامات بين الشيطان بخيله ورجله وبين هؤلاء قد يَغلِبون وقد يُغلبون وأخرى عوان بين ذلك، وثالثة مستحيلة وهي بالنسبة للمخلصين من عباد الله حيث أخلصوا أنفسهم فأخلصهم الله، فلا سبيل إليهم من الشيطان.

وبصيغة جامعة الغاوون هم الذين له إليهم سبيل وعليهم سلطان حسب

دركات الغواية مهما كانوا من المؤمنين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[١].

وأما ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٢] و«المخلَصون» فليس له عليهم أي سلطان: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾[٣].

وهذه تعابير ثلاثة عن ثالث ثلاثة من المكلفين: «غير الغاوين» ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ وليخصص الأولان بكونهم من المخلَصين، فهم المؤمنون المتوكلون القمة، وغير الغاوين القمة، وهم المعصومون، أم يعني من سلطانه السلطة الإلحادية أو الشركية فيعم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ كل المؤمنين المتوكلين وكما قد يستفاد من آيات سلب السلطان.

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ...﴾ أفلا لوم على الشيطان في إضلاله الدائب، وإنما هو على المضلَّلين المستضعفين؟ أجل إنه ملوم بما أضل، وهم ملومون بما ضلوا، ولكن حجر الأساس في ذلك اللوم هو الذي تولاه وتقبل سلطانه عليه، فهم بالنسبة لأنفسهم أظلم وأشطن من الشيطان حين يحنون ظهورهم ليركبهم كما توعدهم: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٤].

﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ خلاف ما وعدتكم أني مصرخكم يوم الصرخة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ...﴾[٥].

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٢.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٩.
(٣) سورة ص، الآيتان: ٨٢، ٨٣.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٦٢.
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ١٢.

إنه لا إصراخ هنا أو هناك إلّا صراخاً أجرد عن أي مصرخ، وترى هذا الشيطان لا يصرخ خلاف ما وعد، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ فما هو موقف ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ ولم يكن فيه وعدٌ لا من الشيطان ولا من أوليائه؟.

علّه تتمة لاستئصال أي إصراخ من الجانبين، موعوداً وغير موعود، ولأن الأتباع قد ينفعون المتبوعين يوم الدنيا ويظن كذلك يوم الدين، فلسلبية الإصراخ منهم موقع كما منه.

ثم استئصالاً لأية صلة مصرخة بينه وبينهم يكفر بما أشركوه: ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ مما يدل على أن كل اتِّباع للشيطان فيه إشراك له بالله مهما اختلفت الدركات.

ومهما كان ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ﴾ هنالك إيماناً منه ولكنه لا يُقبل منه، وإنما هو تبكيت وتنديد بالذين يتولونه والذين هم به مشركون.

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ وذلك من أظلم الظلم أن يتسامح الإنسان عن كل ما منحه الله من ضمير وعقلية وشرعة، أمام من؟

أمام الشيطان عدو الله وعدو الإنسان.

﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾:

وإذا كان تحية أهل الجنة ﴿سَلَٰمٌ﴾ فهي هي التحية الإيمانية لهم يوم الدنيا، حيث الأخرى مثال للأولى، وأين تحية سلام للذين يتولون الرحمن وتحية سام للمتولين الشيطان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]؟

والخلود بإذن الرب يُؤذِن بأنه رحمة فائضة زائدة على التي يستحقونها، وإنما الربوبية الرحيمية هي الموجبة لفائضة الرحمة الخالدة اللانهائية.

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)﴾:

﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ بتنكرها تعم كل كلمة طيبة في كافة حقولها الدلالية والواقعية، من لفظة تقال، أو عقيدة وعلم، أو عمل صالح أو حال، أم أشخاص خصوص من سائر المعصومين ومن يحذو محذاهم، حيث الكلمة هي كل ما تدل مهما اختلفت الدالات والدلالات قوة وضعفاً، ومن أقواها الكلمة المحمدية العليا فإنها جامعة الكلمات الطيبات لأعلى قيمها وقممها[1].

ففي حقل اللفظ نرى كلمة التوحيد رأس الزاوية[2] ومنطلق الطيبة لكل كلمة طيّبة، وقد يحملها داعية التوحيد العليا الرسول الأقدس محمد ﷺ والمحمديون من عترته المعصومين عليهم السلام يحملونها لفظياً وعقيدياً وعلمياً وعملياً وعينياً، دون إبقاء لمدرجة منها إلا درجوها وعرجوها لحدٍّ لا يعرجها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للايمان.

وهذه الكلمة الطيبة هي القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة كما في تالية الآية.

---

(١) لقد تظافرت الرواية من طريق الفريقين في تطبيق الكلمة الطيبة على الرسول ﷺ وأهل بيته المعصومين عليهم السلام.

(٢) الدر المنثور ٤: ٧٦ - أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أن رجلاً قال: يا رسول الله ﷺ ذهب أهل الدثور بالأجور فقال: أرأيت لو عمد إلى متاع الدنيا فركب بعضها إلى بعض أكان يبلغ السماء أفلا أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء تقول: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله عشر مرات دبر كل صلاة فذلك أصله في الأرض وفرعه في السماء.

وهل لهذه الشجرة الطيبة التي هي مثل لتلك الكلمة الطيبة واقع خارجي نعرفه أو نتعرف إليه؟ الظاهر نعم حيث الواقعية في أمثال القرآن واقع لا مرد لها، فإنها بعيدة عن الافتراضات الخاوية والخيالات الفاضية، ولأن المثل ليس موقعه إلّا تقريب الممثَّل له، فليكن أقرب منه إلى المعرفة، وأقربه ما يعرفه الممثَّل لهم بسهولة مهما لم يكن المثل بتمامه واقعاً ملموساً، ما هو واقع بشطر منه معروف.

إذاً فما هي هذه الشجرة، هل هي الكرمة؟ وهي لا تؤتي أكلها كل حين، وإنما في فصلها أم فصولها ما يتعدد إثمارها! أم هي النخلة[1]؟ فكذلك الأمر! إلّا أن يعني ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ أحيان بقاء الثمر، سواء التي يكون على الشجر رطباً أو يابساً، أم التي ليس على الشجر، كما الزبيب والتمر ومنتوجاتهما.

إذاً فتشمل هذه الشجرة الزيتونة، وأضرابها من الشجرات التي تبقى أثمارها مهما اختلفت درجاتها.

وهنا مواصفات أربع لمثل الكلمة هي: طيبة - أصلها ثابت - وفرعها في السماء - تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها - وهذه هي قمة الكمال للشجرة المَثَل وللكلمة الممثَّل لها، ولا تنطبق هذه المواصفات تماماً على أية شجرة معروفة نخلة أم زيتونة أمّاهيه، حيث هي بأصولها وفروعها وأثمارها غير

(١) الدر المنثور ٤ : ٧٦ - أخرج الترمذي والنسائي والبزاز وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس قال: أتي رسول الله ﷺ بقناع من بسر فقال: مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة - حتى بلغ - ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ﴾ قال: هي النخلة، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة - حتى بلغ - ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ قال: هي الحنظلة. وأخرج أحمد وابن مردويه بسند جيد عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] قال: هي التي لا ينقص ورقها هي النخلة. أقول: ورواية النخلة متظافرة عن النبي ﷺ وعلّها لأنها المعروفة في محط الوحي، والمفضلة على سائر الشجرة الطيبة زيتونة وسواها.

ثابتة، و﴿كُلَّ حِينٍ﴾ تعم كافة أحيانها منذ كونها حتى القيامة الكبرى وإلى غير النهاية، ولا شجرة هكذا اللّهم إلّا شجرات الجنة، فقد يأخذ ذلك المثل حصة من الواقع المعروف كالنخلة والزيتونة، ثم تكملة لها هي غير معروف حتى يكمل المَثَل بياناً للممثَّل.

وهذان المثلان لا يحلّقان على كل كلمة طيبة أو خبيثة، بل الطيبة المطلقة التي لا خبث فيها أو زوال، والخبيثة المطلقة التي لا طيبة فيها ولا بقاء، فالمزيجة من طيبة وخبيثة هي عوان بينهما، ولكنها إذا غلبت طيبتها على خبثها تحسب بحساب الطيبة في هامشها، وإذا عكست فبحساب الخبيثة في هامشها، وإذا تساوت الكفتان فهي - إذاً - طيبة وخبيثة - خبيثة وطيبة، وكل واجهة منها محسوبة بحسابها نفسها دون تخالط بينهما، اللهم فيما يحبط خبثُها طيبتَها.

وكلمة التوحيد بمصاديقها هي ﴿طَيِّبَةً﴾ مصدراً وموردأ، فاعلاً ومفعولاً، لا خبث فيها ولا قيد شعرة، طيبة في كافة وجهاتها كما الشجرة الطيبة، منظراً بنضارتها، وطيبة برائحتها، ولذة بطعمها، وكذلك كلمة التوحيد، الصادرة من مصدر طيب، الواردة في مورد طيب، الفاعلة مفعولة طيبة علمياً وعقيدياً وعملياً.

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ بجذور عريقة عميقة في أرضها، راسية في عمقها، جاسية في مختلف أطرافها، لا تزعزعها الأعاصير العواصف، ولا تزيلها القواصف، ولا تقوى عليها معاول الطغوى، شامخة سامقة متعالية.

وهكذا تكون كلمة التوحيد، مهما زاحمتها كلمة الشرك، فإنها تظل في زحامها ذاهبة جفاء، نافشة هشَّة، ثم لا تبقي إلّا هيه «وأما الزبد فيذهب جفاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».

فالكلمة الطيبة التي لا ثبات لأصلها، هي خبيثة المآل مهما كانت طيبة

في الحال، حيث الدوام هو أطيب الطيب لكل طيب، فالطيِّب درجات كما الخبيث دركات.

﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فالأصل الذي لا فرع له أم هو خامل واطىءٌ ليس هو في كمال الطيب، كالمؤمن الذي لا ينفع بإيمانه مهما ينتفع هو في نفسه قدَرَه، وقد يزول من أصله حين لا فرع له في سماء الدعوة والدعاية الحقة.

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ إيتاءً في كل الأحيان، بإذن الله الملك العلام، فلا إيتاء هنا دون إذن، ولا أن الإذن يخص أحياناً دون أُخرى، من ستة أشهر وما دونها أو ما فوقها، حيث الكل المضاف يستغرق الأحيان كلها، والممثل له لا فترة أو فطرة في إيتاءه أُكُلَه، مهما اختلف حينٌ عن حين وثمرٌ عن ثمرٍ.

فحينُ اتصال الثمرة الناضجة بالشجرة هو أفضل الأحيان، ثم تتلوه سائر الأحيان في الثمرة المنفصلة، فحينُ الرسالة والإمامة، المنقسم إلى عهد الرسول والأئمة وبعده، يقسم ثمرة الرسالة والنبوة إلى عهديهما وبعدهما، مهما اختلف العهدان قرباً وبعداً، إلّا أنهما في خط واحد تربطه كلمة القرآن وهي المحور الأصيل والثقل الأكبر، ولا تنقص الثمرة المنفصلة إلّا عدم اتصالها بالشجرة الثانية وهم الحَمَلَة المعصومون.

وإذنُ الرب زمن الحضور اثنان هما القرآن وحملته المعصومان، وزمن الغياب واحد هو وفَقها للقرآن.

فكما الله ثابت في أصل الألوهية السرمدية، والربوبية الدائبة، لا تأخذه سنة ولا نوم، وكل يوم هو في شأن، وهو معكم أينما كنتم، كذلك تكون كلمة الله، مختصرة في ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ومفصلة في القرآن العظيم، شجرة طيبة متشجرة إلى أرجاء الكون وأجوائه، في الطول التاريخي والعرض الجغرافي ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ دون تزعزع بنسخ أو تحريف أو تجديف وتزييف،

﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ حيث يحلِّق على سماوات الدعوات، دائباً مشرفاً مشرّفاً مشرقاً.

وقد أذن الله لدائب الدعوة القرآنية على محور التوحيد، بكل داعية لها حقه، معصومة كأهل بيت الرسالة القدسية، أم دونها كما في العلماء الربانيين الذين يحملون دعوة القرآن في كل عصر ومصر، وعلى طول خط الرسالة.

وإنها تُطمئِن كل دعوة حقة بداعيتها على مر الزمن، وهي - مهما صعبت الظروف والتوت - ثابتة ناجحة ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

وكلمة خبيثة هي ما تُناحر الطيبة، وإنها كشجرة خبيثة كما الحنظلة ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ فلا أصل لها راكزاً في الأرض ولا فرع، وحتى إذا كان لها أصل وفرع فإنهما خبيثان ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾: ليس لها أي قرار في قرارة الأرض فضلاً عن فرع في السماء، وليس لها أُكُل، ولو كان فهو زقوم من حنظلة، وهكذا يكون دور كلمة خبيثة، فـ ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾[1]!

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ - وليس فقط من مقولة القول - هو كلمة التوحيد[2]، كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، الثابت في مثلث الزمان وقبله

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٦.

(٢) الدر المنثور ٤: ٧٨ - أخرج الطيالسي والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ويعده، وليس ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ إلّا قراراً على غرار الموحدين، فإنهم لا يتخطون الزمان أياً كان.

وقد تعني ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ هنا منذ الموت برزخاً وإلى قيامة الإحياء إلى ما لا نهاية له، لأنها تقابل - ككل - الحياة الدنيا(١) وفي التعلقات الأدبية لـ «بالقول - في الحياة. .» اختلافات معنوية لعلها كلها معنية إلّا «آمنوا في الآخرة» حيث لا يقبل فيها حتى يثبت.

فالباء في ﴿بِٱلْقَوْلِ﴾ للتعدية أو السببية، والظروف على الحالين قد يتعلق بـ ﴿يُثَبِّتُ﴾(٢) وأخرى بـ ﴿ءَامَنُوا﴾ و﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ متعلقة بـ ﴿يُثَبِّتُ﴾ أم ﴿ٱلثَّابِتِ﴾ أم ﴿ءَامَنُوا﴾، ولا يطرح منها إلّا «آمنوا في الآخرة».

فالإيمان هنا مبدأ للتثبيت وسبب له، وجامع المعنى الذي يجمع صالحة المحتملات أنه: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، يثبتهم بسبب القول الثابت، تثبيتاً في الحياة الدنيا وفي الآخرة، تثبيتهم للقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فإن كلمة التوحيد الثابتة في الحياة الدنيا هي أثبت في الآخرة، لأنها يوم تبلى السرائر كما هي، وهي مثال الدنيا بأعمالها كما هي، وبصرك اليوم حديد.

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عن القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ومن أظلمهم المشركون فـ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٣) إضلالاً بما زلوا

---

(١) الدر المنثور ٤: ٧٩ - أخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية قال: وفي الآخرة القبر - أقول: لقد تظافرت أحاديث الفريقين أن ذلك عند المساءلة في القبر وهو تفسير لأقرب المصاديق.

(٢) تعلق ﴿بِٱلْقَوْلِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] بـ ﴿يُثَبِّتُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] لا يصح إلا ضمن تعلقه بـ «آمنوا» حيث الصحيح في الأول «على القول الثابت».

(٣) سورة لقمان، الآية: ١٣.

وضلوا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(١) إضلالاً في الحياة الدنيا فلا يهتدون، وفي الآخرة فيضلون طريق الجنة كما ضلوا عن طريقها في الحياة الدنيا ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ ولا يشاء إلا صالح العباد، فرحمةً بتثبيته لصالحهم، وإضلالاً لطالحهم، عدلاً هنا وفضلاً هناك ولا يظلمون نقيراً.

ثم الإيمان بالقول الثابت - وهو أصل المعني بين المحتملات - هو إيمان بما تقتضيه كلمة التوحيد من ملاحقة واستقامة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ...﴾(٢).

ولولا تثبيت من الله بالقول الثابت لم يكن ثبات حيث الزلات والضلالات كثرة، والطاقة الإنسانية قلة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ هنا هي الإيمان إذ قوبلت بالكفر، وأنه قمة النعمة، فهم بدلوا الإيمان كفراً، ثم ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ أن بدلوا إيمانهم كفراً كما بدلوا على أنفسهم، تبديلاً ذا بعدين بعيدين عن ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ فلذلك ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ إيقاداً لها لأنهم أئمة الكفر ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾.

أترى أئمة الكفر كانوا مؤمنين ثم بدلوه كفراً، وهم ما آمنوا من ذي قبل حتى يبدلوه كفراً، اللهم إلّا بعضاً منهم بإيمان النفاق وليس إيماناً؟.

هذه الآية على غرار آية البقرة ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾(٣) قد تعني - فيما عنت - الإيمان الكامن في فِطَرهم، المصدَّق بعقولهم، الكائن بآياته الآفاقية والأنفسية بمحضرهم، فهم بدلوه. كفراً تعامياً عنه وتناكراً له

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦.

وتغافلاً: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(١) ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾(٢)، والنعم الآفاقية من رسل وبينات هي أيضاً مما تُبدَّل كفراً فـ ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ تعم الأنفسية فطرية وعقلية وإيمانية، وتبديل الأخيرة هو بالارتداد، وآفاقية وهي كل النعم المنفصلة المفصلة في الكائنات، وكلٌّ هذه النعم تتمحور توحيداً لله فإنه نعمت الله الوحيدة غير الوهيدة، المحلِّقة دلالياً ومدلولياً على كافة الآيات الآفاقية والأنفسية.

ثم إن نعمت الله ولا سيما الإيمان تتطلب شكراً، ولكنهم لم يشكروا، بل ويبدلوه كفراً، فلو أنهم لم يكفروا، أم كفروا ولم يحلوا قومهم دار البوار، لم يكن لهم صلي جهنم وبئس القرار، مهما دخلوها على هوامش مَنْ هم صالو النار.

ولأن البوار هو فرط الكساد لحد الفساد، كما يقال كسد حتى فسد، فدار البوار لهم تشمل الآخرة والأولى، فقد أحلوهم بدايةً دار البوار الدنيا، إذ حملوهم على الإخلاد إلى الأرض واتباع الهوى وفُرُط الأمر، ومن جرّائها دار البوار الأخرى، بوار أبور من الأولى، حيث ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾(٣).

فهؤلاء هم أئمة الكفر، وحملة رايات الضلال كما:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾:

والنِّد هو المِثلُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(٤) والأمثال المجعولة لله تعم

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٨.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ١٧.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١١.

حقل العبادة وسواها، وهي أهمها ضلالاً، وأعمها إضلالا، ثم و﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تعم الجاعلين والأنداد المجعولة، فإنهن يضللن كالداعين إليهن: ﴿... وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ...﴾[1].

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ بكفركم وجعل الأنداد، تمتعوا قليلاً ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾:

﴿قُل﴾ يا رسول الهدى ﴿لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ والوصف دليل أن غير المؤمنين أيضاً عباد الله مهما تخلفوا عن كونهم عباداً لله في كيانهم المختار، فإنهم في أصل كونهم عبادٌ ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾[2].. إذاً فإفراد ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالأمر لانفرادهم بالانتماء دون الكافرين المتعنتين.

وترى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لا يقيمون الصلاة ولا ينفقون حتى يؤمروا بهما وهما من أصول لزامات الإيمان عملياً؟ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تعم كل من آمن ومنهم من لا يصلي، ومنهم من يصلي ولا يقيمها، ثم المقيمون لها قد يقيمونها في أجزائها وشروطها الظاهرية دون الباطنية الروحية، والمقيمون لها تماماً يؤمرون باستمراريتها وتكاملها، وهكذا في الإنفاق، فالآية في شطر من مضمونها كمثل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[3] أمراً بمزيد الإيمان قلبياً وعملياً.

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٣٥، ٣٦.
(٢) سورة مريم، الآيات: ٩٣-٩٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

أجل وإن من أصول لزامات الإيمان إقامُ الصلاة والإنفاق مما رزقوا ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾(١) فالإخفاء خير للمنفقين ابتعاداً عن الرئاء، والإبداء خير للكتلة المؤمنة لكي يجعلوا الإنفاق سنة متظاهرة لتُتبَّع ثم وفي إنفاق السر تصان كرامة الآخذين ومروءة المنفقين، فلا يكون تفاخراً وتظاهراً ومباهاة، وفي العلانية إعلان بطاعة الله في واجب الإنفاق ومندوبه، وكلٌّ متروك لحساسية الضمير ومقدرة الأحوال.

أم إنه سرٌّ في مندوبه وعلانية في مفروضه، حيث الرئاء قد لا تتأتى - بطبيعة الحال - إلَّا في خاصة الأحوال ندباً دون عامتها فرضاً.

﴿يُقِيمُواْ... وَيُنفِقُواْ... مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ...﴾ هو يوم الموت إذ ينقطع التكليف، ف ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ ليشتري ثواباً، إذ لا مال هناك إلا التقوى ولاتباع، وإنما تظهر ثواباً وفاقاً، ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ ولا خلة ولا شفاعة، إلا خلال التقوى وشفاعتها: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢) وخلة التقوى إنما تنفع في شفاعة بشروطها.

و﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ يعم عامة الرزق وخاصته، ما يمكن إنفاقه ويجوز، بين راجح الإنفاق وواجبه حسب مختلف الظروف المؤاتية له، كما وإقام الصلاة يعم مندوبها ومفروضها، وقد تلمح ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ دون «مما عندهم» بأن رزق الله هو الحلال فقط، ولا يجوز الإنفاق إلّا مما رزق الله، وأما الحرام فلا هو من رزق الله ولا يجوز الإنفاق منه ف ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٣).

وكما ﴿هُمْ﴾ تعم الأرواح والأجسام، ف «ما رزقناهم» تعم الأرزاق

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧١.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

الروحية والجسدية متصلة بهم أم منفصلة عنهم، ومن الأرزاق المادية أجزاء من أبدانهم، بالإمكان تحويلها إلى المحاويج، كالدم للجرحى المفتقرين إليه، أم استخدامها في سبيل حوائج المحاويج، كأن تنفعهم قدر المستطاع بطاقاتك البدنية.

ثم وأحرى من الأرزاق المادية هي المعنوية أن تنفعهم بعقلك وعلمك وتدبيرك وخلقك وتقواك لتقوى ما ضعف منهم دون أن تضعف أنت في ذلك الإنفاق.

وترى إذ لا يكون منذ الموت بيع ولا خلال، فكيف تنفع العبادات الاستيجارية تاركيها بعد الموت؟.

أقول: إنها تنفع على شروط وفي ظروف خاصة نفعاً قليلاً، وليس البيع هنا من التاركين لها، وإنما من الوارثين له استيجاراً ومن العاملين إيجاراً، استجابة لدعائهم إن كانت صالحة، ولتفصيل البحث عنه محله الأنسب.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿ٱللَّهُ﴾ مرفوعاً دليل أنه بديل عن ﴿ٱللَّهُ﴾ في ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ...﴾ «ويضل الله ويفعل الله» ثم يلحقه وعلى هامشه ﴿ٱللَّهُ﴾ في ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ...﴾ ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ...﴾ ﴿قُل لِّعِبَادِىَ﴾ تعديداً لنعم ناعمة قائمة في الكون خلقاً وتسخيراً وإيتاءً من كل ما سألتموه، ثم ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ ولا سيما النعمة القمة وهي التثبيت ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ...﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾:

تسخيراً لصالحكم خلقاً منه وسعياً منكم ثم:

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾:

في تعديد هذه النعم السابغة حملة جميلة بسياط الكون النعمة، بسماواته وأرضه وما فيهما وما بينهما، سياط ذات إيقاع ورنين على هذا الإنسان الظلوم الكفار اللعين يختم بدوره الدائر الحائر بتعجيز الإنسان عن إحصاء نعمة الله، فضلاً عن شكرها والحيطة بها.

هذا الكون الهائل الكبير، سخره الله لهذا الإنسان الغافل الصغير، فيا ليته استشعر النعمة وشكرها لصالحه استمراراً صالحاً له، في حياة مشرقة مشرِّفة، ولكن ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾! ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ﴾ أترى السؤال هو بلسان القال أم والحال على أية حال؟ ثم الكل هل يستغرق كل سؤال من كل سائل بلسان قالٍ أم حال؟ وهنالك سائلون كثير لا يستجابون! ﴿مِّن﴾ قد تعني التبعيض، ولأن الأسؤلة المختارة ليست كلها بحق ولصالح السائل أم سواه، فسؤال الحال، المقتضية لرحمة ربانية، مستجاب على أية حال، فـ ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1] هداية إلى قضية الحال وهي من خلقه تعالى.

وأما الأسؤلة المقالية، واقعية أم لفظية، فقد تستجاب حين تتوفر شروطها، وقد لا تستجاب إذ لا تتوفر، أم تستبدل بما لم يسأله وهو قضية الحال، تقديماً لسؤال الحال الصالحة على سؤال القال غير الصالحة.

والسؤال - ككل - يعم من في السماوات والأرض: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[2] [3] ولأن ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.

(٣) راجع الرحمن ٣٠ في الجزء ٢٧ ص ٣٧ - ٤٠ تجد فيه قولاً فصلاً عن ﴿يَسْـَٔلُهُۥ﴾ [الرَّحمٰن: ٢٩].

ٱللَّهِ﴾[1] وسؤال الكائنات من أيّ سؤل كان يبتدىء بسؤال الذات والأفعال والصفات، ثم ما تقتضيه الحال ثم المقال، وبصيغة أخرى هي أحرى: الكون كله سؤلٌ وسؤال عن المكون القدير المتعال، حاجة ذاتية، وتعلقة حقيقية جوهرية لا ينفصل عنها ولا تنفصل عنه، فالسؤال الذاتي هو لزام الذات على أية حال، والسؤال الحالي هو ما تقتضيه الحال من كل هدى تقتضيه حال الكائن، فهما مستجابان دونما استثناء، حيث الأوّل قضية الفقر الذاتي والثاني قضية الحاجة الحيوية، وأما سؤال القال فهو مستجاب إذا اقتضت الحال.

و﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ هنا هي جنس النعمة الشامل لكل نعمة كمجموعة، فلا حدَّ لنعمة الله حتى تحد وتحصى، ونفس العدِّ كذلك نعمة فكيف لك عدها وحدها، فنحن غارقون - إذاً - في نعمت الله، ولكننا في الأكثر نظلمها ونكفر بها ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ - ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2] فلنعترف بالتقصير عن إحصاء نعمة الله بعدما نعرفها، فـ «سبحان من لم يجعل في أحد من معرفة نعمة إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها، كما لم يجعل في أحد من معرفة إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدركه، فشكر جل وعز معرفة العارفين بالتقصير عن معرفة شكره، فجعل معرفتهم بالتقصير شكراً، كما علم علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله إيماناً، علماً منه أنه وسع العباد فلا يتجاوز ذلك، فإن شيئاً من خلقه لا يبلغ مدى عبادته وكيف يبلغ مدى عبادته من لا مدى له ولا كيف، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً»[3].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨٣.

(٣) نور الثقلين ٢: ٥٤٥ في روضة الكافي علي بن محمد عن بعض أصحابه رفعه قال كان علي بن الحسين عليه السلام إذا قرأ هذه الآية: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] يقول: . . .

وهنا التعقيب ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وفي النحل ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] مما يبشر هذا الإنسان الظلوم الكفار بغفر من الله ورحمة لو أن تنبه وأناب إلى الله.



(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٨.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

آيات سبع تختصر في دعاء إبراهيم الخليل كل ما سأل في منحدر عمره وخاتمة أمره، إنسان ذاكر شاكرٌ لنعمة الله، يدعو ربه في بيته العتيق، بمشهد خاشع يظلِّله الشكر وتشيع فيه الضراعة ويتجاوب فيه الدعاء في نعمة رخية تتموج ذاهبة إلى السماء: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا...﴾ مما يلمح بكون مكة بلداً حينذاك، وترى كيف يكون واد غير ذي زرع بلداً ولم يعمَّر بعد؟ علّه لأنه أم القرى مهما كان وقتئذٍ وادياً غير ذي زرع، فهو بلد قبل عماره وبعده، قبل بناء البيت وبعده، ولكنه قبل بناء البيت يدعو له كأنه ليس بلداً: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ

ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾(١) وقد يعني جعل الأمن فيه حال كونه بلداً حيث الجعل مركب يكفيه ﴿ءَامِنًا﴾ أمراً حديثاً ولم يكن من ذي قبل.

وقد يلمح اختلاف الدعاءين في عديد من بنودهما أنهما في ظرفين، مهما اشتركا في جهات أخرى فمن ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ في إبراهيم نعرف أنها السفرة الأولى الإبراهيمية حين أخذ إليه إسماعيل الرضيع وأمه.

ومن ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ في البقرة نعرف أنها الأخرى حين كبر إسماعيل لحد إمكانية المساعدة معه لرفع القواعد من البيت، فـ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ هي دعاؤه قبل بناء البيت بسنين، ولا أقل من عشر أم زاد، فهل إنه كان بلداً حينذاك ولم يكن بعده بسنين بلداً حيث الأول ﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ والآخر ﴿هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾(٢)؟.

إنه في الأول كان بلداً واقعياً مهما كان وادياً غير ذي زرع، أم في الحق بلداً لأنه يحمل مطاف الموحدين، وهو في المستقبل عاصمة الرسالة الاسلامية، ثم هو في الثاني كما الأول أم زاد، ولا ينافيه ﴿هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ حيث المشار إليه هو البلد، والجعل هنا لثاني المفعولين أن يجعله آمناً دون أصل البلد.

ثم دعاؤه هنا تقسم إلى قسمين بينهما لأقل تقدير عشر سنين، فـ ﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ...﴾ هي في سفرته الأولى ومعه إسماعيل الرضيع، ثم ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ...﴾ هي بعد مبلغ إسماعيل الحلم لحد يساعده في رفع القواعد،

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٢٦-١٢٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

وفي قوله ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ...﴾ لمحة أنه لم يولد بعدُ إسحاق وإلا كان ضمن ما يدعو.

وترى ﴿ءَامِنًا﴾ في تلك الدعاء تعني الأمن تكويناً؟ وقد نرى خلافه طول تاريخه كما لم يأمن فيه الرسول ﷺ حيث ضُرب وهتك وحوصر وأحرج حتى أُخرج، لحدٍّ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾[1] حيث استحلت حرمته في هذا البلد، كما والحسين عليه السلام خرج منه خائفاً يترقب، ولحد الآن لا نرى أمناً واقعياً فيه حيث السلطات المسيطرة فيه لا تبقي ولا تذر حرية للحجاج والمعتمرين وسائر الوافدين، حتى في تطبيق واجباتهم حسب مذاهبهم الإسلامية، كما وقد هدم البيت وأحرق خلال التاريخ الإسلامي فضلاً عما قبله، فأين - إذاً - أمنه تكويناً؟.

أم أمناً تشريعياً؟ وهو يعم طول الزمان وعرض المكان إن شرع الله الأمن في تشاريعه كلها، وشرعة الله مؤمِّنة كلُّها.

أم إنه أمن زائد على سائر البلاد؟ وكذلك هو آمن كما نراه في محرمات الإحرام وسائر مناسك الحج والعمرة، وفي غيرهما للوافدين والقاطنين، فلذلك يختص بأنه بلد آمن ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[2] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾[3] ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[4] ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾[5].

هذا - ومن مخلفات هوي الأفئدة والثمرات إليه طائف من الأمن

---

(١) سورة البلد، الآيتان: ١، ٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٧.
(٤) سورة القصص، الآية: ٥٧.
(٥) سورة سبأ، الآية: ١٨.

تكويناً، فقد جمع فيه الأمنان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(١)! ثم الأمن هذا يعم أمن الروح والجسم عن كل ما يصيبهما، ومن ذلك الأمن عن عبادة الأصنام وكما حصل منذ الهجرة إلى المدينة، وكذلك الأمن عن العذاب وكما هو حاصل منذ تكونها حتى الآن وإلى يوم القيامة.

﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ...﴾ ﴿وَبَنِيَّ﴾ قد تجمع كل الأنسال الناسلة من إبراهيم يوم دعى وإلى يوم الدين، وكيف يدعو ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ وهذه المجانبة هي من التكاليف المختارة للعالمين؟ لأنها بدوامها وكمالها بين محاولة بشرية حسب المستطاع، وبين توفيق رباني لولاه لكانت الحواجز الآفاقية والأنفسية تعرقل دون تحقيقها أم ثباتها وتكاملها، لذلك يتطلب من الله أن يجنبه وبنيه بعدما اجتنبوا وكما نقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾(٢).

وهل استجيب في بنيه كلهم؟ طبعاً لا، إلّا من آمن منهم، وكما دعى ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣) فليس جَنب تسييراً على مجانبة عبادة الأصنام، بل توفيقاً لمن آمن، فإن الخير كله بيديه والشر ليس إليه.

ولماذا ﴿وَبَنِيَّ﴾ دون من آمن ككل؟ إنه تطبيق لأمر الله: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾(٤) وقايةً بدعاء بعد وقاية بسائر السعي، ومن ثم سائر المؤمنين ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ﴾(٥) وقد تعني ﴿وَبَنِيَّ﴾ ولد إبراهيم وإسماعيل وإسحاق.

ولماذا ﴿وَبَنِيَّ﴾ بعد ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ دون المؤمنين أجمع، أو من بنيه، أو الناس أجمعين؟.. إنه تطبيق لترتيب التربية في الدعوة كما قال الله: ﴿قُوٓاْ

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.
(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.
(٤) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

﴿أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[١] ابتداء بنفس الداعية في بعدي التحقيق والدعاء للمزيد، ثم الأقرباء والأنسباء، ثم سائر الناس.

وقد يعني من ﴿وَبَنِيَّ﴾ الأنبياء من ذريته كإسماعيل وإسحاق وذريتهما، وكما تلمح له ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[٢] إسلاماً لهم كما لهما، أم وفوقه كما في محمد ﷺ وعترته المعصومين عليهم السلام.

ولماذا ﴿ٱلْأَصْنَامَ﴾ فقط وعبادة الطواغيت أشر وأطغى؟ لأنها أعم حيث يعبدها المستضعفون المضلَّلون بطواغيتهم الدعاة إليها مهما كانوا هم معبودين لهم كوساط في تلك العبادة.

ففرعون نفسه ونمرود وأضرابهما كانوا يعبدون أصناماً كما كانوا يُعبدون، فالأصنام أشمل صيغة تعمُّ كل معبود سوى الله، هكذا، أم وهي أعم من أدناها النفس الأمارة بالسوء، وأعلاها الطواغيت، وهذا المثلث هو الأصنام مهما اختلفت دركاتها، كما وأن عبادة الله - أيضاً - درجات.

ولماذا ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ ضماً لنفسه في بنيه وهو مصون بالعصمة الإلهية عما دون ذلك فضلاً عن عبادة الأصنام؟ إنه طلب للثبات على شرعة التوحيد، كما يطلب الرسول ﷺ ضمن سائر المكلفين ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

ودرجات ذلك الجنب تختلف حسب درجات المجنبين كدرجات الهداية الإلهية حسب المهتدين.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾:

نسبة الإضلال إلى الأصنام وهي لا تعقل لأنها مادة الضلال، وهو بين

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

زوايا ثلاث ثانيتها المضَلَّل نفسه حيث يتقبل الضلال، وثالثتها المضلل حيث يدعو إلى الضلال، فيصح نسبة الإضلال إلى كل واحدة منها كما إليها كلِّها، وقد ينسب إلى الله حين لا يمنع عن الضلال تسييراً أم توفيقاً ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾(١) فلولا مادة الضلال لم يكن هنالك دور لضال ولا لإضلال، ولولا تقبّل للضلال فلا دور للآخرين، كما لولا المضلِّل فلا دور لمادة الضلال وتقبّله اللهم إلا قليلاً في هذا الأخير.

كما إن الله لو منع أياً من هذه الثلاث لم يوجد هناك ضلال، فنسبة المضل إلى أيٍّ من هذه الثلاث وحتى إلى الله، صالحة، بفارق أنه من الله عدل، ومن المضلِّل والمضلَّل ظلم، وفي مادة الضلال كالأصنام لا عدل ولا ظلم إلا إذا كان هو المضلِّل نفسه، فمادة الضلال ﴿ٱلْأَصْنَامَ﴾ تضل، كما الضال يُضل نفسه بتقبل الضلال، والمضلّل يضلله بدعايته، والله يضله بعدما ضل حيث يتقبل، وعند ما ضل حيث لا يحول بينهما.

ثم ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ يعم اتباعه في أصل التوحيد وسائر الشرعة الإلهية عقيدية وعلمية وتطبيقية، مهما كان متابعوه في مثلثة المنازل، ممن هو فوقه كالرسول محمد ﷺ أم مثله كسائر أولي العزم، أم دونه كسائر النبيين والمرسلين وسائر المؤمنين، وهم كلهم أولى الناس به:

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾(٢) فقد يعني ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ أمثاله في ولاية العزم، أم أصحاب المنازل الثلاثة كلهم تعميماً قبل تخصيص، وعلّه أولى، مهما كانت متابعة هذا النبي في أصل السلوك والمسلك لا في رتبته وكما في «الذين آمنوا» فقد يعم ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ متابعيه من ولده وسواهم ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ وإن بعدت لحمته، كما ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ يعم العصاة من ولده وسواهم - فليس مني - وإن قربت لحمته.

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.

إذاً فـ ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ يعم كافة العصاة لشرعة الله، المجانبين سلوكه ومسلكه، سواءً أكانوا ملحدين أو مشركين، أم موحدين عصاة متخلفين عن عملية الإيمان كلّاً أو بعضاً، وبذلك تنحل المشكلة العويصة في ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ - ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1] ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ... مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ...﴾[2].

فإن الاستغفار لأصحاب الجحيم محرم في شرعة الله ولا سيما للمشركين، فكيف يرجو إبراهيم لمن عصاه وأشرك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ غلطة ذات بعدين ثانيهما التحقق من غفر الله ورحمته؟.

والجواب إن ﴿عَصَانِي﴾ يعم كل عصيان وقد يستثنى الإشراك بالله ممن مات مشركاً، وأما العصاة في غير الإلحاد والإشراك، أم المشركون التائبون ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مهما كانت هنالك شروط، وهنا الخليل الحنون تبدو سمته العطوفة حين لا يطلب الهلاك لمن عصاه من نسله وسواه، فلا يستعجل لهم العذاب بل ولا يذكر العذاب، وإنما يكلهم إلى غفران الله ورحمته، ويلقي على الجو ظلال الرحمة والمغفرة، حيث يتوارى ظل المعصية!.

فبرحمته يهدي من ضل منهم إن شاؤوا، وبغفره يغفر العصاة من المهديين وسواهم، كمن أشرك ثم تاب.

هنا ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ يفصل بينه وبين كافة العصاة مهما كانوا من ولده الأقربين، فليسوا - إذاً - من أهله، كما هناك ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ تجعل

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ١١٣، ١١٤.

كافة المؤمنين من أهله، فإنما هي آصرة التقوى آهلة لتجعل أهلها أهلاً، والطغوى قاحلة مستأصلة لكل أهل عن أهليته: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾[1] ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾[2].

فمواصلة التقوى لا تعرف وتميِّز قريب اللُّحمة عن بعيدها، كما مفاصلة الطغوى لا تفرق بين قريبها وبعيدها وكما يروى عن رسول الهدى محمد ﷺ «إن ولي محمد من والى الله ورسوله وإن بعدت لُحمته وإن عدو محمد من عادى الله ورسوله وإن قربت لحمته» فلا يصدَّق ما اختُلق عليه «الصالحون لله والطالحون لي».

هنالك بين الناس ناس وأشباه ناس ونسناس، فالمعصومون - على درجاتهم - هم الناس وأشياعهم هم أشباه الناس، وسائر الناس هم نسناس، وقد شملت الآية الطوائف الثلاث[3].

(١) سورة هود، الآية: ٤٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٢٧.

(٣) نور الثقلين ٢: ٥٤٧ في روضة الكافي ابن محبوب عن عبد الدين غالب عن أبي عن سعيد بن الميت قال سمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول: إن رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أخبرني إن كنت عالماً عن الناس وعن أشباه الناس وعن النسناس فقال أمير المؤمنين عليه السلام: يا حسين أجب الرجل فقال الحسين عليه السلام: أما قولك أشباه الناس فهم شيعتنا وهم موالينا وهم منا ولذلك قال ابراهيم عليه السلام: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ...﴾ [إبراهيم: ٣٦]. أقول وفي حديث آخر سأله عليه السلام رجل عن الناس فقال للحسن عليه السلام أجبه فقال: نحن الناس وشيعتنا أشباه الناس وسائر الناس نسناس ثم أقول: وهذا التقسيم الثلاثي يستفاد من كلام الحسين عليه السلام مهما كان ظاهر الجواب عن أشباه الناس، فالناس - إذاً - هم الناس، وسائر الناس لا ناس ولا أشباه ناس، فهم - إذاً - نسناس. وفيه عن أمالي الطوسي بإسناده إلى عمر بن يزيد قال أبو عبد الله عليه السلام: يا بن يزيد أنت والله من أهل البيت، قلت: جعلت فداك من آل محمد ﷺ؟ قال: إي والله من أنفسهم، قلت: من أنفسهم جعلت فداك؟ قال: إي والله من أنفسهم يا عمر أما تقرأ كتاب الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨] أو ما تقرأ قول الله عز اسمه: =

﴿رَّبَّنَا إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾:

﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ هو إسماعيل وأمه، فقد تدخل الزوجة في نطاق الذرية اعتباراً بالتبعية، كما و﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هنا تدل عليه، حيث لم تكن له هناك من ذرية الولادة إلّا إسماعيل عليه السلام.

و﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ...﴾ عرض له بتطبيق ما أمر به، استعطافاً بجماع الصفات من ربوبيته ﴿رَّبَّنَآ﴾ حين يرى وادياً غير ذي زرع، وذلك عند انصرافه بعد إسكانهم «لما بلغ كدى وهو جبل بذي طوى...»[1].

= ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٣٦] أقول وقد تظافرت الروايات في هذا المعنى عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة أهل بيته عليهم السلام.

(١) نور الثقلين ٢: ٥٤٨ - القمي حدثني أبي عن النضر بن سويد عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن إبراهيم عليه السلام كان نازلاً في بادية الشام فلما ولد له من هاجر إسماعيل اغتمت سارة من ذلك غماً شديداً لأنه لم يكن له منها ولد وكانت تؤذي إبراهيم في هاجر وتغمه فشكا إبراهيم عليه السلام ذلك إلى الله عزّ وجلّ فأوحى الله إليه: إنما مثل المرأة مثل الضلع العوجاء إن تركتها استمتعت بها وإن أقمتها كسرتها. ثم أمره أن يخرج إسماعيل وأمه عنها فقال: يا رب إلى أي مكان؟ قال: إلى حرمي وأمني وأوّل بقعة خلقتها من الأرض وهي مكة فأنزل الله عليه جبرئيل عليه السلام بالبراق فحمل هاجر وإسماعيل وإبراهيم عليه السلام عليها وكان إبراهيم لا يمر بموضع حسن فيه شجر ونخل وزرع إلا وقال: يا جبرئيل إلى هاهنا إلى هاهنا؟ فيقول جبرئيل: لا - امض امض حتى وافى مكة فوضعه في موضع البيت وقد كان إبراهيم عاهد سارة ألّا ينزل حتى يرجع إليها فلما نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجرة فألقت هاجر على ذلك الشجر كساء كان معها فاستظلوا تحته فلما سرحهم إبراهيم ووضعهم وأراد الانصراف عنهم إلى سارة قالت له هاجر: يا إبراهيم لِمَ تدعنا في موضع ليس به أنيس ولا ماء ولا زرع فقال إبراهيم: الله الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان حاضر عليكم ثم انصرف فلما بلغ كدى.. فقال: ربنا...». وفيه عن الفضل بن موسى الكاتب عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال: إن إبراهيم عليه السلام لما أسكن إسماعيل وهاجر مكة ودعها لينصرف عنها بكيا فقال لهما إبراهيم: ما يبكيكما فقد خلفتكما في أحب الأرض إلى الله في حرم الله؟ فقالت له هاجر: يا إبراهيم ما كنت أرى أن نبياً مثلك يفعل ما فعلت - قال: وما فعلت؟=

﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ وبطبيعة الحال ولا ضرع لأنه غير ذي زرع، لعدم ظهور الماء، وتوفر الرمال والصخرات، فلا يصلح - إذاً - لزرع أو ضرع، ويطبيعة الحال لا يهوي إليه الناس، وعلى أية حال ﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ. . .﴾ بأمرك على إمره.

﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ محرماً في تملُّكه لغير الله فإنه بيت عتيق، فمحرماً لحرمة التعرض له والتهاون به، وكما جَعل مِن حوله حرماً شاسعاً حفاظاً على مكانته وحرمته، حمى يحومه، ومحرماً لم يزل منذ خلق الله الأرض، عزيزاً ممتنعاً متمنعاً يهابه كل جبار وكما امتنع من طوفان نوح ومن أصحاب الفيل حيث جعل كيدهم في تضليل، ومحرماً على زائريه الوافدين أو القاطنين فيه ما لا يحرم على سواهم في سلوب من الإحرام ومحرماته، ومحرماً قتل اللاجئين إليه والقتال عنده إلا إذا اقتضت الضرورة.

﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فإنه قبلة المصلين، والمحور الرئيسي لإقام الصلاة، وهو أوّل بيت وضع للناس مباركاً وهدى للعالمين.

وفي إقام الصلاة كما يحق إقامٌ للدين كله، وقد ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[1] قياماً في كل ما تتطلبه شرعة الله، في صلاةٍ كعبادة

= قالت: إنك خلفت امرأة ضعيفة وغلاماً ضعيفاً لا حيلة لهما بلا أنيس من بشر ولا ماء يظهر ولا زرع قد بلغ ولا ضرع يحلب! قال: فرقّ إبراهيم ودمعت عيناه عندما سمع منهما فأقبل حتى انتهى إلى باب بيت الله الحرام فأخذ بعضادتي الكعبة ثم قال: اللهم ﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى. . .﴾ [إبراهيم: ٣٧] قال أبو الحسن عليه السلام: فأوحى الله إلى إبراهيم: أن اصعد أبا قبيس فناد في الناس: يا معشر الخلائق إن الله يأمركم بحج هذا البيت الذي بمكة محرماً من استطاع إليه سبيلاً فريضة من الله، فمد الله لإبراهيم في صوته حتى أسمع به أهل المشرق والمغرب وما بينهما من جميع ما قدر الله وقضى في أصلاب الرجال من النطق وجميع ما قدر الله وقضى في أرحام النساء إلى يوم القيامة فهناك يا فضل وجب الحج على جميع الخلائق والتلبية من الحاج في أيام الحاج هي إجابة لنداء إبراهيم عليه السلام يومئذ بالحج عن الله.

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٧.

وفي صِلات في ذلك الجم الغفير والجمع الوفير بتلك الصور الوضاءة الجامعة للمسلمين المستطيعين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله.

فـ ﴿لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ليست لتختص بالصلاة كصلة فردية بين العبد والمعبود، بل وكافة الصلات في كافة الحاجيات الإسلامية القائمة بين المصلين في مناسك الحج والعمرة، العبادية السياسية الحركية، دون انعزالية في تقشف عبادي جاف، تفكيكاً للدين عن السياسة وللسياسة عن الدين، في حين أن الدين هو السياسة والسياسة الصالحة هي الدين دون فكاك إلّا بافتكاك الدين عن حالته القيادية.

ثم إن إقام الصلاة عند البيت المحرم - وهو قبلة المصلين، ومولد الوحي ومهبطه، وعاصمة الرسالة القدسية الأخيرة - إن ذلك يجعل مكان البيت أسوة للمؤتسين وقدوة للمقتدين، فإقام الصلاة فيها أقوم من غيرها إقاماً لها بين جموع المسلمين.

﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ والهوي هو النزول من علٍ إلى انخفاض كالهبوط، مبالغة في صفة الأفئِدة - وهي هنا القلوب المتفئدة بنور الهدى - مبالغة بالنزوع إلى المقيمين بذلك المكان، فالهوي - إذاً - هو انزعاج الهاوي من مستقره إلى ذلك المكان لمكانته.

وقد جعل الله أفئِدة من الناس تهوي إليهم، من استطاع منهم إليه سبيلاً ومن لم يستطع هوياً في بعدي التكوين والتشريع، فمن لا يستطيع يهواه كمن يستطيع.

وانما ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ دون «أفئدة الناس» ليحور على محوره كل الناس؟ لأن من الناس نسناس، ففي هوي أفئدتهم إليه هويه عن موقفه، وزوال لأمنه، وإطاحة بكرامته، و﴿ٱلنَّاسِ﴾ هنا هم المسلمون المستطيعون

فرضاً ونفلاً: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(١).

«أما أنه لم يعن الناس كلهم، أنتم أولئك ونظراءكم»(٢).

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ومن أهمها «ثمرات القلوب»(٣) ثم وسائر الثمرات «حيث تحمل إليهم من الآفاق وقد استجاب الله له حتى لا يوجد في بلاد الشرق والغرب ثمرة لا توجد فيها حتى حكي أنه يوجد فيها في يوم واحد فواكه ربيعية وصيفية وخريفية وشتائية»(٤).

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الأمن وهويَّ الأفئدة ورزقَ الثمرات، ﴿يَشْكُرُونَ﴾ في ذلك البلد الآمن وسواه، وقد نرى في ذلك التعبير العبير رفرفة ورقة تصوُّر القلوب رفافة مجنحة، وهي تهوي إلى البلد الآمن وأهله حيث تهواه، في ذلك الوادي الجدب اليابس، حيث يندّى برقة القلوب ورفرفتها.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾:

هنا ﴿مَا نُخْفِى﴾ يعني عن أمثالنا، ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾ لأمثالنا، فكل ذلك لك عَلَن، وبصيغة سائغة عامة ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ دون «شيءٌ» إذ قد يُعلم شيءٌ ويخفى منه شيءٌ، فـ ﴿مِن شَىْءٍ﴾ يستأصل في هذا السلب ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ كل شيءٍ بكل شيئه وكافة جوانبه ونواهيه في أي زمان أو مكان وأياً

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٧.

(٢) نور الثقلين ٢: ٥٥١ في تفسير العياشي عن أبي جعفر عليه السلام ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] أما أنه.. وإنما مثلكم في الناس مثل الشعرة البيضاء في الثور الأسود..

(٣) المصدر في عوالي اللآلي قال الصادق عليه السلام في تفسير الآية هو ثمرات القلوب.

(٤) المصدر عن العوالي وقال الباقر عليه السلام إن الثمرات.. أقول: علّ حتى حكى - إلى - شتائية، من كلام الراوي فإن الإمام لا يحتاج في أمثال هذه الأمور البسيطة إلى النقل وهو يشهد الحرمين سنوياً أكثر من غيره.

كان ﴿وَمَا يَخْفَىٰ... فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ولأن الأرض والسماء هما عبارة أخرى عن الكون كله، فذلك حيطة مستغرقة للكون كله.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾:

﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ في البداية كانت في طفولة إسماعيل عليه السلام و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ...﴾ هي في رجولته وقد رزق بعده إسحاق، فبين الدعاءين بون بين الطفولة والرجولة، وكما بين ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ و﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ...﴾[1] وكذلك البون - علّه - بين ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾[2] إنه حين أسكن من ذريته فيه، وبين ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾.

هنا ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ تلمح أنه سأله تعالى أن يهب له ذرية فوهبه، وهِبَة الذرية على الكبر وتقضّي العُمر وقضاء الأمر إنه أوقع في النفس، فإنها امتدادٌ، وما أجل الإنعام بها عند شعور الإنسان بقرب الأجل، ولكن إذا كانت ذرية طيبة، ولذلك يشفِّع دعاءَه بإصلاح ذريته بعد إصلاحه نفسه.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾:

أو لم يكن شيخ الأنبياء وإمام المرسلين مقيم الصلاة، حتى يتطلب في منحدر عمره ونهاية أمره ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؟ أجل، ولكنه يتقاضى إقام الصلاة في قمة الإسلام والتسليم وكما في شطر آخر من دعائه: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ...﴾[3].

دعاءٌ بارع، ضارع خاشع، يضم فيه إلى نفسه ﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾ إذ يرى أن

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

كل ذريته لا يستأهلونه، وما ألطفه إقام الصلاة وأعطفه، حيث تضم في جنباته كل مدارج التسليم لرب العالمين، ولأن البيت محطُّ إقام الصلاة، فيه ومن كل فج عميق، حيث يقيمون وجوههم شطر المسجد الحرام، وفي إقام الصلاة إقامٌ لكافة الصِّلات بين العبد وربه وسائر العباد.

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾:

أترى ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ محرف عن «لولدي إسماعيل وإسحاق»[1]؟ أم هما «آدم وحوا»[2] فإن أباه آذر كان مشركاً ومات مشركاً فهو من أصحاب الجحيم، و﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ...﴾[3] أفبعد ما تبرأ منه وبعد كبره وتكامله في محتد النبوة يكذب ربه في ﴿تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ فيدعو له في ختام دعواته؟.

ولكن «والدي» ليست لتخص آدم وحوا وله آباء وأمهات منذ والديه إليهما هم كلهم مؤمنون! ومنهم مَن هم أفضل منهما كنوح عليه السلام.

و«ولدي» تخريج فيه تهريج وتحريج لموقف القرآن ذوداً عن موقف

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٥٥٢ عن المجمع وقرأ الحسين بن علي وأبو جعفر محمد بن علي «ولولدي». وعن العياشي عن أحدهما مثله بإضافة يعني إسماعيل وإسحاق وفيه عن جابر قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [إبراهيم: ٤١] قال: هذه كلمة صحفها الكتاب، إنما كان استغفاره لأبيه عن موعدة وعدها إياه وإنما كان ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [إبراهيم: ٤١] يعني إسماعيل وإسحاق، والحسن والحسين والله ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أقول وهذه فرية جاهلة قاحلة على الإمامين عليهما السلام وليست إلّا من خلفيات جهالات من رواتها، إذ لم يعرفوا المعني من «والدي» ولم يمعنوا النظر في هذه الآيات.

(٢) المصدر عن العياشي عمن ذكره عن أحدهما عليهما السلام أنه قرأ ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ قال: آدم وحوا، أقول والتعارض بين الروايتين في لفظ الآية دليل قصور الفهم عن معناها.

(٣) سورة التوبة، الآيتان: ١١٣، ١١٤.

إبراهيم دون تأمل في مغزى الآية! وتهريج موقف القرآن أهرج وأحرج من تهريج إبراهيم القرآن! ثم الوالد أخص من الأب، فإنه يعمه والجد للأم، والعم، والوالد يخص من ولّدك، فقد كان - إذاً - والده غير أبيه، صيانة للعصمة الإبراهيمية وأحرى منها العصمة الإلهية عن صراح الكذب: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ فلم يستغفر له بعد، أفبعد ذلك بردح كبير من الزمن يستغفر له؟.

ولماذا يُطلب الغفر - فقط - يوم يقوم الحساب، وموقفه الأحرى قبل يوم الحساب، يوم الدنيا أم في البرزخ؟ علّه لأنه أحرج المواقف وأحوجها إلى الغفر، ثم وقد يُغفر يوم الدنيا ثم يرجع المغفور له مذنباً، أم يغفر في البرزخ مؤقتاً، لأنه ليس موقف العذاب الفصل، ثم يعذب يوم الحساب أم يغفر له، إذاً فهامة الغفر وعامته هي ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾.

أم إن «يَوْمِ الْحِسابِ» يشمل يومي البرزخ والمعاد مهما اختلف حساب عن حساب.



﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾:

قد يحسب الجاهل بالله وبيوم الله أن الله غافل عما يعمل الظالمون حيث لا يجازيهم يوم الدنيا، وليس الخطاب هنا لخصوص الرسول ﷺ بل

لعامة المكلفين على الأبدال، مَن بالإمكان أن يتطرق إلى خلده ذلك الحسبان، فهو بالنسبة للرسول ﷺ ومن حذى حذوه تأكيدٌ على سلبية الحسبان الكائنة فيهم، ولأن الغفلة هي التجاهل والتساهي بعد العلم والقدرة، فسلبها إثبات لهما كما يثبت حضور العلم والقدرة، فالنص ﴿غَٰفِلًا﴾ وليس «عاجزاً» أو «جاهلاً» أم «ظالماً» على علم وقدرة، وإنما ﴿غَٰفِلًا﴾ كأقل ما قد يحسبه الجاهلون بجنب الله، إنه على علمه وقدرته وعدله ورحمته، كأنه غافل عما يعمل الظالمون! وذلك عجزٌ في القدرة، ونقص في الحيطة العلمية.

وترك مجازات الظالمين هنا - على قدرته تعالى وعلمه وعدله ورحمته وعدم غفلته - هو من الأدلة القاطعة على أن هناك بعد الدنيا يوماً للجزاء ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ في مواصفات حاذرة لذلك اليوم، هي تعزية للمظلوم ووعيد للظالم.

وشخوص الأبصار هو سكونها من شديد الهول، محدقة إليه دون حراك، وناظرة نظر المغشي عليه من الموت، تراه ميتاً وما هو بميت، وهذه حالة الظالمين يوم الحساب.

﴿مُهْطِعِينَ﴾: مصوِّبين أعناقهم ورافعين ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ ورافعيها ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لهول الموقف، فهم في ثالوث الشخوص، أبصارهم بطرفها والرؤوس ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ هاوية خاوية كأن لا أفئدة لهم إلّا هباءً.

فالأفئدة الهواء هي الخالية من عزائم الصبر والجَلدَ، لعظيم الإشفاق والوجل، فقد يسمى الجبان يراعةً جوفاء، كأن ليس بين جوانحه فؤاد، حيث القلب هو محل الشجاعة، وإذ لا شجاعة فلا قلب ولماذا هنا «الأفئدة» دون «القلوب»؟ لأن الفؤاد هو القلب المتفئِد إما بنور الهدى المعرفة حيث تنير الدرب على الضالة كفؤاد الرسول ﷺ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ

مَا رَأَىٰٓ﴾[(١)] أم بنار الردى والجهالة حيث تحرق من تمسه: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾[(٢)].

فأفئدتهم هذه، المتسعرة بسعير المظلمات، سوف تخمد حين يرون العذاب، وتهوى هباءً كأنها تخرج منهم فهم ميتون.

فالسرعة المهرولة المدفوعة، في الهيئة الشاخصة المشدودة، مع القلب الفارغ الهواء، الخواء الهارع، الفارغ من كل وعي وتصميم، وكل ذلك تشي بالهول الذي تشخص فيه الأبصار، وهذه مسيرة ومصيرة الظالمين، انتصاراً للمظلومين، إلّا من ساعدوهم في ظلمهم، وساندوهم في تطاولهم على سائر المستضعفين، فإنهم - أيضاً - في عداد الظالمين مهما كانوا في عديد المظلومين ولا يظلمون فتيلاً.

وهنا ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فقط دون «الكافرون» لأن الظلم هو أنحس كفر وأتعسه.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۝٤٤﴾:

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ كبداية هو يوم عذاب الاستئصال، أم الموت البادئ فيه العذاب ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾[(٣)].

أم كعذاب بعد البرزخ وهم صالو النار: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا

---

(١) سورة النجم، الآية: ١١.
(٢) سورة الهمزة، الآيتان: ٦، ٧.
(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾(١).

ولكن ﴿أَخِّرْنَآ﴾ قد تلمح إلى بادرة العذاب يوم الموت، أو العذاب الذي يستأصل الظالمين، فهو - إذاً - الزاوية الأولى من ثالوث العذاب، الذي يهدد الظالمين قبل يوم الموت ويوم الدين ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ولمّا يغشاهم العذاب ويهلكهم - ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ في عذابنا المستأصل ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ غير بعيد، ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ الصارخة في فِطَرنا وعقولنا، ثم على ضوئها ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ فإذا هم بالجواب الحاسم القاصم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟...﴾ وقد يشبهه ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٢) مهما اختلف الموقفان في الإفراد هنا والجمع هناك وفي غير ذلك مما هناك.

وقد تعني ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ كل هذه الأيام، يوم الرجعة ويوم الموت بعذاب استئصال وسواه، ويوم القيامة، حيث تتحملها الآية، مهما اختلفت في الأصالة المعنية وسواها.

والواو هنا يعطف إلى محذوف معروف كالذي في الفاطر ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم...﴾(٣): فهنا ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم...﴾ ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟﴾ كما هناك ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟...﴾ ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾، والذي في «المؤمنون»: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا...﴾ فهنا وهناك ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ...﴾ ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم...﴾ ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟...﴾، والذي في السجدة جواباً عن ﴿... رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ١٠.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

فَأَرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ...﴾[١] ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ...﴾[٢].

وهنا ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ كأنحس وأتعس ما كانوا يتقولون: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[٣] أقسمتم ما لكم من زوال من هذه الحياة إلى حياة أخرى، وإنما هو موت الفوت.

أو ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ في القوة والمال والحال على أية حال، فليس العذاب المهدد به بالذي يزيلنا: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾[٤] فقد جاءكم ما أقسمتم من عذاب الاستئصال.

وقد تلمح ﴿ٱلنَّاسَ﴾ بإطلاقه، كـ ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في تحتُّم ذلك المستقبل، إنه العذاب الآتي للكلِّ، الجامع المكافح لكافة القوات البشرية، فعلّه يوم قيام القائم من آل محمد ﷺ فإنه عذاب على الظالمين، ورحمة للصالحين.

فـ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ هم كل الأمم الرسالية، وكما تلمح له ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾، وذلك العذاب هو الأدنى حيث يأتيهم يوم الدنيا: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٥] وطبعاً لمن له أن يرجع.

فلأن الإيمان عند رؤية البأس ليس هو حق الإيمان، لا يقبل من هؤلاء الظالمين قولهم ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ...﴾ بل ليس هنا إلا ردٌّ بتنديد ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ وانتقال إلى حياة أخرى، أم زوال عن

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٢.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٤.
(٣) سورة النحل، الآية: ٣٨.
(٤) سورة الهمزة، الآية: ٣.
(٥) سورة السجدة، الآية: ٢١.

قوة الحياة وشوكتها، فكيف ترونكم اليوم؟ زلتم أمّا زلتم، ولقد تقولتم قولتكم هذه وآثار الغابرين شاخصة ماثلة أمامكم:

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾:

طغاة هم - بطبيعة الحال - يسكنون مساكن الذين ظلموا أنفسهم حيث يتوارثون سكنات الطغيان وثكناته، فليس مجرد السكون في مساكن الظالمين ظلماً، فقد يكون عدلاً كما الدولة الإسلامية تسترد مساكن الظالمين إلى أصحابها المظلومين، أم تُسكنها الشعبَ المستضعفين لأنها مجهولة المالكين.

﴿وَسَكَنتُمْ... وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ حيث خرَّت عليهم السُّقُف من فوقهم ودُمِّروا عن بكرتهم، ﴿تَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ إذ أشهدناكم مساكنهم بساكنيها، ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ لهؤلاء من الغابرين[١].

ويا لهذه الأمثال المتجددة عبر الأجيال والقرون من عِبَر حيث تتجدد في طول الحياة، فكم من طغاة سكنوا مساكن آخرين، بعدما هلكوا، وأحياناً على أيديهم أنفسهم، ثم هم أولاء يتجبرون ويطغون ولا يبالون أو يتذكرون، سائرين سيرة الهالكين، دون أن تهز آثار الغابرين ضمائرهم، وتوقظ أعينهم وتصوِّر لهم مصائرهم في مسايرهم:

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ الكافر الغادر المائر كما اسطاعوا، مكراً على الله ورسالاته ورسله وتشريعاته، لكن ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ فالله لا يُمكر مهما

---

(١) الواو هنا حالية تعني ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ...﴾ [إبراهيم: ٤٤] حال أنكم سكنتم وتبين لكم.

مكروه، حيث المكر كله ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ﴾ و﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[١] فحتى ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[٢] ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾[٣].

فليمكروا ما تزول منه الجبال أم اكبر منه وأنكى، فـ ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾.

أترى ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ و﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ تعنيان فاعلية المكر كله، إنها لله وعند الله؟ نقول ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ إذ لا يستطيع الماكرون أن يمكروا إلا باذنه تكويناً مختاراً دون تشريع، ألّا يمنعهم من مكرهم، ويأذن لمكرهم بعدما اختاروه بمقدماته الاختيارية، ثم ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ عندية الحيطة العلمية وفي القدرة، فلا يُغلب أو يُمكر بمكرهم عجزاً عن مكافحة، وإنما امتحان الامتهان تخييراً دون تسيير.

ثم ﴿مَكْرُهُمْ﴾ تعم إضافة المصدر إلى فاعله: ما يمكرون - أو مفعوله: ما يمكر الله بهم جزاءَ مكرهم: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[٤] فمكرهم فاعلياً ومفعولياً هو عند الله في حيطة علمية وفي القدرة والحكمة غير المحدودة المحلقة على كل شيء بكل شيء، واللام في ﴿لِتَزُولَ﴾ للغاية وهي المعنية هنا من مكرهم كأكثر ما قد يتصور من فاعلية المكر، ولا سيما في مكر الإشراك بالله مصورين له كأنه الحق من ربهم ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١﴾[٥] هنا

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٣.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٤٢.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.
(٥) سورة مريم، الآيتان: ٩٠، ٩١.

فاعلية إلهية من عظم هذه الدعوة الفاتكة، وهناك لمكرهم فاعليته إلهية وسواها وكلها عند الله وبإذن الله.

وترى من هم أولاء الذين مكروا مكرهم وإن كان مكرهم..؟ إنهم كل حماقى الطغيان طول التاريخ الرسالي، من كل هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وأخلافهم الذين سكنوا في مساكنهم، قبل الرسول وزمنه ثم من بعده إلى يوم الدين، فالمكر هو المكر والله هو الله ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ فمهما كان المكر له فاعليته الخارقة للعادة، المزمجرة المدمرة، فهو «عند الله» دون أن يغلب عليه فيمكره، حيث الممكور إنما يُمكر لضعف في العلم والقدرة والخبرة، والله خبير بما يصنعون، وقدير على ما يفعلون، وما الله بغافل عما يعملون.

وقد تشير ﴿لِتَزُولَ﴾ إلى محاولات ماكرة تؤثر هكذا تأثيرات هائلة كما السحر وأضرابه، ولكنها ليست إلّا بعلم الله ونفاذ قدرته ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[1].

ولأن الجبال هي أصلب شيء وأثقله وأبعد شيء عن تصور الحراك والزوال في متناول العرف العام، لذلك يمثل هنا بالجبال، مثالاً لأقوى قوة قد تزول بمكرهم.

﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ فليس لتزول منه شيء من ساحة الرب المتعال[2]، لا يتفلت منه عن علمه شيء، ولا يتلفت إليه منه شيء، فهم لا يضرون الله شيئاً.

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ۝٤٧﴾:

قد يحسب الحاسبون الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) فـ «إن شرطية وصلية مهما تعارك فيها المفسرون والأدباء، فلا يستقيم لها إلا هذا المعنى.

الآخرة هم غافلون، إن الله مخلف وعده رسله، في نصرهم والانتصار لهم، لما يرون من تغلب الباطل وتألب الحق: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[١] ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[٢].

ولكن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في علمه وقدرته وحكمته، فكيف يخلف وعده رسلَه، وهو ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ من الظالمين مهما طال الزمن وتطاولت المحن فـ ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

وإخلاف وعد الرسل قد يكون من مخلّفات الغفلة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أم دون غفلة لجهالة أم عجز أم ظلم وخيانة، وأيٌّ من هذه وتلك لا توجد في ساحة الربوبية ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾.

فما لذلك المكر الذي تزول به الجبال من مجال على أية حال، تعويقاً لتحقيق وعد الله، أم إخلافاً أم أي خلاف، فليس الله ليدع الظالم يفلت، والماكر يلفت، مهما طال يومه ولن يطول، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: وترى كيف ينتقم الله من الظالمين ولا يضارونه شيئاً، وليس الانتقام على أية حال إلا تشفياً لقلب المنتقم الجريح، وليس لله قلب ولا يجرح بأي جارح؟

إن انتقامه ليس لنفسه تشفياً أم سواه، وإنما للمظلومين المحطومين، فهو - إذاً - ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ من الظالمين للمظلومين.

ونرى العزة قبل انتقام هنا وفي آياتها الأخرى الثلاث[٣] مما يفرِّع انتقامه تعالى على عزته، وقضية عزته عدلهُ ورحمته على علمه وقدرته، دون

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٧١-١٧٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٦.
(٣) ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤، والمائدة: ٩٥] ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزُّمَر: ٣٧].

أن يطلب بذلك عزاً على عزه، وإنما تحقيقاً لعزته بين عباده، وتطبيقاً لعدله ورحمته.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾:

للأرض بعد الدنيا تبدّلان اثنان، تبديل التدمير وتبديل التعمير، ففي قيامة الإماتة: التدمير، وفي الإحياء: التعمير، ثم ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ . . .﴾[1] هنا دليل التعمير، ففيه ﴿تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ الخربة بقيامتها الأولى ﴿غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ غيراً عن حياتها الدنيا، وآخر عن قيامتها الأولى، فلا هي عامرة عمارة الدنيا ولا هي خربة خربتها في تدمّرها، بل هي كما قال الله: ﴿بَارِزَةً﴾[2] ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[3] وكما عن رسول الله ﷺ: «يبدل الله الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظي فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً»[4].

وبصيغة أخرى ليس تَبدُّل الأرض على أية حال انعداماً لها عن أسرها بصورتها، حيث التبديل تحوير لشيءٍ من حالة إلى أخرى، وللإعدام صيغة تخصه كـ «يوم تُعدَم الأرض» وأضرابها.

فهذه الأرض، المبدلة بقيامتها الأولى: التدمير، إلى حالة خربة، تبدل

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٤٨، ٤٩.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٧.

(٣) سورة طه، الآية: ١٠٧.

(٤) تفسير الفخر الرازي ١٩ : ١٤٦ روى أبو هريرة عن النبي ﷺ : . . . وفي الدر المنثور ٤ : ٩٠ - أخرج مسلم وابن جرير والحاكم والبيهقي في الدلائل عن ثوبان قال جاء حبر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض فقال رسول الله ﷺ هم في الظلمة دون الجسر وفي نقل آخر قال: على الصراط وفيه عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ في الآية: أرض بيضاء كأنها فضة لم يسفك فيها دم حرام ولم يعمل فيها خطيئة.

غيرها في الحالتين بصورتها وأجوائها في الحياة الأخرى، فلا هي عامرة كما الأولى، ولا خربة كما الثانية، بل هي عامرة أعمر من الأولى وكما تناسب الحياة الأخرى.

وهكذا السماوات تُبدَّل غيرها كما الأرض، فالقيامة حافلة لهذه السماوات والأرضين بصورة أخرى هي أحرى.

وهذه آية منقطعة النظير في تبدل الأرض يوم قيامة الإحياء، إلّا إشارة من آية الراجفة: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾[1] فالرجفة الرادفة للأولى هي رجفة التعمير الإحياء بعد التدمير، كما الرجفة التي تعيشها الأرض في دنياها تعيّشها في حركاتها، لأنها مُعدَّلة بالراسيات من جلاميدها، وذوات الشناخيب الصم من صياخيدها، فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحِملها.

هذه الأرض، وهكذا تكون تبدُّل السماوات، فإنها بعد انفطارها وكشطها ومشطها عن كواكبها في قيامتها الأولى، تُبدَّل إلى غيرها، عن حياتها الدنيا وعن موتها، فلا هي كالأولى ولا كالثانية، بل هي غيرها في حالتيها كما الأرض، وقد تعني ﴿تَبَدَّلَ﴾ كلا التبدلين، في قيامة التدمير والتعمير، تبدل عن حالتها الدنيوية تدميراً وتعميراً، فكما أن حالة تدميرها غير الأولى، كذلك حالة تعميرها غير الثانية والأولى، حالة ثالثة تناسب الحياة الأخرى، فالأرض الساهرة هناك هي بساط عرصات الحساب، والسماوات - علّها - بساطات الجزاء ثواباً وعقاباً، حيث الجنة هي فوق السماء السابعة: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾[2] فالنار - إذاً - تحتها، إن في السماوات أم في الأرض والأرضين الأخرى.

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٦، ٧.
(٢) سورة النجم، الآيات: ١٣-١٥.

أجل - فليست لتبطل الأرض والسماوات عن بكرتها، انمحاءً على أصل الكينونة، أم تداوماً في خرابهما بقيامة الإماتة، فكما إنسان الأرض يحيى وأناسي السماوات في قيامة الإحياء، كذلك الأرض والسماوات، ليعيش الأحياء في الأحياء.

فصحيح أن هذه الشمس تكور بقيامتها الأولى، ولكنها قد ترجع في الثانية وكما تدل عليه آيات الظلال في الجنة كـ ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾(١) وهل يخلق الله للسماوات والأرضين الجديدة بعد القيامة خلقاً آخر يكلفهم كما كلفنا؟ لا ندري نعم أم لا، والقرآن ساكت عن هذا أو ذاك فلنسكت عما سكت الله عنه! وإذا كانت الجنة ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٢) أم ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾(٣) فما هو طولها؟ ثم وأين النار؟

العرض هنا هو السعة دون المقابل للطول، حيث ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ليس لها العرض - فقط - مقابل الطول، بل هما العمق بالطول والعرض، حجماً يتبنى مثلثه الهندسي! فـ ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ تفسر ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم لا معنى لعرض العرض مقابل الطول لِما نجهل طوله وعرضه!.

ثم الجنة المأوى هي عند سدرة المنتهى فوق السماء السابعة وليست لا في السماوات ولا في الأرض: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾(٤).

فالنار - إذاً - تحتها، إن في السماوات أو الأرضين أم فيهما، ولكنها بحيث يمكن الترائي بين أهل الجنة والنار كما في آياتها.

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ١٣.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.
(٤) سورة النجم، الآيات: ١٣-١٥.

وعلّ «الأرض» هذه تعني الأرضين السبع كما السماوات، أم هي مطوية في السماوات دلالياً كما هي كونياً، حيث الأرض والسماوات تعنيان الكون كله دون إبقاء.

إذاً ففي ذلك اليوم تُبدَّل الكائنات بأسرها غيرها، ترى أرضاً عامرة غير هذه، وسماوات مبنية غير هذه، صورة لماعة لم تخلد بخلد قط إلا من شاء الله، وكل أتوه داخرين.

وترى كيف ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ وهم بارزون منذ كونهم وقبله وبعده؟ إنه بروزهم فيما يعرفون ويعترفون يوم الدين، بعد نكرانهم يوم الدنيا، بروزاً في علمهم أمام الله، لا في علمه، ثم وبروزاً لأعمالهم لهم كما كان لله حيث يرونها دون إبقاءٍ، ثم بروزاً لجزائهم الكامن يوم الدنيا: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[(١)] وبروزاً - بالأخير - لوحدانيته القهارة، بعدما اتخذوا له شركاء، فأحسوا أنهم مكشوفون لله لا يسترهم ساتر ولا يقيهم واقٍ من الله إذ ليسوا في دورهم ولا في قبورهم، بل هم في عراء الساهرة امام الله الواحد القهار.

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[(٢)] وذلك بعد تبدلها غير الأرض فإنها ليست الآن بارزة بما فيها من مرتفعات ومنخفضات وبنايات، ولا في قيامة الإماتة فإنها مدمَّرة، ولكنها في قيامة الإحياء بارزة، وهم معها، ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[(٣)] ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾[(٤)].

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٧.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢١.
(٤) سورة غافر، الآية: ١٦.

إنهم كانوا يرونهم يوم الدنيا بين أرباب متشاكين أم هم أرباب، ولا قهارَ واحداً هنا وهناك، ولكنهم يوم تبدُّلِ الأرض وبروزها ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ حيث يُتناسى كل قاهر ظاهر أو متظاهر، ويُتلاشى كل شيء، فهنالك يذهب كل ظلم وظُلام وظَلّام عن الأرض، ولا يُرى من آثارهم شيءٌ على الأرض فترى الأرض بارزة وهم بارزون: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1] [2].

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾:

التقرين هو جمع الشيء إلى نظيره، فالمجرمون - إذاً - مقرنون إلى نظائرهم في الإجرام ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ وهي الأغلال الجامعة بين الأيدي والأعناق، أم هي مطلق السلاسل الجامعة، فهم مقرَّنون إلى بعض، وبالأصفاد: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[3].

ذلك هناك وكما كانوا هنا مقرنين إلى بعض في أصفاد الإجرامات والشهوات، قد احتنكهم الشيطان، لا يتحللون عن أسرهم له بأسرهم وهم في حيوناتهم دائبون.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أقمصة سوداء مُنتنة تطلى بموادها الآبال، يلبسونها لباس المنتن المحرق فإنها مادة شديدة القابلية للاحتراق، وهي في نفس الوقت قذرة منتنة سوداء. ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ﴾ كل وجوههم ﴿ٱلنَّارُ﴾ فالوجوه الظاهرة تغشاها النار القاهرة، وكما الوجوه الباطنة وهي أحرى

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٩.

(٢) هنا حول تبديل الأرض غير الأرض روايات من طريق الفريقين في مثلث من موافقة الآية ومخالفتها، وما لا توافقها ولا تخالفها لكلّ حكمه كما فصل في أحاديث العرض.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ١٣.

وأنكى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾[١] فلا يبقى لهم وجه على أي وجه إلا وتغشاه النار، وكما كانت وجوههم يوم الدنيا بكل اتجاهاتهم إلى النار، فقد «ألبسهم سرابيل القطران ومقطعات النيران في عذاب قد اشتد حره، وباب قد أطبق على أهله»[٢].

ويا له من مشهد متلظٍّ مذِلٍّ مخزٍ جزاءَ الماكر الظالم المستكبر:

﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾:

﴿مَّا كَسَبَتْ ۚ﴾ هنا في موقف المفعولية لـ ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ﴾ مما يدل على أن العمل هو الجزاء بملكوته الظاهرة يوم الجزاء، فليس الجزاء انتقام التشفي لله وسبحانه، بل هو العمل بعينه، وفي مظهر الحق بأثره ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[٣] ومثالاً على أن الجزاء هو نفس العمل بحقيقته غير الظاهرة يوم الدنيا، الذرة، فإن فيها ناراً خامدة، وحين تتفجر تظهر، كذلك الأعمال الشريرة تتفجر يوم القيامة بنيرانها، والأعمال الخيرة تتفجر بنورها هناك.

وكما المريض بعصيانه دستور الطبيب يشتد مرضه حالاً أو بعد حال، وليس اشتداده جزاءً من الطبيب فإنه قد لا يعلم بعصيانه، أو يعلم ولا يقدر أن يجعل شدة في مرضه بمشيئته، فاشتداد المرض هو أثر أتوماتيكي بما جعل الله لذلك العصيان، كذلك الأعمال خيّرة وشريرة لها آثار غير ظاهرة يوم الدنيا إلّا قليلاً، نوراً أم ناراً تظهران يوم يقوم الأشهاد.

وما جزاء كل نفس ما كسبت بالذي يُعيي ربنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا سيما وأن واقع الحساب هو العمل كما هو واقع الجزاء.

---

(١) سورة الهمزة، الآيات: ٦-٩.

(٢) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٩.

فهنا ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ تفسير «ذو انتقام» إنه نقمة في نفس الأعمال، دونما تأثر حتى يتشفى بانتقام.

وفيما إذا سئلنا فماذا يعني الاستغفار عن الذنوب وغفرها، إذا كانت العقوبات هي نفس التخلفات؟

فالجواب إن الله الذي كوّن النار على إبراهيم برداً وسلاماً، كذلك يزيل النيران الخامدة في المعاصي التي يغفرها، والغفر هو الستر.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾:

﴿هَٰذَا﴾ المذكور في هذه السورة، و﴿هَٰذَا﴾ القرآن ككل ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ كل الناس، إعلام جاهر في إعلان باهر، عالي الصدى، بعيد المدى، بلاغاً للناس طول الزمان وعرض المكان ﴿بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[1].

القرآن ﴿بَلَٰغٌ﴾ و﴿ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[2] ورسول القرآن بلاغ ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[3] كما وهو حجة بالغة، فالدعوة القرآنية بلاغ في بعدي المدعو به والداعية.

وترى ﴿بَلَٰغٌ﴾ فقط في الحقل العلمي والمعرفي؟ كلا! بل ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ﴾ نذارة نفسية وعملية، تذرعاً لبلاغ العلم إلى بلاغ العقيدة والعمل، كقاعدة أساسية هي رأس الزاوية لهذا البلاغ. فـ ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ﴾ هي من أهداف البلاغ، والواو هنا تعطف إلى محذوف معروف من نفس البلاغ، فـ ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ ليعلموه وليصدقوه ثم ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا﴾... ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.

(٣) سورة النور، الآية: ٥٤.

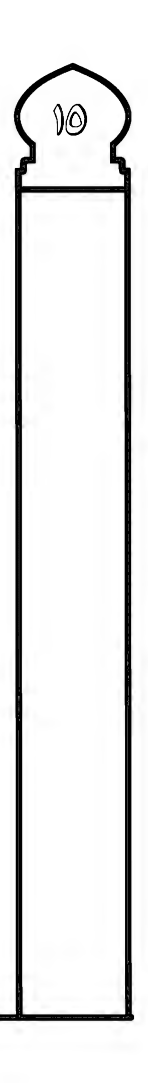
وهذه الزوايا الثلاث نذارة وعلماً وتذكراً هي الغاية القصوى من ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ علمياً وتصديقياً وتطبيقياً.

ثم ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قياماً لعمودي العلم والعمل على قاعدة توحيدية عريقة تتبنى الحياة كلها في كل حقولها هي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فإنها ليست مجرد عقيدة مستكنة في الضمائر، فإنما البلاغ الصالح للدعوة القرآنية المحمدية، هو دمج التوحيد في كل شؤون الحياة، آفاقية وأنفسية أماهيه، كروح تعمل بين الجوارح والجوانح، في الأرواح والأشباح.

ثم وفي قمة التأثير لهذا البلاغ ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فبعد ما أخذ ناس من هذا البلاغ - بتصديقه عقيدياً وعملياً - لُبّاً، فهذا البلاغ يزيدهم لباً على ألبابهم فيذكروا لباب الذكر.

وكما نرى هذه الآية الختامية لهذه السورة تنعطف إلى آيتها الأولى، محلّقة معها على أجواء السورة كلها، ومختصرة لها والقرآن كله في النذارة والعلم والتذكار، على محور التوحيد، والله على ما نقول شهيد.





سُورَةُ الحِجْرِ



مكيّة وآياتها تسع وتسعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾

مكية الحجر بارزة بطيّات آياتها، لا سيما آية الدعوة المعلنة بعد استتارها: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾(١) مفسَّرة بروايات من طريق الفريقين أنه ﷺ كان يكتتم الدعوة في البداية سنين عدة حتى نزلت هذه الآية، آمرة بالدعوة المعلنة.

وإن الصبغة المكية لائحة في سبك آياتها كلها، واتجاهاتها، حيث الإنذار الحاسم القاصم في مطلعها ملفعاً بظل من التهويل والتحويل: ﴿رُّبَمَا

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٩٤، ٩٥.

يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ. . .﴾ ثم متابعات وتعقيبات على الذين كفروا جاسمين، وتشجيعات وتعزيات للرسول الجريح القريح من هجمات المشركين وهمجاتهم، كل ذلك تؤيد مكية السورة.

ذلك، ولكن ربما تدل ثانيةً آياتها أنها مدنية، أم هي وأضرابها، حيث الذين كفروا في العهد المكي ما كانوا يودون لو كانوا مسلمين، اللهم إلّا على تأويل تحسُّرهم إلى يوم الدين ولكنه «إنما» وليس «ربما» حيث المشهد الضارع الهارع يدعوهم لذلك التحسر يوم الدين، إضافة إلى ﴿ذَرْهُمْ﴾ فإنه لا يناسب يوم الدين.

وربما تعني ﴿رُّبَمَا﴾ هنا بدخولها على ﴿يَوَدُّ﴾ المستقبل، كل حالات تحسرهم منذ الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، ويوم الرجعة وما بينهما من حالات متقدمة للمسلمين، ويوم البرزخ ويوم القيامة[1]. توسعة في ﴿رُّبَمَا﴾ وتأويلاً له - بعد تفسير الدنيا - إلى يوم الدين، فالمعنيان معنيّان مهما كان الأول أصلاً في تفسيرها والثاني فرعاً في تأويلها وتطبيقها.

هذا، ولكن ﴿لَوْ﴾ لها تلويحتها باستحالة إيمانهم المترجّى، وليست إلّا يوم الدين، أم وعلى هامشه يوم الدنيا للذين جحدوا بآيات الله واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، الحاملين مشاعل الضلالة، حين يرون كتلة الإيمان متغلبة عزيزة.

---

(١) الدر المنثور ٤: ٩٢ - أخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه بسند صحيح عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: إن ناساً من أمتي يعذبون بذنوبهم فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون: ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم فلا يبقى موحد إلا أخرجه الله تعالى من النار ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] أقول وأخرج مثله بتفاوت يسير عن جماعة عن أبي موسى الأشعري عنه ﷺ وعن أبي سعيد الخدري عنه ﷺ وعن أنس عنه ﷺ وعن علي بن أبي طالب عليه السلام عنه ﷺ وعن أبي أمامة عنه ﷺ إلّا أن لفظه في الخوارج.

وفي نور الثقلين ٣: ٢ عن تفسير القمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا كان يوم القيام نادى مناد من عند الله عز وجل لا يدخل الجنة إلا مسلم فيومئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين.

وعلى أية حال لكل من المعنيين حجة، والجمع بينهما جماع الحجة وبلوغ المحجة في تفسير آي الذكر الحكيم.

﴿الٓر﴾ كسائر الحروف المقطعة هي من مفاتيح كنوز القرآن وعلّ المشابهة بتكرارها في سورها تلمح إلى وحدةٍ بينها في هامة من مغازيها ومعانيها، وكما هي بارزة في مباديها:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾[1] - ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾[2] - ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[3] ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾[4] [5] وهنا:

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾:

وعلّ الكتاب في هذه الثلاثة هو كل ما كتبه الله على عباده وحياً إلى رسله وهذا الكتاب هو جملته بهيمنة ﴿وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ يقرأ على العالمين، ويبين لهم كافة بينات الدين.

فليست الإشارة في ﴿تِلۡكَ﴾ إلى آيات الحجر فقط، فإنها من آيات الكتاب، وليست آيات الكتاب كلها، ولا - بأحرى - ﴿الٓر﴾ فإنها غير بين ولا مبين.

والقرآن منه مبين لسائر المكلفين وهو ﴿تِلۡكَ﴾ ومنه غير مبين لهم إلّا لشخص الرسول ﷺ كمحكم الكتاب النازل عليه ليلة القدر والحروف المقطعة كما هنا، ومنه غير مبين حتى لشخصه وهو القرآن قبل نزوله عليه لا جملة ولا تفصيلاً.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١.
(٢) سورة هود، الآية: ١.
(٣) سورة يونس، الآية: ١.
(٤) سورة يوسف، الآية: ١.
(٥) وهي على الترتيب ١٤: ١ و١١: ١ و١٠ و١٢: ١.

ولأنه ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ في كافة حقول البيان والإبانة، ولكافة العقول غير المعقولة بطوع الهوى، لذلك:

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾:

وربما قيل في ﴿رُّبَمَا﴾ أقاويل، كأنها لا تدخل إلا على الماضي إذ لم يجدوها في استعمال العرب جاهلياً وسواه تدخل على المستقبل؟ وكلام الله أقوى وأجل وأشرف مستند لصحة دخولها عليه! ثم وفي استقبال فعلها هنا شمول لمثلث الزمان، يوم الدنيا والبرزخ[1] ويوم الدين، في الأوّل ربما هو قليل، وفي الآخرين غير قليل، إذ يعرفون فيها خطأهم، ويتحسرون أن ﴿لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾. ولكن هيهات، ولات حين مناص، وقد فات يوم خلاص.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ...﴾ ولكنه حيث لا ينفع التمني ولا يجدي الوداد، وذلك تهدّد خفي واستهزاء ملفوف بالذين كفروا منذ الموت، وحثٌّ على انتهاز الفرصة المعروضة للإسلام قبل الموت.

«ولو أنهم يودون هنا لو كانوا مسلمين وما هم بمسلمين فإنْ هم إلا كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون» ف :

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾:

﴿ذَرْهُمْ﴾ في خوضهم يلعبون، حين لا يرجى منهم إسلام وهم يترجون، اتركهم وما هم فيه من حيونات الحياة وشهواتها ﴿يَأْكُلُواْ﴾ حيث هو بغيتهم من الحياة ﴿وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ بسائر المتع البهيمية ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ البعيد الطويل في الحياة الدنيا عن الحياة الأخرى إذ لا يعلمون: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ

---

(١) تفسير البرهان ٢: ٣٢٥ بسند عن جابر بن يزيد قال قال أبو عبد الله عليه السلام قال أمير المؤمنين عليه السلام في الآية هو إذا خرجت أنا وشيعتي وخرج عثمان وشيعته وثقل بني أمية فعندها يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين.

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[١] ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ منذ الموت وإلى القيامة الكبرى حين يرون العذاب، يعلمون أنه الحق من ربهم، عين اليقين، مهما كانوا يعلمون هنا علم اليقين ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٢].

فيا لصاحب الأمل الخاطئ الخابط من خبط وخطل «يتعاطى الأمل فيختلجه الأجل دون ذلك»[٣] فهو عائش بين الأمل والأجل، ولكن لا يمهله الأجل، مهما أهمله الأمل.

فإنما أخاف عليكم اثنتين: اتباع الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة[٤] ف «إذا استحقت ولاية الله والسعادة جاء الأجل بين العينين وذهب الأمل وراء الظهر، وإذا استحقت ولاية الشيطان والشقاوة جاء الأمل بين العينين وذهب الأجل وراءَ الظهر»[٥] و«ما أطال عبدٌ الأمل إلا ساء العمل»[٦].

و«ما أنزل الموت حق منزلته من عدَّ غداً من أجله»[٧] «واعلموا أن الأمل يُسهي القلب ويُنسي الذكر فاكذبوا الأمل فإنه غرور وصاحبه

---

(١) سورة الروم، الآية: ٧.
(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٣) الدر المنثور ٤ : ٩٤ - أخرج أحمد وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ غرس عوداً بين يديه وآخر إلى جنبه وآخر بعده قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: فإن هذا الإنسان وهذا أجله وهذا أمله فيتعاطى..
(٤) نور الثقلين ٣: ٣ عن أصول الكافي بسند عن يحيى بن عقيل قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: ...
(٥) المصدر عن الكافي بسند عن أبي شيبة الزهري عن أبي جعفر عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: ...
(٦) المصدر الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام.
(٧) المصدر.

مغرور»[١] فـ «إن صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين وهلاك آخرها بالشح والأمل»[٢] والأمل المذموم في آيته هنا هو الملهي ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ وفي روايته: طول الأمل، فنفس الأمل إذاً ليس مذموماً فمنه ممدوح ومنه مذموم، وأجمع تعبير لمذمومه ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾.

ثم وطول الأمل مقابل قصره دون تركه عن بكرته حيث الأمل في أصله زاد الحياة وراحلتها، فقد يأمل أطول مما يعمل، رجاءً زائداً على ما ينتجه العمل، فهو طول الأمل، وإذا كان دون عمل فهو أطول، وإذا كان أمل الخير من عمل الشر فأنكى وأعضل.

وقد يكون أقصر من العمل، وفيه فشل في العمل، وسوء ظن بالله الذي وعد على الصالحات عشر أضعافها، فإن أمل أقل منها، أم أقل من قدر العمل فسوء ظن بوعد الله.

وأما إذا كان أملاً على قدر العمل فهو عدل في الأمل.

إذاً فأمل الخير في عمله بين إفراط هو طوله وتفريط هو قِصَره، وعوان هو قَصْره على حدّ العمل، وأما الأمل دون عمل، أم أمل الخير من العمل السوء، أم أمل المستحيل بعمل ودون عمل، فكل ذلك هباء خواء، تجمعها ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ ويقابلها أمل دون إلهاء وهو الأمل الحق على ضوء العمل الحق، أو الوعد الحق وإن كان دون عمل، كما وعد الله المؤمنين على نياتهم الحسنة خيراً حين لا يقدرون على العمل بها.

فحين تحصل موافقات بين القول والعمل والنية والأمل والسنة، فهنا

---

(١) نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) المصدر عن كتاب الخصال عن عبد الله بن حسن بن علي عليه السلام عن أمه بنت الحسين عليها السلام عن أبيها قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . . .

الأمل الصالح، وفي منافقاتها في أية دركاتها الأمل الملهي، فهناك درجات وهنا دركات.

﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ - ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾[(١)] فالأمل أملان، أمل في الحياة الدنيا تزيفه هذه الآية الوحيدة في سائر القرآن، وآخر فيما عند الله له وحيدة أخرى: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾[(٢)].

فمن يأمل رحمة الله، ويعمل لأمله بمرضاة الله. فهو آمل ما عند الله مهما طال.

ومن يأمل دنيا الحياة وزينتها، فهو عامل لها عاصياً لله، آملاً ما لا يرضاه الله مهما قصر.

فليس طول الأمل ذميماً إلّا بعيداً عن مرضاة الله، والمؤمن أمله طويل فيما عند الله لدنياه وعقباه ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[(٣)]: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[(٤)].

وكضابطة عامة لا أمل إلّا بعمل يوافقه، فلا أمل دون عمل كما لا عمل دون أمل، صالحَين كانا أم طالحَين، ثم لا أمل إطلاقاً فيما لا يمكن ذاتياً أم عرضياً فإنه باطل قاحل.

ففي مثلث وفاق الأمل مع العمل أم نفاقه أو كون أحدهما دون زميله، الحق هو الأوّل إن كان في مرضاة الله كما أمر الله.

فما كل أمل بمكروه، حيث الإنسان أياً كان يعيش الأمل ويعيِّشه

(١) سورة محمد، الآية: ١٢.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٦.
(٣) سورة طه، الآية: ١٣٢.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

الأمل، فإن كان أملاً في مرضاة الله على عمل وفيما وعد الله فهو قضية الإيمان، كما القائم المنتظر والعدل المؤمل يأمله كل مؤمن كما وعد الله، ولكن شرطَ العمل وفق الأمل، أملٌ يشجّعه على العمل الصالح لكي يصلح أن يكون من شعبه وتحت لوائه، وقد يروى عن النبي ﷺ في صالح الأمل قوله: «الأمل رحمة لأمتي ولولا الأمل ما وضعت والدة ولدها ولا غرس غارس شجراً»(١).

وإن كان أملاً في غير مرضاته، ولا سيما دون عمل يستقبله، وإنه يلهيه عن كل أمل وعمل في مرضاة الله، وما يعنيه في صالح الحياة الراضية المرضية، فهو من الأخسرين أعمالاً وآمالاً فـ ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

أمل خارف، وإلهاء جارف في متعة الحياة الدنيا، وهو للذين كفروا وأضرابهم(٢). ثم أمل عوان بين هذا وذاك، يأمله ضعفاء الإيمان، قد يلهيهم كما إذا طال، وقد لا يلهيهم إذا قصر، أعاذنا الله شره وضره.

قل للمقيم بغير دار إقامة حان الرحيل فودِّع الأحبابا
إن الذين لقيتهم وصحبتهم صاروا جميعاً في التراب رميما(٣)

---

(١) سفينة البحار ١ : ٣٠ عن روضة الكافي وفيه أيضاً قيل بينما عيسى ابن مريم جالس وشيخ يعمل بمسحاة ويثير الأرض فقال عيسى: اللهم انزع منه الأمل فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة فقال عيسى عليه السلام : اللهم اردد إليه الأمل فقام فجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال بينما أنا أعمل إذ قالت لي نفسي إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير فألقيت المسحاة، واضطجعت ثم قالت لي نفسي: والله لا بدّ لك من عيش ما بقيت فقمت إلى مسحاتي.

(٢) المصدر عن الإمام الصادق عليه السلام إن الله تعالى يقول: وعزتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لأقطعن أمل كل مؤمل من الناس أمل غيري ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس ولأنحينه من قربي ولأبعدنه من وصلي أيؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي ويرجو غيري ويقرع بالفكر باب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب.

(٣) سفينة البحار ١ : ٣٠ للحسن بن علي عليه السلام : . .

فـ «من أيقن أنه يفارق الأحباب ويسكن التراب ويواجه الحساب ويستغني عما خلف ويفتقر إلى ما قدم كان حرياً بقصر الأمل وطول العمل»[١] و«لولا الأمل علم الإنسان حسب ما هو فيه ولو علم حسبما هو فيه مات من الهول والوجل كفراً»[٢].

فالأمل الصالح فيه حياة الإنسان، والأمل الطالح فيه هلاكه، فإنه صورة حية وسيرة ميتة، لا يزال يخايل هذا الإنسان، جارياً وراءَه كالماء والهواء وهو منشغل به ومستغرق فيه حتى يجاوز منطقة الأمان، فيغفل حتى الله، وعن كل ما يعنيه في حياته الإنسانية، وهذا هو إلهاء الأمل الطائل لهذا الإنسان الغافل.

فحين يبلغ الإنسان إلى ذلك الهلاك العامد والكفر الصامد، لم تك لتنفعه الذكرى، إذاً فـ «ذرهم» ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[٣].

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾[٤] ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[٥].

ذرهم في تلك الدوامة الدائمة والمصيبة القائمة، حيث الأمل يلهي والمطامع تغر، والعمر يمضي والفرصة تضيع، ذرهم فلا تشغل نفسك بهؤلاء الحماقى الهلكى الذين ضلوا في متاهة الأمل الغَرور.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾:

---

(١) المصدر عن الكنز قال أمير المؤمنين عليه السلام:

(٢) المصدر عن أمير المؤمنين عليه السلام: . . . وفيه أن أسامة بن زيد اشترى وليدة بمئة دينار إلى شهر فسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر إن أسامة لطويل الأمل.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٥٤.

(٤) سورة الطور، الآية: ٤٥.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

فكما سنة الله لا تتخلف وهي جارية في كل فرد، كذلك في كل أمة وقرية، فلها ﴿كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ عند الله مهما جهلوه وأنكروه، وعلى حسب الأمل والعمل يكون الأجل، دونما فوضى جزاف، و﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ المكتوب لها ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عنه ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1].

فلا تحسبنَّ أمةٌ ولا تحسبنَّهم أنه يلهى عنهم فيما هم فيه مقترفون، حيث الأجل ينتظرهم قريباً أم بعيداً، و﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾[2] تعم أمم الخير والشر، فقد يُعجَّل لأمة الشر أجله، أو يؤجل لأمة الخير أجله وكلٌّ في كتاب.

ومن قالات الكافرين ضد هذه الرسالة السامية، هي المندِّدة بساحة الرسول ﷺ المستهزئة به:

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾:

ناكرو الوحي والرسالة والذكر المنزَّل يخاطبون صاحب الرسالة بهذه القالة الساخرة، مساً من كرامته ونيلاً من ساحته ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ وما فريته بالجنون إلّا لأنه يذكِّر عقولهم المدخولة، وهم لا يحبون الناصحين، فليفتكوا به ويلطِّخوه بسوء الحالات المزرية حتى يفل عنه من حَوله، ويقلَّ قولُه من هذا الذكر العظيم.

فيا لوحي القرآن وحامله من قمة عليا وروحية منقطعة النظير، يُتهم بأرذل التهم وهي الجنون، جنة في صاحب الوحي، ويطبيعة الحال جنة في الوحي يسقِّطه عن أعين الناظرين وأسماعهم ليفلوا عنه ولا يدنوه، دعاية عارمة على هذه الرسالة السامية لتموت في بدايتها، وكبرهان على كذبها:

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾:

ويكأن الملائكة تُرى بالصورة الملائكية؟ وهم لا يُرون! ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[1] فهم - إذاً - لا يأتون في دنيا التكليف.

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾:

نزولاً لإنزال العذاب ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ترى وما هو ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؟ علّه لأن نزولهم معه تأييداً لرسالته باطل حيث يبطلونه كما أبطلوا الرسالات المزودة بالبينات: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[2].

ولأن نزول الملائكة يوم التكليف ليس إلا على من يشاء من عباده: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾[3] حيث تشرط في نزول الملائكة المسانخة وليست إلا لمن يشاء من عباده: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[4]. أجل ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾[5] لا وحياً إليهم، بل عذاباً لهم وثواباً لسواهم، وكما ينزل الملائكة أيام عذابهم، ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[6].

وحتى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[7] فترجع مشكلتهم كما كانت.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١١.
(٣) سورة النحل، الآية: ٢.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٩٥.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٢٥.
(٦) سورة الفرقان، الآية: ٢٢.
(٧) سورة الأنعام، الآية: ٩.

فـ ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا﴾ نزولاً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بحق التكليف كملائكة الوحي، أم حق الموت كملائكة التوفي، أم حق التكوين كعماله فيما يأمر الله، أم حق التعذيب، ثم في نزول الملائكة بحق التوفي أو العذاب، ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾.

فليس ليفيدهم فيما يبغون ويتطلبون إذ كانوا قبل ذلك منذرين، ولكنهم سخروا من المنذرين وتلاعبوا بآيات الله البينات، ولو أنهم يبغون بهذه القالات السوء مساً من كرامة الذكر الحكيم فـ :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾:

تأكيدات عشر، خمس لنزول الذكر وخمس أخرى للحفاظ عليه، ففي الأولى جمعيات ثلاث «نا - نحن - نا» إضافة إلى «إن - و - نزل» حيث التفعيل تأكيد، وفي الأخرى «نا - و - حافظون» إضافة إلى «إن - له - لـ».

فالذكر منزَّل على ضوء جمعية الصفات، ومحفوظ كذلك بجمعية الصفات، مما يُحيل تنزله ممن سوى الله، وتحريفه أو تجديفه بعد حفظ الله، فما هو ذلك الذكر؟.

أهو الرسول وكما الله يقول: ﴿. . .فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ. . .﴾[1]؟.

ولكنه هنا ليس الرسول ﷺ مهما كان ذكراً من الذكر، فإنه الذكر المُنزَل دفعياً والقرآن ذكر منزَّل تدريجياً! وليس الرسول ذكراً في هذه الآية وأضرابها إلّا لأنه ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ فهو ذكر على هامش الآيات[2]،

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ١٠، ١١.

(٢) كما ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤] و﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩] =

ثم القرآن ذكر في سائر الذكر[1].

ولأنهم ذكروا قبله ذكر القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ فلأن فرية الجنون بصاحب هذا الذكر تسري إلى الذكر نفسه إنه ليس صراح الوحي وصارمه، لذلك فهو - هنا - بحاجة إلى تأكيدات الصيانة والحفاظ، فبحفظ القرآن يُحفظ الرسول، لأنه رسالته الأصيلة الخالدة، وهو سنده الأصيل في رسالته، ثم ليس في حفظ محمد حفظ القرآن، اللهم إلا كرسول، وحفظ الرسول تماماً هو حفظ القرآن تماماً عن أي تحريف وتجديف.

ثم نرى محمداً ﷺ كبشر لم يُحفظ من أي هتك وجرح وتشريد، ثم أخيراً مات أو قتل، وهذا خلاف الحفظ، ولكنه سلمت دعوته وصَرمت وخلِّدت بقرآنه المجيد، وفي ذلك حفظ الرسول خالداً إلى يوم الدين.

وحتى إذا ترددنا هنا في المعني من الذكر المضمون حفظه، فالقدر المتيقن هو أصل الذكر: القرآن، الذي أصبح الرسول بحمله والدعوة به ذكراً ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[2] فهو إذاً ذكر للرسول الذكر، وبحفظه تحفظ رسالته التي تتبنّى ذلك الذكر! ثم ولا امتنان في حفظ الرسول سليماً في جسمه، خالداً في عمره، ماضياً في أمره، لو لم يُحفظ القرآن مصوناً، وهو ممنون عليه بأمته حين يُصان القرآن، مهما ظُلم - هو - ما ظُلم، وهُتك ما هُتك، وشرِّد وهاجر ثم مات أو قُتل، ما دامت دعوته الرسالية سليمة خالدة

= ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢] ثم سائر الذكر هو القرآن اللهم إلّا بقرينة تدل على سائر كتابات السماء.

(١) كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨] و﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] و﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠] و﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ [ص: ٨] وكذلك الآيات ٣٨: ٤٩ و٧٨ و٤١: ٤١ و٥٤: ٢٥ وغيرها.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

في القرآن المجيد، على أن الرسول ليس ذكراً إلّا برسالته القرآنية فحفظها - إذاً - حفظه.

ثم وليس يخص ذلك الحفظ بالكتاب المكنون واللوح المحفوظ قبل نزوله على الرسول، إذ لا مدخل إلى ضياعه هناك حتى يحتاج إلى هذه الصيانة المؤكدة، على أنه بعدُ لم ينزل فكيف «نزلنا»؟ ولا بالمحكم النازل عليه ليلة القدر، فإنه مُنزَّل دفعة، وليس منزَّلاً تدريجياً! ولا منة فيه على الأمة، ولا بالمفصل المنزل عليه طيلة البعثة، أن يحفظ - فقط - عنده، ثم يضيع في أمته، فلا منة فيه - إذاً - على الأمة، ولا عليه لمّا تضيع رسالته القرآنية التي أرسل بها ولها إلى الأمة، ولا حفظه - فقط - عند الأئمة ثم عند القائم المهدي عليه السلام فكذلك الأمر، فليس المراد حفظ نسخة منه أم نسخ معيّنة، وإنما حفظ المنزَّل من عند الله في أي مَنزِل من منازل نُسخه، المنشور بين الأمة وسواهم، لأنه لعامة المكلفين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾[1] ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[2] ولا حفظه عن القدح فيه، إبطالاً لحجته، وتضليلاً عن محجته، حيث القدح فيه كثير، والإضلال عنه وفير، مهما كانت حجتهم بجنبه داحضة فـ ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾[3] مهما أتاه المبطلون.

﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ هنا هو القرآن المنزل من عند الله العزيز الحكيم، فكما إنه نزَّله محكماً ومفصلاً ورتّبه، كذلك حفظه بكل مراحل الحفظ التي تتطلب صيانته ذكراً خالداً للعالمين، ثم وأي ضياع في ذلك الذكر المنزل يتنافى وحفظه، سواءٌ في نقيصته عما نزل، أم زيادته على ما نزل، أم نقضاً لترتيبه

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

كما رتب بالوحي، أو انتقاضاً لصرحه بياناً وتبياناً معجزاً خالداً عبر الزمن، فـــ ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[1].

كتاب عزيز، تنزيل من عزيز حميد، مضمون عن كل ضياع بحفظ العزيز الحميد، فمن هذا الذي يقدر على النيل من ساحته، والمس من كرامته؟! ولو أنه لم يحفظ وحيه الأخير لم يكن حكيماً ولا حميداً قضية انقطاع الحجة البالغة عن العالمين أجمعين.

ولئن قلت فكيف يكون حكيماً حميداً ولم يُحفظ سائر كتابات الوحي عن التحريف؟ فالجواب إن في صيانة القرآن صيانة سائر كتابات الوحي فإنه مهيمن عليها ومبين كل شارد عنها وكل دخيل فيها.

ومن الحكمة في عدم صيانتها دون القرآن اضطرار معتنقيها للرجوع إلى القرآن قضية ضرورة حجةٍ مّا بالغة بين العالمين، فإذ لم تكن هي تلك الكتب فليفتشوا عن كتاب بعدها هو الحجة البالغة على العالمين.

ثم الكتابات المتواصلة السماوية كل لاحقة منها تبين مواضع التحريف في كل سابقة، فلم يخل عصور الرسالات الإلهية - على تحرُّف كتاباتها - عن بيان لمواضع تحرفها، اللهم إلّا الفترة الرسالية بين عيسى ومحمد عليهما السلام وهي فترة المحنة والابتلاء، مع ما فيها من بُقية انجيلية صالحة هي إنجيل المسيح وإنجيل برنابا الحواري، مهما لم تكن هذه البُقية البُغية بمتناول كل من يبتغيها.

ثم الذكر المنزَّل هنا قد يعني كلا الذكرين، نازلاً ومنزلاً عليه، ولكنه ذكر على هامش النازل وإنه يتلوه ويذكِّر به ويبيِّنه، وقد حفظ تحت ظلال حفظ القرآن برعاية الملك المنّان كما في ليلة المبيت والحروب الطاحنة

---

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٤١، ٤٢.

وكل الدوائر المتربصة به، حتى قضى أمره ومضى دوره الرسالي إكمالاً لتنزُّل الذكر، وبياناً له بسنته الجامعة المانعة، ثم قضى نحبه عند اكتمال الدعوة الخالدة في القرآن الحكيم.

فلولا اكتمال الدعوة القرآنية، في العهدين المكي والمدني، لم يكن الله ليقبض نبيه ما قبض، ولكن دور الرسالة القرآنية لا ينقضي إلا بانقضاء دور التكليف وهو عمر العالم حتى القيامة الكبرى، فليظل محفوظاً في كل حقوله ومراحله تحت رعاية الله وحفظه، مصوناً عن أية إصابة سيئَة، بتمام أمره وطوال عمره، حيث ﴿الذِّكْرَ﴾ هنا معني في حفظه بكل كيانه وزمانه ومكانه، فلأن كيانه الخلود، فهو - إذاً - مخلد في حفظه، دون الرسول ﷺ حيث يعني حفظُه طولَ عمره المفروض لتحقيق الدعوة القرآنية، ولولاه لم يُحفظ القرآن، كما أنه لولا حفظ القرآن في عمره الخالد طول الزمن لم يحفظ الرسول في رسالته الخالدة.

فما قالة التحريف في القرآن بزيادة أو نقصان أم أياً كان إلّا تجديفاً خارفاً وتهريفاً جارفاً من البعيدين عن الذكر الحكيم، مهما تناقلوا روايات بهذا الصدد هرفت بها رواتها، من إسرائيليات أم كنسيات تسربت إلى أحاديث الإسلام فترسبت فيها وخُيِّل إلى الجاهلين كأنها صادرة من مصادر الوحي والتنزيل!.

وهل تجد في سائر القرآن تأكيدات كهذه التي أكدت بها صيانة القرآن عن التحريف؟ أم تجد الله جاهلاً أم غافلاً عما يحتاله المحرفون، أم عاجزاً عن الإحالة دون تحريفه؟! فما قيلة التحريف إلّا حيلة وغيلة رذيلة من المجرمين، تسربت - وعوذاً بالله - إلى جماعة من المسلمين، تناقلوها دون تثبُّت، مهما اشتهر البعض منهم بالعلم الجامع في التحديث.

فالقرآن يشهد جملة وتفصيلاً بصيانته عن أي تحريف، جملة بآية الذكر

والعزيز وأضرابهما، وتفصيلاً بكل آياته، فإن جمال الوحي القمة فيها باهر، وواقع التحدي فيها ظاهر.

ففي رزانة الألفاظ والمعاني، ورصانة المباني، تلمع حصانته بكل المعاني، ولو أن آية زيدت فيها أو آيات، ثم اختلطت بآياته البينات، لم يصدق التحدي الصارم في تلكم البينات، حين تختلط وتتشابه بمقحمات دخيلة ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾[1] تحيل هذه الفعلة الخائنة، أن يأتوا بمثله ولو بآية منه، فكيف أتوا بها ثم اختلطت دون تمييز! ثم ومن المستحيل اجتماع المسلمين في كل عصر ومصر على ما حرِّف وإنْ في حرف منه، فكيف أجمعوا بمن فيهم من الأئمة المعصومين على محرف حُرِّف عن جهاتٍ من أشراعه، واعتمدوه عماداً وحيداً غير وهيد في كل شارد ووارد، وأصلاً على مدار الزمن لقياس كل صادر وسادر!.

وهنالك أخبار متواترة، كحديث الثقلين وأحاديث العرض وأضرابهما، تجعل هذا القرآن أصلاً يُرجع إليه، وفصلاً في كل خلاف على مدار الزمن، فلا تصدَّق أخبار التحريف، أم تؤول إلى تفسيرات لفظية أم تحريفات معنوية أمّاهيه، وكما في الباقري عليه السلام: «وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرّفوا حدوده فهم يروونه ولا يرعونه، والجهال يعجبهم حفظهم للرواية والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية»[2].

وتضارب النقل حول جمع القرآن يكفي نقضاً لكون جمعه تأليفاً من عند

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

(٢) الوافي للفيض الكاشاني آخر كتاب الصلاة ٥: ٢٧٤.

وقد ذكرنا شطراً من البراهين على صيانة القرآن عن التحريف في المقدمة، وعلى ضوء آية العزيز وآيات أخرى كما في القيامة ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القِيَامَة: ١٦] وآية الأسرى ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧] وأضرابها.

غير الله و﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ﴾(١) تجرفها جرفاً سحيقاً، لا تبقي ولا تذر احتمالة من احتمالات جمع التأليف لمن سوى الله، مهما كان علياً عليه السلام فضلاً عن سواه.

ونموذجاً ضاحكاً مما ادعي روايات من طرق السنة أنه كان من القرآن ثم أسقط: سورتا الخلع والحفد، فالخلع «بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك» والحفد: «بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى نقمتك إن عذابك بالكافرين ملحق»! في حين يدعي أن سورة أبي لهب مقحمة لأنها تنديدة شديدة بعم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم! ومن المضحك المبكي أن تحسب هذه الأغلوطات الخارفة، والمقحمات الهارفة من السور القرآنية الساقطة عنه، وفي الحق هي ساقطة عن كونها كلام الله أم أي أديب أم وأي عربي لاهٍ.

ومثله القيلة الجاهلة القاحلة إن ثلثاً من القرآن سقط بين ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾(٢) ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾(٣) لأن القائل لم يفهم الرباط بين جزئي الآية فأسقط ثلث القرآن بينهما، وقد - والله - ما سقط هناك إلّا كل عقله! فكيف يعقل أن أكثر من ألفي آية تسقط في موضع واحد، ولا يتنبه له إلّا هذا العبقري! فلم يعرفه الحفاظ الأولون، ولا الأئمة المعصومون، ولا الجامعون للقرآن.

وكما تقولوا: إن البراءة كانت مُبَسملة تعدل البقرة، فسقطت البسملَة وسائر آيها إلّا الموجودة، وأن الأحزاب كانت كالبقرة فسقطت منها مائتا

(١) سورة القيامة، الآية: ١٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ٣.

آية!!! وقيلة القائل إن ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ هو كل ما نزل من عند الله على رسله، وكلها محرفة بتصاريح هذا الذكر، فليُعَن من الحفظ سائر الحفظ غير التحريف.

إنها مزيفة، بأن الحفاظ على هذا الذكر الأخير حفاظ على سائر الذكر، والتحريف فيه كما فيها هدرٌ لكل ذكر، فأين هو الحفظ المؤكد الممنون به على المسلمين إذا كان القرآن محرفاً؟، وكيف يُعرف الغث من السمين والخائن من الأمين إن كان القرآن مزيفاً؟ وإلى مَ يرجع المسلمون وسائر أهل الكتاب إذا انقطعت الحجة عن القرآن كما عن سائر كتب السماء!

ولعمر إلهي الحق أن هذا القرآن هو النور المبين، والحق المتين، وهو - فقط - مقياس للرد والقبول، حتى في نُقَطه وإعرابه وترتيبه وتركيبه، فضلاً عن جمله وآياته وسوره، وكما يستفاد من إطلاقات أحاديث العرض وعموماتها، ونصوص منها، أن هذا القرآن هو المدار لكل ما دار على الألسن وبين الكتب.

ولقد كان القرآن مؤلفاً كما الآن، مجموعاً قبل أن يقبض الرسول ﷺ بإشارات الوحي[1]، كما تدل عليه آية القيامة ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ وتقديم

(١) وكما في صحيح النسائي عن ابن عمر قال: جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة فبلغ النبي ﷺ فقال: اقرأه في شهر (الإتقان النوع ٢٠ ج ١ ص ١٢٤).
وفي الإتقان عن ابن أبي داود بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي قال:
جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبي بن كعب وأبو الدرداء وأبو أيوب الأنصاري وفيه عن البيهقي في المدخل عن ابن سيرين قال: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة لا يختلف فيهم: معاذ بن جبل وأبي بن كعب وأبو زيد واختلفوا في رجلين من ثلاثة: أبي الدرداء وعثمان وقيل عثمان وتميم الداري.
وفيه عنه وعن ابن داود عن الشعبي قال: جمع القرآن في عهد النبي ﷺ ستة: أبي بن زيد ومعاذ، وأبو الدرداء وسعيد بن عبيد وأبو زيد ومجمع بن حارثة وقد أخذه إلا سورتين أو ثلاث وفيه أيضاً عن ابن اشتة في كتاب المصاحف من طريق كهمس عن ابن بريدة قال: أول من جمع القرآن في مصحف سالم مولى أبي حذيفة أقسم لا يرتدي برداء حتى يجمعه فجمعه. =

جمعه هنا على قرآنه قد يلمح أنه مع قرآنه، فقد كان يُقرأ عليه القرآن المفصل آية أو آيات أم سوراً بمختلف النجوم والحاجيات والمتطلبات، ومعها إشارة الوحي كيف تجمع وأين توضع في آيات أم سور؟ فأصبح القرآن كما هو الآن بعد نزول آيته الأخيرة[1].

ومتواتر الروايات عن الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول مؤيدة هي الأخرى إن هذا القرآن هو الذي جمعه الرسول وألفه بأمر الله تعالى دون أن تفلت منه نقطة أو حركة أمّاهيه، ثم الشذاذ القائلة بالتحريف تهريف شاذ ممن كانوا يتربصون بالقرآن دوائر السوء، وهي مخالفة للقرآن ولمتواتر الروايات وأحاديث العرض والثقلين فلا موضع فيها من القبول، والقرآن الآن هو بنفسه أغنى برهان على أنه الآن كما كان زمن الرسول ﷺ «وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» سواءٌ في ذلك آياته وترتيبه الخاص في تأليفه، فإن للتأليف دخلاً عريقاً في التعرُّف إلى معانيه وكما في

= أقول: هذا هو جمعه في كتاب وأما جمعه في الحفظ عن ظهر الغيب فأول جامعيه هكذا رسول الله ﷺ ثم علي عليه السلام وثم.. وما جمع علي عليه السلام بعد ارتحال النبي ﷺ إلا جمعاً في كتاب بهوامش تفسير آياته كما سمع رسول الله ﷺ وما رفضوه إلا لهذه الهوامش التي كانت تفضح المنافقين والبعض من هؤلاء الذين سيطروا على عرش الحكم واغتصبوا حق خلافته.

وفي الإتقان للسيوطي عن أحمد وأبي داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال قلت لعثمان... فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا أنزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا.. (منتخب كنز العمال ٢: ٤٨) وفي رواية عثمان بن أبي العاص قوله ﷺ: إن جبرئيل أتاني بهذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] وأمرني أن أضعها في موضعها من السورة (النحل)، وكما كان ﷺ يقرأ بعض السور النازلة نجوماً كآل عمران والنساء وغيرها، وكان يسمي هذه السور بأسمائها التي نسميها بها.

(١) كما في منتخب كنز العمال ٣: ٤٨ عن عثمان عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا أنزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا.

أصله، تأليف قاصد كما الأصل قاصد، قصداً بالوحي فقط، دون الآراء المختلفة المختلَقة المتخلفة عن صراح الوحي.

ومن طبيعة الحال في ترتيب التأليف بعد النزول نجوماً أن كل آية أو آيات كانت تحمل معها إشارة الوحي أين مكانها من سورة وآية نزلت من ذي قبل، فكان كتّاب الوحي يكتبونها كما يأمر النبي ﷺ بالوحي، فلذلك أصبحت سوراً مرتبة كما هي الآن في زمن النبي ﷺ وقد ختمها نفرٌ من أصحابه عنده فصدقهم عليه وأمرهم فيه بما أمر(١).

فالقرآن نسيج الوحي كما هو نزيل الوحي، فواقع تدوينه كما هو الآن سائد منذ مطلع نزوله وبزوغه، وله كتّاب قررهم الرسول ووجههم أمكنة الآيات وترتيب السور، ثم كان يقابل بين المحفوظ في الصدور والسطور.

نسيج وحيه سبحانه إذ يفرض نفسه غزارة وإيجازاً وقوة تعبير وإنجازاً، محاطاً بُسورٍ سائر من العصمة الإلهية، والفرق بينه وبين سواه من كتب الناس وسواهم كالفرق بين الله والناس وسواهم.

---

(١) قال الشريف المرتضى علم الهدى في جواب المسائل الطرابلسيات. . . إن القرآن كان على عهد رسول الله ﷺ مجموعاً مؤلفاً على ما هو عليه الآن لأنه كان يدرس ويحفظ جميعه في ذلك الزمان حتى عين على جمع من الصحابة في حفظهم له وأنه كان يعرض على النبي ﷺ ويتلى عليه وأن جماعة من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبي ﷺ عدة ختمات وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه كان مجموعاً مرتباً غير مبتور ولا مبثوث وأن من خالف في ذلك من الإمامية والحشوية لا يقيد بخلافهم فإن الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخباراً ضعيفة ظنوا صحتها لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته، وقال البلخي في جامع علوم القرآن فيما نقله عنه السيد ابن طاوس في سعد السعود ما لفظه: وإني لأعجب من أن يقبل المؤمنون قول من زعم أن رسول الله ﷺ ترك القرآن الذي هو حجته على أمته والذي تقوم به دعوته والفرائض التي جاء بها من عند ربه ويصح به دينه الذي بعثه الله إليه داعياً إليه معرفاً في قطع الحرف، ولم يجمعه ولم يصنه ولم يحكّم الأمر في قراءته وما يجوز من الاختلاف وما لا يجوز وفي إعرابه ومقداره وتأليف سوره وآيه، هذا لا يتوهم على رجل من عامة المسلمين فكيف برسول رب العالمين ﷺ!.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥) وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)﴾

هنا تسليات تلوَ بعض لخاطر الرسول الأقدس ﷺ القريح الجريح عن تسفيههم إياه وتجنينه والاستهزاء به، إنك لست في ذلك بدعاً من الرسل[1]:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠)﴾:

(١) في الدر المنثور أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال سأل رجل رسول الله ﷺ قال: أرأيت قول الله: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ [الحجر: ٩٠] قال: اليهود والنصارى - قال: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١] - قال: «آمنوا ببعض وكفروا ببعض».

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ طول التاريخ الرسالي قبلك ﴿فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ العائشين تاريخ الرسالات قبلك، فأنت وشيعتك من الآخرين، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ كما أرسلناك رسلاً مبشرين ومنذرين، بمختلف درجاتهم ودعواتهم.

والشيع جمع الشيعة، جماعة مشايعة لآخرين، عائشين حياة التبعية والهامشية ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[1] ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾[2].

والشيعة بين خيِّرة هم شيعة الحق على بصيرة كما كان إبراهيم ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾[3] وشرِّيرة هم شيعة الباطل في تقليد قاحل جاهل، و﴿شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تعني الآخرين، حيث شايعوا حملة مشاعل المتاهة والضلالة وكانوا هم من محطات الرسالات لتخليصهم عن تقليدهم الأعمى في مشايعتهم رؤوس الضلالة، مهما حلقت الرسالات على سائر المكلفين من المتبوعين هنا، ومن سائر المستضعفين الذين يفتشون عن الحق، أم هم حائرون.

إلّا أن القصد هنا تنظير شيع الآخرين بشيع الأولين، إنهم شرع سواء في تصلُّدهم على الباطل وتصلبهم القاحل.

ولماذا ﴿شِيَعِ﴾ هنا وفي الروم، و«شيعة» في مريم، أطلقت على شيعة الشر؟ لأن الشيعة في إطلاقها تعني المشايعة المطلقة دونما حدّ ولا برهان، وهذه باطلة وإن كان في مشايعة الحق، فإن حقها أن تكون على بصيرة وبرهنة، مهما كانت في استمراريتها مطلقة أمام المعصوم رسولاً وإماماً، فإنها بالنسبة لغير المعصوم مبرهنة على طول الخط، وللمعصوم في بدايته، ومن استمراره على بينة العصمة.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٢.
(٢) سورة مريم، الآية: ٦٩.
(٣) سورة الصافات، الآية: ٨٣.

فالشيعة في إطلاقها دون قرينة تعني المشايعة المطلقة الفوضى، وهي بقرينة صالحة تقيد بمشايعة صالحة كما في إبراهيم وسائر الشيعة الصالحين.

فحياة التبعية المطلقة هي حياة الشيعة الشريرة، وحياة التبعية المشروطة بالحق هي حياة الشيعة الخيِّرة، ثم حياة أرقى هي اللاتبعية إلّا وحي الله أو إلهامه كالمرسلين وسائر المعصومين.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾:

ولقد كان من حالهم البئيسة التعيسة وجاه المرسلين ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ أياً كان ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ دونما استثناء، اللّهم إلّا المؤمنين المتحرين عن إيمان، المستقلين في عقولهم، لا مستغلين ولا مستغلين، الذين يشقون أمواج الفتن بسفن النجاة وليسوا أتباع كل ناعق، بل يستضيئون بنور العلم ويلجؤون إلى ركن وثيق.

فـ ﴿شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ أم الآخرين في التقليد الأعمى هم شرع سواء في حياة التبعية، في تغافل العقول وتقافل القلوب وعمى البصائر وظُلَم السرائر، فهم بطبيعة الحال يتبعون - وجاه المرسلين - كُبرائهم المجرمين، فهم الزاوية الوسطى من مثلث المحطات لهذه الرسالات، حيث يشايعون طواغيتهم الماكرين دونما بصيرة أم تبصُّر، ثم الزاوية الثالثة هي المتقبلة لهذه الدعوات، وقليل من الوسطاء البسطاء.

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾:

السلوك هو النفاذ في طريق وسواه، وسلكه أنفذه، مما يلمح بتعمّل في النفاذ، مهما لم يكن السالك متعملاً، حيث المجال مجاله.

وترى ماذا ﴿نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾؟ أهو الذكر المنزّل؟ وهو بعيد مرجعاً لضميره، وليس سالكاً في قلوب المجرمين وهم لا يكادون ليسمعوه

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(١) فكيف يسلك - إذاً - في قلوبهم ولما يصل أو يتجاوز آذانهم إلى عقولهم فضلاً عن قلوبهم، ولو أنه سلك في قلوبهم لكانوا - إذاً - مؤمنين تسييراً من رب العالمين ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾(٢) فكيف يسلكه في قلوب المجرمين، اللهم إلّا سلكاً في قلوب المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾(٣) إزالة لسائر الحواجز آفاقية وأنفسية عن ركيزة الإيمان بعد الإيمان، ثم ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ ليس لها مشار إليه إلّا ﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الذي نسلكه في شيع الأولين ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ نحن ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ختماً على قلوبهم بما أجرمت واختتمت عن تقبل الحق، أم هو الاستهزاء بالرسل الذي أصبح سنة في شيع الأولين فـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الذي كان سالكاً فيهم ﴿نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ في شيع الآخرين وإلى يوم الدين سنة سارية في المستهزئين.

وترى كيف يسلكه في قلوبهم وهو من فعلهم؟ أم يسيّرهم عليه وهو ظلم بهم؟ إنه سلك من الله بعد انسلاكه فيهم بسوء اختيارهم، ثم الله ليس ليهديهم بعد عتوّهم القاصد المعاند، بل يذرهم في طغيانهم يعمهون، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(٤) سلكاً إلهياً بعد سلك بشري جزاءً وفاقاً، فلأنهم كانوا مجرمين لذلك سلكنا الإجرام في قلوبهم ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(٥).

فالمجرمون - ككل - الذين يعيشون حياة الإجرام، قطعاً لثمرات الحياة

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٣.
(٣) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٤) سورة الصف، الآية: ٥.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٦.

الإنسانية، فطريةً وعقليةً أمّاهيه؟ هؤلاء هم الذين يسلك في قلوبهم المقلوبة الاستهزاء بالرسل، فإنها خاوية عن نور الهدى بما افتعلوه، خالية عن بغية الحق، مليئة من ظلمات الهوى، فهي لا تحمل - إذاً - إلا ما يناسبها من مناحرة أهل الحق، والاستهزاء برسل الحق فـ ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾ على مدار الزمن ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ في مثلث الزمان!.

ومن مخلفات ذلك السلك في بعديه البعيدين:

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾:

فلأنهم استهزؤوا بالرسول، ثم سلكناه في قلوبهم، فهم ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾: الله والذكر والرسول[1] إذ - ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ...﴾[2].

﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ سنتهم في الاستهزاء بالمرسلين، وسنة الله فيهم إذ سلكه في قلوبهم، جمعاً بين الأولين والآخرين إلى يوم الدين في سنة السلك وسلك السنة، جزاءً جزئياً يوم الدنيا قبل يوم الدين.

ونموذجاً من المكابرة المرذولة المتعنتة والعناد البغيض بعد ذلك السلك السالك فيهم:

﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾:

﴿بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما في غيرها «أبواب السماء» تدل على أن للسماء أبواباً، و﴿فَتَحۡنَا﴾ دليل أنها مغلقة علينا، و«لو» تحيل فتحها لنا، و﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ﴾ دليل على أن في باب السماء معارج يركبها العارج، كمراكب

---

(١) فضمير الغائب في سلكناه راجع إلى الاستهزاء وفي به إلى الله والرسول المستهزأ به إذ لا معنى لـ «لا يؤمنون بالاستهزاء» وهذه المراجع الثلاثة كلها صالحة لرجوع الضمير إليها والذكر المنزل عليه.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧.

أتوماتيكية تعرج براكبيها في جو السماء، وكما تشير إليها آيات أخرى، فللسماء أبواب إلى الجنة يعرج أهلها فيها دون الكافرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[1] وأبواب إلى مياهها المختزنة فيها تخصها: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾[2] وأبواب إلى عذابها: ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[3] وأبواب وسلاليم يُستمع فيها إلى الملأ الأعلى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[4] ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾[5].

وأبواب يُصَّعَّد منها إلى مسارح الوحي ومصارحه في السماء، رؤية وسماعاً ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ...﴾.

فلو أنهم عرجوا في هكذا باب، ورأوا ما يرى من عالم الغيب شاهداً على حق الوحي ومنه الملائكة ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ من تسكير السُّكر، أو السَّكر: الصَّد، فهي على أية حال لا ترى الحقيقة كماهيه، لا فحسب أبصارنا ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ في العروج والدخول والخروج وإبصار العجائب كالملائكة، سفسطة أمام الواقع المحسوس الملموس، حيث الكفر والنكران سالكٌ في قلوبهم المقلوبة، فهي حالكة[6] هالكة لا تكاد تعرف الحقيقة كماهيه.

فإذا هم ينكرون ويكابرون في المحسوس الذي لا يكابر فيه أي حيوان،

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٠.
(٢) سورة القمر، الآية: ١١.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٧٧.
(٤) سورة الطور، الآية: ٣٨.
(٥) سورة الصافات، الآية: ٨.
(٦) شديدة السواد، فهالكة عن كونها قلوباً إنسانية.

فبأحرى أن يكابروا في غير المحسوس، وقد يكفي تصورهم هكذا لتبدو مكابرتهم السمجة الهمجة ويتجلى عنادهم المزري المغري، ويتأكد أن لا جدوى في جدالهم، فما عذر ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ عذراً حيث لا يصدقونهم لو فتح عليهم باب من السماء فرأوا الملائكة، حيث يقولون ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

ومن ذلك المشهد المنكور - لو فتح عليهم باب من السماء - إلى مشاهد ملموسة وسواها من السماء، يفتح علينا منها أبواب، ومن الأرض ومعايشها، ومن كل شيء خزائنها:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾:

أترى ﴿بُرُوجًا﴾ في السماء هي كواكبها كلها؟ وهي القصور المرتفعة، وليست الكواكب كلها قصوراً! إنما هي أبنية عالية في مدن من السماء[1] وقد زُينت للناظرين، الساكنين فيها، والقريبين منها، والبعيدين عنها، حيث ينظرون إليها بعيون مسلحة أمّاهيه، أم يسافرون إليها في مستقبل مجهول، وهنالك باب في السماء يعرج فيه إلى هذه البروج وسواها من مغيبات السماء، ولكن شياطين الجن والإنس محرومون عنها كما لمحت «لو» وكذلك صرحت:

﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾:

من إنس وجان أن يصَّعَّدوا إليها، حيث يُرجمون عنها، فلا هم قادرون على الصعود لها ولا الاستماع إلى الملإ الأعلى فيها[2] وذلك الحفظ منه الحفظ عن التَّسمّعُ إلى الملإ الأعلى، الكائنين في بروجها، فلأنهم هم

---

(١) راجع تفسير سورة البروج - الفرقان ٣٠ - ٢٥٨ تجد تفصيل هذه البروج.
(٢) راجع نظيرة الآية في سورة الملك والجن والصافات.

المحفوظ عنهم، إذاً فالجن المؤمنون هم غير محفوظ عنهم ذلك التسمع، ولا الإنس المؤمنون أن يصّعدوا إلى الملإ الأعلى، ولكنهم أيضاً منعوا عن ذلك التسمع منذ الوحي المحمدي ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾(١) فإن محادثات الملإ الأعلى وحيٌ أو إلهامٌ لا يصلحان غير المؤمنين، ولا المؤمنين الرسل حيث ختم الوحي فضلاً عن غير المرسل!

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾:

فإنهم ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾(٢).

فالشياطين عن السمع هناك معزولون، لكن المؤمنون قد يكون لهم نصيب من هذه البروج، سواء الإنس منهم والجان، إلّا أن الرسالة الأخيرة صدت دونهم - كما صدت من ذي قبل لسواهم - صدَّات التسمع إلى الملأ الأعلى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾(٣).

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾:

﴿وَٱلْأَرْضِ... رَوَٰسِىَ﴾ مذكورة في (٥٠: ٧) ثم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ﴾(٤) آيات ثلاث تمد الأرض حين تكميلها وتُلقي فيها رواسي، وفي فصلت ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾(٥) (٦).

---

(١) سورة الجن، الآية: ٩.
(٢) سورة الصافات، الآيتان: ٨، ٩.
(٣) سورة الجن، الآيتان: ٨، ٩.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٣.
(٥) سورة فصلت، الآية: ١٠.
(٦) قد فصلنا مدّ الأرض وجعل الرواسي وإلقائها في فصلت وق والرعد فراجع.

وما هو كل شيء موزون أنبتها في الأرض؟ علّه، ﴿كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ كما في «ق»: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[(١)] بل ما هو إلّا هو فإن خلق الله كله زوج وكله بهيج، فلا زوج إلّا وهو بهيج ولا بهيج إلا وهو زوج: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٢)] ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝﴾[(٣)] وعدم التفاوت والتهافت ذاتياً وخلقياً في خلق الرحمن هو أبهج بهجة فيه.

وكل زوج بهيج موزون نابت في الأرض قد تشمل كل نابتات الأرض، من نبات وحيوان وإنسان: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[(٤)] بل والمعادن حيث تنبت من مختلف المواد المتحولة تدريجياً إليها.

وعلَّ ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ هنا هو ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ هناك، فإن كل شيء سوى الله زوج، وكل زوج هو شيءٌ خلقه الله، وقد تلمح «من» التبعيض هنا أن منها ما هي مخلوقة في غير هذه الأرض، من سائر الأرضين السبع، وسائر الكرات المعمورة، وإلّا فلماذا ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ فهذه الأرض وأضرابها فيها أمهات النابتات الوليدات وكلها زوج بهيج موزون[(٥)].

ثم و﴿مَوْزُونٍ﴾ يدل على عامة الوزن في كل شيء سوى الله، وكل زوج، فما هو الوزن كله؟

---

(١) سورة ق، الآية: ٧.

(٢) سورة يس، الآية: ٣٦.

(٣) سورة الملك، الآيتان: ٣، ٤.

(٤) سورة نوح، الآية: ١٧.

(٥) نور الثقلين ٢ : ٦ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩] فإن الله تبارك وتعالى أنبت في الجبال الذهب والفضة والجوهر والصفر والنحاس والحديد والرصاص والكحل والزرنيخ وأشباه هذه لا يباع إلا وزناً.

هذه الآية هي الوحيدة في حمل الوزن لكل شيء وزوج، وقد تدلنا على لزام الوزن لكل شيء لأنه زوج، فللمركب وزن أياً كان، وزناً هندسياً كالبعدين والأبعاد، ووزناً فيزيائياً وهماً لكافة المواد دونما استثناء.

ولأن ﴿فِيهَا﴾ تعم الأرض ورواسيها، أم إذا خصت الأرض فالرواسي أيضاً منها ومن نابتاتها، حيث حصلت من الأمواج سطحاً وعمقاً حينما كانت ذائبة ومتحركة شَموساً، فالدَّورَان خلَّف المَوَجان وخروج شيء من أثقالها المائعة المائجة منها وبرودتها على أثر الاصطكاك بالفضاء المجاور البارد، إذاً فرواسيها كسائر مواليدها هي من نابتاتها، ثم رواس أخرى هي الأحجار السماوية الملقاة عليها، وثالثة هي الملقاة عليها من داخلها على أثر التفجرات البركانية في براكينها، فهذه رواس ثلاث ملقاة فيها مهما اختلفت حجماً ورخوة وصلابة.

فكل شيء في الأرض موزون نابتاً منها، ويأحرى الأرض نفسها منبتاً لنابتاتها، حيث الموزون لا ينبت إلّا عن موزون قضيةَ الولادة، ولكنه يُخلق من غير موزون وهو الله قضية الخالقية.

ثم الموزون يعم فيما يعنيه وزن الحكمة العالية في الخلق كله، ووزن الحاجة إليه المقصودة من كل خلق، كما ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[1] ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾[2] إذاً فكل شيء موزون في نفسه، وبالنسبة لبعض، ونسبة إلى الحكمة المتعالية كما ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ وضعاً شاملاً كافلاً في كافة الموازين لكل زوج بهيج، دونما خفة خلقية أماهيه إلّا ما نستخفُّه نحن بخفة العقل والدراية.

(١) سورة الرعد، الآية: ٨.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٧.

كما ويعني الوزن المادي لكل شيء، فالهواء لها وزن كما النور وسائر الطاقات والأجسام ذرية وجزئية وما فوقها وما دونها، ومنها الأرواح فإن لها أوزاناً مادية كما الروحية وإن كنا لم نستطع حتى الآن أن نزنها مادياً، فليس لزام واقع الوزن أن تستطيع القدرات المحدودة بأسبابها وموازينها المحددة أن تزنها، كما ليس لزام الوجود في كل موجود أن نعرفه أو نحيط به علماً.

ثم هنا وزن باطن لا يظهر إلّا تحت ضغوط الجواذب المختلفة الجاذبة، فالشيء الكائن في جو دون جواذب - إن صح واقعه - لا يظهر وزنه، والكائن بين جواذب متعادلة كذلك يظل في أوساطها دونما ميل إلى واحدة قضيةَ المكافأة، والكائن بين جواذب غير متعادلة يميل إلى الجاذبة الأقوى، ككل شيء في الأرض من ماء وهواء وسواهما من زوج، فإنها تميل إلى الأرض، حيث الجاذبية فيها بالنسبة لها أقوى من جواذب السماء، فإذا تصعّدت بجاذبة أقوى إلى الجو، تصل إلى جو متعادلة الجواذب فتبقى بلا ميل صاعد أم هابط، وإذا تجاوزه إلى جو أعلى حيث الجاذبية السماوية بالنسبة لها أقوى من الأرضية، تتصاعد إليها دونما حامل آخر، وكما شوهد في الهابطين على القمر.

ومثلثة الحالات في الأجسام دليل لواقع الوزن فيها، الظاهر أحياناً والكامن أخرى، فهو على أية حال كائن لا مرية فيه، فلو لم يكن لها وزن ذاتي لما انجذبت بالجواذب عند عدم تعادلها قوة وضعفاً، حيث الجاذبة لا تجذب إلّا ثقلاً، والكائن دون ثقل ذاتي لا ينجذب بأية جاذبة، كما الله تعالى شأنه!.

فالكائن إما له وزن دائب كسائر الكون، أم ليس له وزنٌ كما الله تعالى، وأما أن يكون له وزن أحياناً وليس له أخرى، فهذه قولة لا وزن لها، إلّا

بروزاً للوزن أحياناً، وعدمه أخرى كما للكائنات المخلوقة كلها حسب مختلف أجواء الجاذبية.

والسرّ في ذلك أن الوزن هو قضية المادية والتركب وهو لزام المادة، وكذلك الطاقة المنبثقة عن المادة، كالجاذبية العامة، فإن لها وزناً كما لسائر الكون، وكالنور وأمثالها، والروح وأضرابها، وكل كائنات العالم كالجن والملائكة.

وكما ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ فلتكن الأرض نفسها أيضاً نابتة من غيرها وموزونة، إذ لا يولد وليد إلّا من مجانسه، والأرض وليدة المادة الأم «الماء» كما السماء، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾[1] حيث الماء المبني عليه عرش الخلق للأرض والسماء ليس هو الماء المولود فيهما، وللتفصيل محله الأنسب وهو آيته هذه في هود.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

إن في الأرض معائش لكل عائش فيها، سواء فيها ﴿لَكُمْ﴾ كافة المكلفين العائشين على وجهها، أم ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ كوسائط لرزقه، فإن الله هو الرزاق - ككل - ذو القوة المتين.

وهذه المعايش هي ما أنبته الله فيها من كل شيء موزون وبهيج حيث وزنها وقدّرها لكل العائشين عليها دون انتقاص، فتعم هذه المعايش المآكل والمشارب والملابس والمناكح والأماكن وكل ما يحتاجه أي عائش، من جماد ونبات وحيوان وإنس وجان أم أياً كان، عيشة شاملة كاملة كافلة ﴿لَكُمْ﴾: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[2] - ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾.

---

(١) سورة هود، الآية: ٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠.

ولا في الأرض فقط ولمن عليها، بل ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[١].

والمعايش جمع معيشة وهي ما يعيش به أي عائش حيواناً وسواه، فمن عائش يرزقه الإنسان كالحيوانات الأهلية، ومنه ما يعيش بنفسه من دون الإنسان كغير الأهلية، مهما يرزقها الإنسان حين يملكها كالطير وأضرابها، ومنه ما لا يرزقه وليس ليرزقه، سواء ما يستفيد منه كالمعادن، أو ما لا يستفيد ككل الأشياء التي لا ينالها الإنسان، كل ذلك داخلة في ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ و﴿لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾[٢] نعم رزق الإنسان نفسه وما يرزقه غيره من حيوان وسواه، إذاً فـ ﴿مَعَٰيِشَ﴾ تشمل كافة الأرزاق الأرضية لكافة مرزوقيها دونما استثناء.

واحتمال ثان في ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ أنه مجعول ثان لـ ﴿لَكُمْ﴾ فمن المعايش ما يرزقه الإنسان من جماد ونبات وحيوان، حيث يسعى في تسويته أو تنميته، ومنها ما لا صنع فيه للإنسان، إذاً فللإنسان رزقان مما له فيه صنع وما ليس له، وكل ذلك جعله الله تعالى من معايشه فـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا...﴾[٣].

واحتمال ثالث فيه المعنيان معاً معنيان، ففي الأرض معايش لكل عائش، والكل بمعايشها هي من معايش الإنس والجان: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٤]؟.

ولا ضمير على الأول في العطف على الضير المجرور دون إعادة

(١) سورة هود، الآية: ٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٩.
(٤) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

الجار، حيث القرآن هو محور الأدب دون أن يحور حول سائر الأدب كما في سائر الإرب، ثم الجمع بين الاحتمالين يرفع المحظور أدبياً لو كان.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ استغراق مؤكد يشمل كل شيء دون إبقاء[1] اللّهم إلّا شيء الذات المقدسة بصفاته الذاتية لمكان ﴿عِندَنَا﴾ ومن ثم إلّا مشيئته تعالى حيث ينزِّل كل شيء بقدر معلوم لمكان ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ ثم ﴿عِندَنَا﴾ في جمعية الصفات تعني عندية العلم والقدرة والرحمة رحمانية ورحيمية، وكل شيء بحاجة جوهرية إلى هذه العنديات الإلهية، قبل تكوّنه وبعده، في ذاته أم صفاته أو حالاته، وكذا الذي لا يصلح للتكون مهما كان ممكن الذات.

فـ ﴿شَيْءٍ﴾ هنا تعني الكائن أو الذي يمكن تكوينه وفقاً للمصلحة الراجحة، أم صفات أو حالات لهما، أم إعدام الكائن عن بكرته أو في صفة له أو حالته.

دون الشيء الممكن غير الصالح للتكوين فإنه مستحيل التكوين مصلحياً، فلا خزائن له عند الله كما لا إمكانية لها وقوعية.

وأما المستحيل الذاتي فليس شيئاً حتى تشمله لفظة ﴿شَيْءٍ﴾ فلا تتعلق به القدرة فإنها تتعلق بشيء كائن أم الممكن تكوينه، وبصيغة أخرى كضابطة شاملة، هنا شيء مطلق بحقيقته الشيئية وإطلاقها، المستحيل عليه اللاشيئية أم أي تحول، وهو شيء الذات المقدسة الإلهية، فإنه شيءٌ لا كالأشياء، سرمدية الذات أزلياً وأبدياً، وهو الذي شيّأ الأشياء.

ثم مطلق الشيء، بنسبيته الشيئية ومجازها، فعلية كالكائن، أم شأنية كالذي يمكن تكوينه، وافقته المصلحة الكونية أم لم توافقه، بفارق أن الثانية لن تكوَّن لأنه خلاف المصلحة.

---

(١) فـ «إن» النافية قبل النكرة تفيد العموم و«من» تؤكده، فهذه مبالغة في الاستغراق ذات بعدين.

ومن ثم لا شيءَ مطلق ليس بالإمكان أن يكون أياً كان وأيان، وهو المستحيل ذاتياً كاجتماع النقيضين وارتفاعهما.

والشيء غير الصالح تكوينه في هذا البين هو شيءٌ لأصل إمكانيته ولا شيء لاستحالة وقوعه، والذي ﴿عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ هو الممكن الصالح تكوينه، كائناً أم سوف يكوَّن.

والخزائن جمع الخزينة وهي المحفظة، يحفظ فيها الشيء عن الضياع، أو مادة الشيء التي تولِّده، أم يحفظ فيها ما به الشيءُ شيءٌ، تكويناً بلا ولادة، وهي الخزانة التكوينية كما الإرادة الإلهية بعلمه المحيط على رحمته: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾(١) ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾(٢) ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾(٣) ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾(٤) ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾(٥).

فخزائن الله رحمة وعلماً وقدرة خاصة بالله، لا يخوّلها لأحد من خلقه حتى الرسول الأعظم ﷺ فضلاً عمن سواه: ف ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾(٦).

إذاً ف «خزائن الله الكلام فإذا أراد شيئاً قال له كن فكان»(٧) وهو الكلمة

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.
(٣) سورة هود، الآية: ٣١.
(٤) سورة ص، الآية: ٩.
(٥) سورة المنافقون، الآية: ٧.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.
(٧) الدر المنثور ٤: ٩٥ - أخرج البزاز وابن مردويه في العظمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ...

وفي تفسير البرهان ٣: ٣٢٨ - ابن بابويه بسند عن مقاتل بن سليمان قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام لما صعد موسى الطور فنادى ربه عز وجل قال: رب أرني خزائنك، قال: يا موسى إنما خزائني إذا أردت شيئاً أن أقول له كن فيكون.

التكوينية: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(١)] و«قوله فعله».

ولماذا «خزائنه» و﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ تختزن كل شيء بحاله وبمفرده؟ لأن كل شيء بحاجة إلى جمعية خزائن العلم والقدرة والرحمة رحمانية ورحيمية! وهذه الخزائن هي الصفات الذاتية الإلهية بما هي المنشأ للصفات الفعلية خلقاً وتقديراً وتغييراً وتطويراً أماهيه من شيء الذات، خلقاً لا من شيء، أم خلقاً من شيء، ومن شيء الأفعال والصفات والحالات.

فالعندية هنا هي الصفاتية الفعلية الحاضرة للذات المقدسة بمبدإ الصفات الذاتية.

فكما الأشياء ليست عند الله كمظروف في ظرف، أو وليد في والد، كذلك خزائنها مهما بان البون بينها وبين خزائنها، حيث الخزائن هي الكلمة التكوينية الصادرة عن مصدر الذات مُنشأةً من الصفات الذاتية، والأشياء مخلوقة في البداية لا من شيء، ثم شيء من شيء.

وليست الإرادة الإلهية والدة لها كما الذات، إذ ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾[(٢)] وإنما هي سبب الإيجاد لا من شيء الذات، وإنما لا من شيء أو من شيء مخلوق من قبل.

ثم وهذه الخزائن وهي الصفات الفعلية الإلهية، هي خزينة العلم والقدرة والحياة الصادرة عنها كلُّ شيء، المنتهية إلى الإرادة تكوينية وتشريعية.

فلا افتراق في خزائن التكوين والتشريع أن له - مثلاً - خزينة الخلق ولغيره تقدير الخلق، أم له الخلق والتدبير ولغيره تطويره وتغييره، بل

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.
(٢) سورة الإخلاص، الآية: ٣.

الخزائن كلها لكل شيء عنده لا سواه، حتى أقرب المقربين محمد ﷺ والمحمديين من عترته الطاهرين.

و﴿شَيْءٍ﴾ هنا يعم الشيء الكائن، والذي يصح أن يكوَّن، فكما لتكوين كل شيء خزائن، كذلك لكل كائن خزائنه بعد تكونه استبقاءً لكونه، واستكمالاً.

فالشيء أياً كان، هو الآن كما كان قبل كونه، افتقاراً إلى الله، إذ لا يكسب بتكوُّنه استقلالاً واستغناءً عن الله.

ولأن «نا» حيث تعني الذات بجمعية الصفات، ليس له مكانٌ، كذلك ﴿عِندَنَا﴾ بعيداً عن أي زمان ومكان وأي «كان» إلّا الذات المقدسة المكونة لكل الأكوان.

لذلك، فلا يعني التنزيل نزولاً من علٍ في مكان، وإنما نزولاً عن المشيئة الإلهية أياً كان ذلك الشيء، وكما ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾[1] و﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾[2] ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾[3] ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[4] ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ...﴾[5] كل ذلك واضرابها تشمله ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ مهما كان من الأشياء السماوية تنزل من علٍ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[6] أم ومن الأرضية كما أنزل الحديد والأنعام.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٦.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٦.
(٥) سورة الحديد، الآية: ٢٥.
(٦) سورة الحج، الآية: ٦٣.

وذلك التنزيل في أي شيء ليس جزافاً، أم يتم اعتباطاً ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾: «قدر» في العلم والقدرة والحكمة العالية الربانية، قدراً في الكون وقدراً في الكيان وقدراً في الميزان ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾[١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[٢] ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[٣] ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾[٤] فهو قدر ذاتياً ومصلحياً، شخصياً وجماعياً، فحتى نصيب الأرض من ماء السماء بقَدَر، لا يزيد عنه ولا ينقص، وعلّه يشمل قَدَر المطر في كل سنة، فـ «ليس أحد بأكسب من أحد ولا عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه حيث شاء»[٥].

فالشيء الأوّل خلقاً وهو المادة الأم، هو منزَّل إيجاداً بقَدَر، ثم منزَّل في تطوراته بقدر، وكافة التطورات الجوهرية والعرضية، كيماوية وفيزيائية أم هندسية أمّاهيه كلها منزلة بقدر، لا منزِّل لها ولا مقدِّر إلّا الله الواحد القهار، حيث الخزائن كلها عند الله لا سواه.

وكل قدر من هذه الأقدار مُهندَسة في العلم والقدرة والحكمة الربانية على ضوء الرحمة رحمانية ورحيمية، وهذه هي خزائن التنزيل لكل شيء بقدر، مجموعة في كلمة «كن» التكوينية، وقد يعنيها العرش فيما يروى أن «في العرش تمثال جميع ما خلق الله من البر والبحر»[٦] وهو عرش العلم والتكوين.

---

(١) سورة الرحمن، الآيات: ٧-٩.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٣) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.

(٥) الدر المنثور ٤: ٩٦ - أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: . . . وفي نقل آخر وما نزلت قطرة من السماء ولا خرجت من ريح إلا بمكيال أو بميزان.

(٦) نور الثقلين ٣: ٧ في روضة الواعظين وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عليه السلام أنه قال: في العرش. . . وهذا تأويل قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١].

ومن خزائن كل شيء ملكوت كل شيءٍ وناصيته، فلا شيء منفصلاً في كونه وكيانه عن ارادة الله.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

رياح لواقح تلقح سحاباً إلى سحاب سحباً ركاماً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾[1] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[2] وهكذا نرى الرياح لواقح تأليفاً بين منفصلات السحاب، فإقلالاً لها ثقالاً[3].

كما وإنها تلقح الأشجار[4] بعضها البعض عملية الفحولة، من ذكر إلى أنثى لتحمل فتحبل فتثمر، وقد تعنيهما الآية بإطلاق وعموم ﴿لَوَٰقِحَ﴾ مهما تقدمت إنزال الماء وهو من مخلّفات لقاح السحاب.

فهنالك حبالى السحاب الثقال بما تلقحها الرياح لقحاً عن فصل ولقحاً في وصل لكي تكون ركاماً، وهناك حبالى الأشجار تلقح أنثاها بذكورها بفارق أن اللقح هنا حمل نطفة الذكورة إلى الأنثى لتحبل بالثمر كما في

(١) سورة النور، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

(٣) تفسير البرهان ٢: ٣٢٨ عن الكافي بسند عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام حين سأله عن الرياح قال عز ذكره رياح رحمة لواقح وغير ذلك ينشرها بين يدي رحمته، منها ما يهيج السحاب للمطر ومنها رياح تحبس السحاب ما بين السماء والأرض ورياح تعصر السحاب فتمطر بإذن الله.

(٤) نور الثقلين ٣: ٧ في تفسير القمي قوله: وأرسلنا الرياح لواقح قال: التي تلقح الأشجار، وفيه عن تفسير العياشي عن ابن وكيع عن رجل عن أمير المؤمنين قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا تسبوا الريح فإنها بشر وإنها نذر وإنها لواقح فاسألوا الله من خيرها وتعوذوا من شرها.

النخل وأضرابها، وهناك الجمع بين متفرقات السحاب لتحبل بركامها واندغامها ماءً، وهذه هي الرياح المبشرة، ومن ثم منذرة كريح صرصر في أيام نحسات.

ثم لواقح الرياح لحمل السحاب، هي قبل لواقحها لحمل الأشجار، فلولا إنزال الماء من السماء نتيجة اللقح الأول، لم يكن مجالٌ للثاني إذ لا أشجارَ بلا أمطار.

وهنا ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ تفريعة ظاهرة على ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ فاللقاح الأول هو الأول ذكراً كما هو الأول واقعاً، ومن ثم الثاني على هامشه ومن مخلفاته.

وقد تلمح ﴿لَوَٰقِحَ﴾ جمعاً بديلاً عن «لاقحة» إلى جمعية اللقاح، فقد تكون هناك في الكون لقاحات أخرى للرياح غير هاتين، وعلّ التصريح بلقاح السحاب لأنه أمُّ اللقاحات ومصدرها، وكما هو مصدر لقاح الأشجار، كلقاح المعادن وأضرابها.

وعلى أية حال فهناك رياح لواقح حاملة السحاب، ثم لواقح تجعل السحاب حاملة المياه، ثم لواقح تجعل الأشجار حاملة النبات، ثم لواقح ولواقح علَّ العلم يكشف عن وجهها النقاب.

وهنا لولا لواقح الرياح للسحاب بصورة مستمرة دائبة لأصبحتم عطاشى ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾.

فلولا إرسال الرياح لواقح وإنزال الماء من السماء ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ لظللتم عطاشاً! وكيف تحزنون الماء، أماءَ الأرض وهو صاعد أبخرة إلى السماء، أم ماء السماء وهو نفسه ماء الأرض النازل منه وهو صاعدٌ على طول الخط، عملية أتوماتيكية بإرادة الله فأين الاختزان؟ ﴿قُلْ

﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينِۭ﴾[١] غوراً في الأرض أم غوراً في السماء، فأنتم دائبون في رحمة الله المتواترة المتواصلة، لو انقطعت عنكم لفترة كان فترة في حياتكم على قدرها.

وهذه الآية اليتيمة المنقطعة النظير في لاقحات الرياح تحمل ملاحم غيبية ما كانت البشرية لتعرفها في سالف الزمن وعلى طول الخط، اللهم إلّا شطراً منها أخيراً، وعلّه على ضوء آية اللقاح! نرى الزهور - على اختلاف أجناسها - بحاجة ماسة بعضها إلى بعض، فمنها ما خلق الله فيها الطّلع ومنها ما يقبله، وكما النخل فإن لها ذكوراً وإناثاً، فطلع الذكور يلقح الإناث، وهكذا جميع الأشجار تتزاوج بلقاح، ومهما كان الورد والرمان يلقح بواسطة الحشرات، نرى كبار الأشجار - كما النخل - والصنوبر والغار، أن لها تدبيراً آخر، حيث الرياح مسخرة لعملية اللقاح بين ذكرانها وإناثها.

وقد شوهد في بلاد (استكلندة) غبار من طلع بعض الأشجار يمرّ في الهواء كأنه سحب تزجيها الرياح، ثم يؤلّف بينها ثم تصير ركاماً ويراها الناس بأعينهم المجردة تلقح إناث تلك الأشجار!.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

تأكيدات أربعة: «إن - ل» وجمعيتي الصفات «نا - نحن» حصراً للإحياء والإماتة في ذاته المقدسة وحسراً عمن سواه، وصلة الإحياء والإماتة تذييلاً بما قدم من مظاهر الإحياء لكل الأحياء، متواترة دائبة، هي صلة عريقة بين الحياة الدنيا والآخرة، قياساً تمثيلياً بالأولوية القطعية، حيث الإحياء يوم الآخرة أعدل وأحيى منه يوم الدنيا، فالدنيا هي من فضل الله متعة امتحان، والآخرة من عدله وفضله بغية الجزاء العدل الوفاق.

ترى وماذا تعني ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ وطبعاً بعد الإماتة جملة وتفصيلاً؟

(١) سورة الملك، الآية: ٣٠.

وهو المالك يوم الدنيا كما هو المالك يوم الدين؟.

علّه إشارة إلى زوال المِلكية العرضية التي جعلنا الله مستخلفين فيها يوم الدنيا، فإنها تزول بالموت وتتم لله راجعة إليه كما له المُلك حقيقياً: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾(١) ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٢).

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

علم يحيط بكل مستقدِم ومستأخِر، بكل مصاديقهما كوناً وكياناً وزمناً، دون أن نستقدم منها شطراً ونستأخر شطراً آخر، فإنه تضييق لكلام الله.

فلو اختص بمن تقدم في الخلق ومن تأخر، لكان «المستقدَمين عليكم والمستأخَرين عنكم» اسمي المفعول، دون الفاعل مع الظرفين، حيث التقدم والتأخر في الولادة ليس من فعل المواليد! وإن كان ضمن المعني من اسمي الفاعل تلمحياً من العلم المحيط.

ثم المحور الأول والقدر المتيقن من الخطاب في ﴿مِنكُمْ﴾ هم الموجودون زمن الخطاب فلا مستقدَم فيهم ولا مستأخرَ، ثم الحشر عام في تاليتها ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾(٣) دون اختصاص بالسابقين واللاحقين، بل هو جمع بين المكلفين أجمعين ليوم الدين.

إذاً فهما طلب التقدم والتأخر، سعياً وكدحاً أم دونهما، عقلياً وعلمياً وإيمانياً وعمليّاً، حيث الطلب - على أية حال - هو قضية الفطرة الإنسانية، وأعمال الإنسان ومساعيه هي بين ما يُقدِّمه إنسانياً أم يؤخره شاء أم أبى، عالماً أم جاهلاً أو متجاهلاً.

---

(١) سورة غافر، الآية: ١٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٢٥.

ومن الناس من يستقدم أحياناً ويستأخر أخرى ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[١] إذاً فهما تشملان عامة المكلفين في مثلثة الحالات دونما استثناء ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

فالمستقدمون هم الذين يقدِّمون أنفسهم بما يقدمون لأنفسهم ابتغاء ما عند الله، تقديماً لإيمان وعمل الإيمان، وكل ما يتطلبه تقدُّم الإيمان بعمله الصالح، ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ﴾[٢] ومن «هم المؤمنون من هذه الأمة»[٣] كأفضلهم، كما المؤمنون من سائر الأمم، فالمستقدمون - إذاً - يعم المستقدمين والمستأخرين والحاضرين زمنياً، مهما كانت الأمة الأخيرة أفضلهم.

والمستقدم في معنى خاص هو من يقدم لحياته الأخرى، والمستأخر من لا يقدم إلا شائكة الحياة بل يؤخرها إنسانياً فهو - إذاً - رِجعي عما تتطلبه الإنسانية وعلى ضوء الوحي، كما المستقدِم تقدُّمي يتقدم إليها ويقدمها: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾[٤].

ثم المستقدِم في وجه عام - قضية استطارة الكتب واستنساخ الأعمال خيرّة وشريرة - يعم كل تقدمي ورجعي، حيث الأعمال كلها تُقَدَّم إلى الحياة الأخرى، مهما كانت الصالحات تقدّم الإنسان والطالحات تؤخره.

ويقابله المستأخر كالذين يظنون ألّا بقاء واستطارة للأعمال خيرة وشريرة، ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[٥].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٣.
(٣) نور الثقلين ٣: ٧ عن تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: هم المؤمنون من هذه الأمة.
(٤) سورة الانفطار، الآيتان: ٤، ٥.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ١٣.

وهكذا مستأخرٍ قد يعبَّر عنه بالمستقدم، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(١).

ثم هناك مستقدم ومستأخر خيراً أو شراً حسب مختلف الأعمال، بقاءً بآثارها فمستأخَرة باقية، أم دون بقاء فمستقدَمة غير باقية، فكل سنَّة حسنة أو سيئَة مستأخَرة، وهما في غير سنة مستقدَمة «فمن سن سنة حسنة كان له مثل أجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ولم ينقص أولاء من أجورهم شيءٌ، ومن سن سنة سيئة كان عليه مثل وزر من عمل بها إلى يوم القيامة ولم ينقص أولئك من أوزارهم شيء»(٢).

وقد تستقدم الآية هنا في مسرح العلم المحيط الرباني كافة المستقدمين والمستأخِرين بكل المعاني المسرودة، استقداماً لصالحات الأعمال أو طالحاتها، ومستأخرين طالحات الأعمال وصالحاتها، حيث الأعمال كلها تُستقدم بما يستنسخها الله، ويبرزها: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ...﴾(٣) ولكنما المؤخِرة منها لحياة الجنة مستأخَرة في استقدامها، كما المقدَّمة منها لحياة الجنة مستقدَمة في استقدامها، وكل من المستقدمة والمستأخَرة، الصالحة والطالحة، بين ﴿مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ حيث تعم الباقية بآثارها بعد الموت وغير الباقية، مهما كانت كلها باقية بذواتها ليوم يقوم الأشهاد.

إذاً فـ «المستقدمين والمستأخرين» تعمان كافة الحالات والمقالات في كل مجالات التكليف بعامليها الصالحين والطالحين أياً كانوا وأيان، وهنا

(١) سورة الحج، الآية: ١٠.
(٢) عن النبي ﷺ متواتراً.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

المقالة النادمة المتحسرة: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1]!

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بكل ربوبيته لأعلى قمم التربية، تكوينية وتشريعية ﴿هُوَ﴾ لا سواه، حيث علم المستقدمين منهم والمستأخرين لا سواه ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ جميعاً ليوم الجمع ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ في حشره كسائر فعله ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يحشرون.



(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

الفهرس

الموضوع | الصفحة

تتمة سورة يوسف

سورة الرعد

سورة إبراهيم

سورة الحجر